إميلي برونتي

# مرتفعات ويذرنج

رواية

تقديم

د. لنا عبد الرحمن

**الكتاب: مرتفعات ويذرنج (رواية)**

**الكاتب: إميلي برونتي**

**تقديم: د. لنا عبد الرحمن**

**الطبعة: ٢٠٢٠**

**الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)**




**٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة**

**جمهورية مصر العربية**

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

**E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com**



**دار الكتب المصرية**

**فهرسة أثناء النشر**

**برونتي ، إميلي**

**مرتفعات ويذرنج (رواية) / إميلي برونتي، تقديم: د. لنا عبد الرحمن**

**– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.**

**٢٢١ ص، ١٨*٢١ سم.**

**الترقيم الدولى: ٨ – ٣٧ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨**

**أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٥٩٥ / ٢٠٢٠**

# مرتفعات ويذرنج

رواية





# تقديم

تُعتبر رواية إيميلي برونتي "مرتفعات ويذيرينج" ضمن الروايات الإنكليزية الاجتماعية التي ماتزال مقروءة حتى أيامنا هذه ، حيث تستمد الرواية ديمومتها –رغم تباعد الزمن– من إيغالها في النفس الإنسانية، وتقديمها لصراعات وجودية أزلية، ستظل مستمرة مع بقاء الإنسان.

إنها الرواية الوحيدة للكاتبة إيميلي برونتي؛ وقد نُشرت أول مرة عام ١٨٤٧ تحت اسم مستعار هو ايليس بيل Ellis Bell وقد أجرت أختها شارلوت برونتي تعديلات على الطبعة الثانية من الرواية بعد وفاة إيملي. أخذ اسم الرواية من عزبة في مروج يوركشاير وهي بلدة تاريخية في شمال انجلترا.

تكشف الرواية عن عدة تصادمات بين الرومانسية والمجتمع، بين الفقر والثراء، وبين الفقد ورغبة الإنتقام.. يقف القارئ أمام كل هذا في عاطفة الحب الجارفة والمدمرة بين هيثكليف الصبي اللقيط، وكاثرين الفتاة الثرية.

يحضر الموت والألم والعذاب والصراع الداخلي في هذه الرواية ، التي تكشف عن واقع قاتم، ونزاع داخلي وعتمة تسيطر على العالم، تحديدا تلك القسوة والتكبر في التعامل مع الضعفاء. لا تغيب عن "مرتفعات ويذيرينج"، هذه الحقائق ولا تبتعد الكاتبة عن الواقع الحقيقي القاسي للأخوات برونتي الثلاث، في عزلتهن وفقرهن ومرضهن بالسل وموتهن المبكر، فقد فماتت به شارلوت في سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦– ١٨٥٥م )، وماتت به إميلي

في سن الثلاثين (١٨١٨- ١٨٤٨م)، ثم ماتت به آني في سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ – ١٨٤٩م) وبسبب الفقر الشديد وعدم وجود معيل للأسرة عملت الأخوات برونتي كمربيات لدى الأسر الثرية، وهي المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات في ذلك العصر، ثم رحلت شارلوت وإميلي إلى بروكسل حيث عملتا زمنا في التدريس، لكن صحة إميلي بدأت في التدهور، واشتد بها الحنين إلى أحراش يوركشاير، فعادتا إلى وطنهما، والجدير بالتأمل أن الأخوات برونتي كن يشتغلن بالكتابة في ظروف قاسية، لدرجة أنهن لم يكن يجدن ثمن الورق في بعض الأحيان.

وفي العودة للحديث عن الصراعات الموجودة في " مرتفعات ويذرينج"، يبدو وجود صراع الحب والمادة المتوازي مع صراع المجتمع الطبقي الذي لا يقبل بمن هم دونه مرتبة. هذا الموقف يحضر بشكل مؤثر في العلاقة العاطفية بين هيثكليف وكاثرين، قوة لحب لم يكن لها أن تنتصر في مجتمع بطريركي منغلق على نفسه، وسيظل كذلك لعقود طويلة بعد ظهور هذه الرواية.

يجدر بنا التوقف في هذا النص أمام شخصيات الأبطال، وقدرة الكاتبة على سبر أغوارها ، هيثكليف مثلا منذ ظهورة الأول تبدو شخصيته قاسية وعنيفة كأنه يقوم برد فعل على التنكيل الاجتماعي الذي تعرض له. يظهر صراعه الداخلي وهو يعبر عن نفسه قائلا: "أشد ما أتمنى أن يكون لي شعر أشقر وبشرة ناصعة البياض وثياب شبيهة بثيابه، وعيشة تماثل عيشته، وفرصة لأن أكون ثرياً مثلما سيكون." وفيما بعد لن يكون ثراء هيثكليف اللقيط حاملا له أي تعويض عن خسارته لكاثرين ووجعه لرحيلها، ولمعاناته النفسية في سنوات الطفولة.

أما كاثرين فتبدو أكثر خضوعا رغم طبيعتها الأنانية والسريعة الغضب والشرسة أيضا، أكثر استسلاما لقوانين مجتمعها، بل إن الأزمة الحقيقية في "مرتفعات ويذيرنج" تبدأ من اللحظة التي يسمع فيها هيثكليف كاثرين، وهي تكشف للخادمة عن قبولها بالزواج من إدجار. لنقرأ : " تعود كاثي من بيت الجيران إلى أهلها بعد خمسة أسابيع، وقد تغيرت كثيرا فهي تبدو مهتمة بهندامها وزينتها وتتصرف كسيدة أنيقة ناضجة. وصارت تسخر من تصرفات هيثكليف وإهماله لمظهره. وحين أتى إدغار لزيارتها.. راحوا جميعا يتناقشون ويسخرون من هيثكليف فتركهم غاضبا وانزوى في غرفته الصغيرة بعيدا عنهم، فاضطرت كاثي لاسترضائه. لكنه أقسم أنه سينتقم يوما."

وتعتبر كاثرين أنها وهيثكليف متشابهان حد التطابق، بينما إدجار هو المناسب لها اجتماعيا، لكنها لم تتمكن من نسيان هيثكليف الذي تنجذب له بشكل غريزي وحدسي في آن واحد، هذا الانجذاب الذي سيحمل كل الغضب والانتقام للمحيطين بهما، لأنه لن يفضي في قلب هيثكليف إلا نحو رغبة مدمرة في الأخذ بثأره من كل من آذاه.

تقدم رواية "مرتفعات ويذرينج" عالما موحشا مضطرما بالعواطف خاصا يقتصر على أبطاله، مخاوفهم، آلامهم، معاناتهم الذاتية، تساؤلاتهم المصيرية، وأحزانهم الشديدة بسبب مصائب الحياة التي يبدو الفرار منها مستحيلا.. إنه عالم تظهر فيه أشباح الأبطال لتؤثر في حياة الأحياء. عالم فيه قسوة مباشرة لا تمنح السعادة حتى في اختيار النهايات.

ولعل ما يميز هذه الرواية على مر العصور والذي جعلها محور اهتمام القراء والنقاد حتى الآن هو ذاك الصدق الفني والنفسي الذي أخرج هذه

القصة من قلب كاتبتها وجعلها تقدم نماذجا متفردة في الأدب وغير متشابهة مع روايات أخرى، سواء في الأدب الإنكليزي أو الآداب العالمية، رغم أن حياة إميلي برونتي لم تتسع لكتابة رواية ثانية، فقد فارقت الحياة وهي في سن الثلاثين، وبالتحديد في عام ١٨٤٨ م وكانت قد نشرت "مرتفعات ويذرنج" عام ١٨٤٧م .

إن الواقع الفعلي لحياة إميلي برونتي وأسرتها ترك أثره الواضح على روايتها، فالبيت الذي سكنته مع أبيها وأخوتها الستة فوق ربوة، وأمامه ومن خلفه حديقة الكنيسة وعلى جانبيه مقابر الموتى والأحراش الممتدة التي توحي بالعزلة والكآبة.. أما والد اميلي برونتي فقد كان شخصا غريب الأطوار ، بخيلا، قاسيا مع أبنائه للحد الذي فرض عليهم الابتعاد عن سائر الفلاحين من جيرانهم، وكان يمارس عمله كمعلم في مدرسة الكنيسة، مما عزز من حالة التشدد في شخصيته..عاشت إميلي في هذا الجو الأسري القابض الذي يملي عليها حياة ليست لها، ولا تنسجم مع عالمها الداخلي، لذا تشكل في داخلها أيضا ميل قوي للعزلة والصمت وعدم الرغبة في الاختلاط الاجتماعي بكل ما فيه من مجاملات، ووجدت تعويضا في الأدب، وبوابة واسعة تنفتح من خلاله على عالم من الملذات الذي يبدأ وينتهي من خيالها الخصب. وكانت الأخوات برونتي الثلاث ( إميلي، وشارلوت، وألس )، قد اخترن الاستعاضة بالأدب عن الحياة الواقعية، وانصرفن إلى الكتابة والتأليف الأدبي، كما كن يعرضن ما يكتبنه في البداية على بعضهن البعض، ثم تغير هذه العادة وصارت كل واحدة تجهل أين وصلت شقيقتها في الكتابة .

تميزت إميلي أيضا بكبرياء وترفع، و"كان كل ما يقع عليه بصرها يرسب في عقلها فيؤذي مشاعرها"، كما وصفتها أختها شارلوت ، لذا نجد أنها

وضعت في شخصية " كاثرين" شيئا من هذا الكبرياء والترفع، بالقدر عينه الذي وضعت الغضب والنقمة على العالم في شخصية هيثكليف، لقد وزعت أحاسيسها المتشابكة على أبطالها بكل ما فيها من عواطف مشتعلة ومضطربة إزاء الأفراد والعالم ككل على حد سواء. وانطلاقا من هذه النقطة تحديدا تمكنت إميلي برونتي من تحقيق الخلود لروايتها في التعبير بصدق متجرد عن أحاسيسها ككاتبة وكامرأة، في زمن كانت فيه النساء لا يتجرأن على تعرية مشاعرهن وكشفها على الملأ بلا مواربة، بينما كتبت إميلي كتابة وحشية أصيلة بعيدة كل البعد عما يمكن تسميته في ذاك الوقت بالكتابة النسائية.

د. لنا عبد الرحمن



## مؤلفة الرواية

ولدت إميلي في عام ١٨١٨م ونشأت في بيت متدين؛ فقد كان والدنا قسيسًا لمنطقة هوارت في أحراش مقاطعة يوركشاير، وكان لبعد منزلنا عن العمران، وعدم تمتعنا بأي صحبة خارج حدود الأسرة أثره في اعتمادنا على أنفسنا كل الاعتماد. بمعنى أن كل واحدة منا نحن بناته الثلاث كانت تعتمد على نفسها وعلى شقيقتيها، ثم على الكتب الدراسية، في الحصول على أقصى ما يمكن من المتعة ومن شغل الوقت.

ولعل أفضل نشاط مارسناه وأحبه إلى نفوسنا؛ سعيًا وراء المتعة القصوى، وإذكاء لهمتنا، هو محاولة التأليف الأدبي، وفي عام ١٨٤٥م تمكنا نحن الثلاثة –بعد مشقة كبيرة– من إصدار ديوان يتضمن أشعارنا ونشرناه بأسماء مستعارة. وبعد إصدار ذلك الديوان عكفت كل واحدة منا على كتابة رواية مطولة. فكتبت أنا رواية «الأستاذ» ثم رواية «جين إير»، وكتبت شقيقتي آن رواية «أجنس جراي»، أما إميلي فكتبت «مرتفعات ويذرنج».

وكانت روايتي «جين إير» أول رواية من هذه الروايات أخرجتها المطبعة، وتلتها الروايات الثلاث الأخرى. وظلت سنوات طويلة طاغية في مجال الشهرة والتقدير على سائر إنتاجنا القصصي، إلى أن أتيح لمرتفعات ويذرنج أن تخرج إلى الناس في عام ١٨٤٧م، وظنها النقاد في أول الأمر محاولة سابقة لي قبل كتابة «جين إير»؛ لأنها في نظرهم كانت أقل منها نضجًا،

وانهالت لذلك حملاتهم الجارحة عليها. ولكنها بمرور الزمن استطاعت أن تثبت قيمتها الحقيقية، وأن تعتبر مساوية لروايتي «جين إير» في المكانة، بل تفوقها في نظر الكثيرين. وأذكر لهذه المناسبة أننا ضحكنا كثيرًا لغفلة النقاد، وإجماعهم على ذلك الخطأ، ما عدا ناقد صحيفة «البلاديوم» الذي لم يتردد في اعتبار «مرتفعات ويذرنج» إنتاجًا فذًا، وثمرة قريحة أصيلة ممتازة. وإن كان هذا الكاتب قد تردى في خطأ زملائه من حيث نسبتها إلي دون شقيقتي.

وأشهد أمام الله أن شقيقتي إميلي لم تدع هجمات النقاد وسوء تقديرهم ينالان من عزيمتها؛ لأنها كانت أبعدنا همة، وأكثرنا حيوية، وأقوانا أملًا وطموحًا.

وكانت إميلي حقيقة أن تضيف إلى باكورتها القصصية ثمارًا أخرى، لولا الداء المضني الذي سكن جسدها ولا ريب أن تفاصيل هذا المرض محفورة في ذاكرتي، غير أن ترديدها باللسان، أو تسجيلها بالقلم، شيء فوق طاقتي واحتمالي.

وكما كانت إميلي في حياتها وعافيتها تمضي في كل مهمة تقبل عليها بمجموع همتها في غير إمهال، كذلك مضت في أشواط مرضها لا تلوي على شيء، وتعجلت فراقنا. بيد أن اضمحلال جسدها اقترن بعنفوان ذهني لم نعهده فيها من قبل، فكنت كلما رأيت شجاعتها في احتمال الألم والعذاب تزداد يومًا بعد يوم، نظرت إليها بمزيد من الإعجاب والإكبار والحب.

ولكن إميلي كانت على الدوام متفوقة على نفسها في كل مضمار، فهي أقوى إرادة من الرجال، وأبسط طوية من الأطفال، وهي فذة بطبيعتها،

وأعجب ما فيها أنها –على ما يفيض به قلبها من رقة للبشر جميعًا– لا تعرف الهوادة والرحمة مع نفسها، فهي تأخذ حواسها بسلطان روحها أخذًا عنيفًا. ولعمري إن رؤيتها وهي واهنة تزداد في كل يوم ضعفًا، ويدها ترتجف، وساقها تخونها، وقد أقبلت على واجباتها التي كانت تقوم بها في حال صحتها بكل دقة وانتظام، أقول إن رؤيتها وهي تفعل ذلك لخليقة أن تستنزف الدموع والحسرات حتى من الصخور.

وانقضى شهران من الآمال والمخاوف، وأخيرًا جاء اليوم الذي سطا فيه عادي الموت الذي لا يرحم على هذا الكنز الثمين، الذي ازداد نفاسة وقربًا إلى قلوبنا بما تهدده من المخاطر والعطب.

وفي مغيب الشمس من يوم ١٩ ديسمبر عام ١٨٢٨م استرد الخالق وديعته الغالية، ولم يترك لنا من شقيقتنا إميلي إلا بقية هيئة هي كل ما عفت عنه يد الداء ، وقد حسبنا أن وفاتها ختام المأساة، فإذا بنا نعود من مواراتها التراب لنرى شقيقتي آن وقد أنشب فيها الداء الوبيل مخالبه، وظل ينوشها إلى أن ماتت في ٢٨ مايو ١٨٢٩م.

ولئن كتبت هذه السطور الوجيزة لمناسبة إعادة طبع «مرتفعات ويذرنج»، فما ذلك إلا قيامًا بواجب مقدس، وإنصافًا لشقيقتي التي نسب الأغبياء عملها إلى براعتي.

شارلوت برونتي ( شقيقة المؤلفة )

# سلسلة تغلق الأبواب

عدت الساعة من زيارة مالك الدار، وهو يكاد يكون الجار الوحيد في هذه المنطقة، وهي لمنطقة خلابة الجمال حقًا ولا أعتقد أني كنت خليقًا أن أجد مكانًا يعدل هذا المكان في سائر أنحاء إنجلترا، من حيث بعده التام عن كل ضجة أو حركة اجتماعية، والمستر هيثكليف –والحق يقال– يشاركني في فكرة حب العزلة والابتعاد عن الناس.

وما أظن ذلك المخلوق الرائع أدرك مقدار انعطاف قلبي نحوه، فقد رأيت نظرة الحذر والنفور ترتسم في عينيه حين اقتربت بدابتي منه، ثم وأنا أرى أنامله في إصرار داخل جيوبه إذ أعلمته باسمي، شأن المحجم عن المصافحة، ولما هتفت باسمه بعدئذ قائلًا: «مستر هيثكليف؟» لم يزد جوابه على إيماءة برأسه.

واستأنفت الكلام قائلًا: «وأنا المستر لوكوود، المستأجر الجديد يا سيدي، وقد حرصت على القدوم للتشرف بزيارتك عقب وصولي مباشرة». فما كان جوابه إلا أن قال: «ادخل». وقد أطلق هذه الدعوة الجافة من بين أسنانه شأن المكره، وكأنه يقول: «اذهب إلى الجحيم»، ثم مد يدًا مضطربة ففتح بها البوابة التي كانت مغلقة بسلسلة ضخمة، ونادى خادمًا مسنًا كريه السحنة اسمه جوزيف، فأمره بالعناية بجوادي، وأن يحمل إلينا بعد ذلك شيئًا من الشراب.

وقبل أن أجاوز عتبة بناء الدار، التي تحمل آثار القدم والمتانة والجهامة،

وقفت قليلًا أتأمل نقوشًا تعلو الباب الأوسط، تبينت فيها تاريخًا وإسمًا، هما: ١٥٠٠، وهيرتون إيرنشو. ولا شك أنني كنت ميالًا للتعليق على منظر النقوش والبناء، ولأن أسأل رب الدار شيئًا من تاريخ البناء، لولا أن منظر وجهه لم يكن يشجع كثيرًا على السؤال أو الحديث؛ فهو رجل ضيق الصدر جدًا يريد مني أن أسرع بالدخول لا لشيء إلا لأعجل بعدها بالانصراف.

وأفضت بنا الخطوة الأولى إلى حجرة الجلوس العائلية أو مركز الدار، والخدم يسمونها الدار من قبيل الاصطلاح، وتجاورها المطبخ في معظم البيوت، أما هنا فالمطبخ بعيد عنها فيما لاح لي؛ لأني لم أسمع صوت آنية، ولم تطرق أنفي راحة شحم أو شواء.

ويحسن بي أن أتم وصف مضيفي غير المضياف فأقول: إنه شديد السمرة، أشبه في لونه بالغجر، أما ثيابه فأشبه بثياب أهل الحسب والنسب حين يسكنون أعماق الريف، وربما خيل إلى من ينظر إليه أن في الرجل كبرياء مفرطة. أما أنا قد حدثتني حاسة خفية في أعماقي بأن ذلك غير صحيح، وبأن نفوره من الناس مصدره الخجل وعدم الرغبة في الكشف عن عواطفه، ولعله تألم كثيرًا، ولقي أذى كثيرًا من الناس.

وجلس مضيفي بالقرب من النار المتأججة، واتخذت مجلسي قبالته عند الطرف الآخر من المدفأة، وأحببت أن أملأ فراغ الصمت الذي ساد بيننا، فداعبت بأصابعي كلبة حديثة عهد بالولادة، كانت قد غادرت جراءها وأقبلت نحونا يحدوها الاستطلاع، وراحت تتشمم أقدامي من الخلف، وقد كشرت عن أنياب يتساقط منها اللعاب شوقًا إلى شيء تنشبها فيه، فابتعث إقدامي على مداعبتها من أعماق حنجرتها زمجرة رهيبة، وعندئذ ركلها مستر هيثكليف

ركلة قوية وصاح:

- من الخير لك أن تترك الكلبة وشأنها فهي لم تتعود التدليل؛ لأننا لا نقتني الكلاب هنا للتلهي بها أو للترف.

ثم نادي: «يا جوزيف».. وسمعت الخادم العجوز يجيب نداء مولاه من أعماق القبو، دون أن يبدي استعدادا عمليًا للصعود إلينا. فنهض مولاه ليهبط إليه، وتركني في خلوة كاملة مع الكلبة الملعونة، ومع كلبين آخرين من كلاب الرعاة بشعي المنظر، فاشترك الثلاثة في فرض رقابة يقظة على كل حركة من حركاتي.

ولما كنت غير متلهف على أن تنعقد أي صلة بيني وبين الأنياب الحادة لذلك «الثلاثي الموقر»، لزمت جانب السكون التام. ثم خيل إلي أن الإهانات الضمنية مما يدق على أفهام هذه الحيوانات، فعزيت نفسي بتحريك معالم وجهي على مرأى منهان وبدا أن شيئًا في خلقتي لم يعجب السيدة الكلبة الوالدة، فقد زمجرت ثم نبحت في غضب شديد وقفزت إلى ركبتي، وكأنما كانت هذه الحركة إشارة متفقًا عليها فيما بين الثلاثة –أستغفر الله، بل فيما بين القبيلة كلها– فإذا بي هدف لخلية «كلابية» ثائرة من جميع الأجناس والأعمار والأحجام، تدفقت إلى القاعة من جميع منافذها. ثم أحسست شدات قوية متنافرة في سروالي وذيل معطفي، فأسرعت أضع المنضدة الصغيرة أمامي درعًا، ثم اختطفت القضيب الحديدي المخصص للمدفأة ورحت أدافع به عن نفسي ضد هجمات الثلاثة الكبار، وفي الوقت نفسه لم أترك فمي معطلًا، بل استغللته أحسن الإستغلال في إطلاق صيحات الاستنجاد.

وصعد المستر هيثكليف وخادمه، وقد ظهر عليهما الغضب الشديد، ولكن لا أعتقد أنهما بذلا في الصعود همة أكثر من المعتاد، ولو أن الأمر إليهما وحدهما لأصابني ضرر بليغ، غير أن رحمة الله أدركتني في صورة سيدة شابة انطلقت نحوي من المطبخ، وقد شمرت عن ساعديها، وتوهج وجهها من تأثير النار المشتعلة في المواقد، فشقت لنفسها طريقًا وسط الجيش المهاجم، وصبت عليه ضربات قوية من مغرفة كبيرة كانت في يدها اليمنى، ومن مقلاة كانت في يدها اليسرى.

وكان لهذه النجدة أثرها الحاسم، فهدأت العاصفة في اللحظة التي دخل فيها مستر هيثكليف، فرمقني بنظرة استياء لم أطقها، ولا سيما بعد المعاملة الجافية التي تتنافى مع كل كرم للضيافة. وقال:

– ما المسألة بحق الشيطان؟

– بحق الشيطان فعلًا! إن هذا القطيع من الشياطين ليس له نظير، وتركك ضيفك في وسطهم بمثابة ترك الضيف بين مجموعة من النمور.

فأجابني وهو يهز كتفيه ويضع القنينة أمامي:

– إنهم لا يتعرضون للذين لا يمسون شيئًا، والكلاب إنما تقتنى للحراسة. والآن هل لك في إحتساء كأس من النبيذ؟

– كلا، ولك الشكر.

– على رسلك يا مستر لوكوود، إنك مذعور فاشرب من هذا النبيذ. والواقع أن الضيوف نادرون جدًا حياتي أنا وكلابي، لا ندري كيف نستقبلهم كما

ينبغي أن يستقبل الناس الضيوف. والآن في صحتك يا سيدي!

فانحنيت وبادلته تحيته، وقد بدا لي أن من البلاهة أن أقضي بقية الأمسية غاضبًا مستاء بسبب سوء أدب بدر من شرذمة من العجماوات، ولا سيما أنني رأيت ذلك الحادث قد أشاع في النهاية شيئًا من روح المرح. واحتسيت كأسي وبدأت أجاذب رب الدار الحديث في مزايا الدار التي استأجرتها لأستجم فيها وأعتكف.

وقد وجدت في الرجل إطلاعًا واسعًا وسررت بمجالسته، حتى لقد انتويت أن أتطوع بتكرار الزيارة غدًا، مع أنني لا أعتقد أنه يرحب بذلك!

كان عصر أمس مثقلًا بالغيوم، بارد الهواء، فعزمت على تمضية الوقت في مكتبي إلى جوار المدفأة، وعدلت عن الزيارة التي كنت قد أزمعتها لأن الأوحال جعلت الطريق إلى مرتفعات ويذرنج شديدة الوعورة.

ولكني ما كدت أهم بالصعود إلى مكتبي بعد الغداء حتى وجدت خادمة صغيرة تريق الماء على الأرض، وقد جمعت من حولها أنواع المكانس والفرش. فتناولت قبعتي ومعطفي، وقطعت الأميال الأربعة التي تفصل بين مقري وبين بوابة حديقة المستر هيثكليف، فوصلت في آخر لحظة قبل هبوب العاصفة الثلجية.

ووجدت صعوبة شديدة في فك السلسلة الضخمة التي تغلق البوابة، ثم قفزت من فوق السور، ورحت أطرق باب الدار عبثًا إلى أن تورمت مفاصل يدي، بينما الكلاب تنبح في الداخل. وعندئذ أطل جوزيف العجوز بوجهه العكر من كوة في المخزن وصاح:

– ماذا تريد؟ السيد ليس في الدار.

– ألا يوجد في الداخل أحد ليفتح لي الباب؟

– لا يوجد إلا السيدة، ولن تفتح لك.

– ولماذا؟ ألا تستطيع أن تخبرها من أنا يا جوزيف؟

– مستحيل. لا دخل لي في هذا الموضوع.

وأخذ الثلج يتكاثف، فجعلت أهز الباب بكل قوتي في محاولة أخيرة، وعندئذ ظهر من ورائي رجل في مقتبل العمر، بغير معطف، حمل شوكة الدراس على كتفه، وأشار إلي أن أتبعه. فاخترقت مخزنًا للبن، ثم منطقة ممهدة فيها عريشة الفحم ومضخة وبرج للحمام، وأخيرًا وصلنا إلى الجناح الكبير الدافئ الذي استقبلت فيه في المرة السابقة.

وشرح صدري أن وجدت في المدفأة نارًا مستعرة، كما وجدت بالقرب من المائدة الصغيرة التي أعدت لعشاء وفير، تلك السيدة التي لم يخطر ببالي من قبل وجودها في هذا المكان، فانحنيت وانتظرت، وفي ظني أنها ستطلب مني أن أجلس. ولكنها نظرت إلي، ثم مالت إلى الوراء في مقعدها، واحتفظت بسكونها وصمتها، فتنحنحت وقلت لها:

– جو خشن، أخشى يا مسز هيثكليف أن أكون قد اضطررت إلى تحميل الباب مغبة إهمال خدمكم في الاستجابة للطرق بسرعة.

لكنها لم تفتح فمها، وجعلت تحملق كما أحملق، دون أن تحول عني

نظراتها الهادئة الخالية من كل معنى أو اكتراث، مما جعلني أشعر بالضيق. وعندئذ قال لي الشاب بفظاظة:

- اقعد، سيحضر حالًا.

وما كدت أقعد حتى رأيت الكلبة الأم «جينو» تحرك طرف ذيلها وهي تتجه نحوي، تنازلًا منها في هذه المقابلة الثانية، واعترافًا بسابق التعارف بيننا. وعندئذ قلت:

- يا لها من حيوان جميل! أتعتزمين يا مدام أن تتخلي عن الصغار؟

فأجابت المضيفة الظريفة بلهجة أشد تنفيرًا من لهجة هيثكليف نفسه:

- إنها ليست ملكي، وأنت لم يكن يجدر بك أن تخرج في هذا الجو. هل دعيت إلى الشاي؟

ثم نهضت فوقفت أمام الإبريق، وفي يدها علبة الشاي الجاف. فابتسمت وقلت:

- كم يسعدني أن أحظى بفنجان.

- ليس هذا هو المهم، أسألك هل دعيت؟

- كلا، فأنت الشخص الذي من حقه أن يدعوني.

وعندئذ وضعت علبة الشاي الجاف في مكانها، ولم تصب منها شيئًا في الإبريق، ثم جلست. أما الشاب فاضطجع على الأرض إلى جوار النار في غير تكلف.

وبدأت أسأل: هل الشاب خادم في الدار أم من أهلها؟ ولم أجد في هيئته المشعثة، وملابسه التي تشبه ملابس الأجراء، ما يرشحه لطبقة الخدم؛ ولهذا لم أجاذبه الحديث.

وبعد خمس دقائق، حضر هيثكليف، فقلت له:

– لقد حضرت يا سيدي على حسب الوعد، وأخشى أن الجو سيحبسني هنا نصف ساعة، إن سمحت مكارمك باستضافتي تلك الفترة.

فجعل ينفض الثلج عن كاهله وصاح:

– نصف ساعة؟ لا أعتقد أنك ستختار عنفوان العاصفة للعودة إلى مقرك. ثم إنك تجازف بالتيه في المستنقعات والغرق فيها. إن أهل المنطقة الذين نشؤوا بينها كثيرًا ما يضلون في مثل هذه الليلة العصيبة، وأستطيع أن أؤكد لك أن الجو لن يتغير في مدى ساعات طوال.

– في هذه الحالة لعلك تتكرم علي بمرشد من غلمانك، يمكنه أن يقضي الليلة عندي في جرانج حتى الصباح. فهل تتكرم علي بغلام؟

– لا أستطيع

– حقًا؟! إذن يجب أن أعتمد على حصافتي.

فهز كتفيه. ونظرت السيدة نحوي وقالت وهي تهم بصنع الشاي:

– هل «هو» سيتناول الشاي؟

فصاح بها هيثكليف بلهجة أفزعتني: «أعديه بسرعة». ثم صاح بي:

– والآن يا سيدي قرب كرسيك.

وقربنا جميعًا كراسينا من المائدة، ومعنا ذلك الشاب الريفي، وساد الصمت بعد ذلك، حتى أحببت أن أبدد السحابة التي كنت مسؤولًا عن تكونها، فقلت:

– إن الكثيرين لا يتصورون إمكان السعادة في حياة بعيدة عن العالم كل البعد كحياتك، ومع هذا يا مستر هيثكليف أعتقد أن سعادتك كاملة وأنت محاط بعائلتك، وبجوارك زوجتك.

– زوجتي؟ أين هي زوجتي هذه؟ إن التي تراها ليست زوجتي بل زوجة ابني!

ورأيته يرمقها بنظرة تفيض كراهية، فأدركت أن الشاب هو ابنه، والتفت إليه وقلت له وقد اشتدت حمرة وجهه:

– إني أغبطك أيها الشاب على هذه الحورية!

ويظهر أن هذه الغلطة كانت أسوأ من سابقتها؛ لأني رأيته يجمع قبضة يده كمن يهم بضربي. ثم راجع نفسه وغمغم من بين أسنانه بلعنة خافتة. وقال مضيفي:

– خانك التوفيق في تخميناتك يا سيدي، فليس فينا من يملك هذه الحورية؛ لأن قرينها مات، وهذا القرين كان ابني.

– وهذا الشاب؟

– ليس ابني يقينًا!

وابتسم هيثكليف كمن ينفي عن نفسه تهمة، فزمجر الشاب وقال لي:

– اسمي هيرتون إيرنشو، وأنصح لك أن تشمله باحترامك.

– حاشاي أن أنفض ذلك الاحترام.

فنظر إلي نظرة قاتمة طويلة، وبدأت أشعر بأن المكان يضيق بي، ولما كانت مسألة الأكل قد فرغ منها، ولم ينبس أحد الثلاثة بكلمة، اقتربت من النافذة لأختبر حالة الجو، فوجدته على أسوأ ما يكون، فقلت:

– واضح الآن أن عودتي إلى جرانج مستحيلة بغير مرشد، فلست بمستطيع أن أتبين موضع قدمي في هذا الظلام الدامس وقد انطمست تحت الثلج معالم الطرق. فماذا أصنع؟

ولم يجبني أحد. ولما انثنيت بعد ذلك عائدًا إلى موضعي، وجدت الحجرة خالية إلا من مسز هيثكليف، العاكفة على إذكاء النار، ومن جوزيف العجوز يحمل الطعام إلى الكلاب. فقلت للسيدة الشابة:

– أستميحك العذر لإقدامي على إزعاجك، ولكني لا أملك إلا أن أفترض طيبة القلب فيمن لها مثل محياك الملائكي. فأرشديني إلى معالم أتعرف بها طريقي إلى بيتي.

فأجابتني وهي تجلس بهدوء على مقعد بجوار الشمعة وتفتح كتابًا:

– أسلك الطريق التي أتيت منها.

- إذن لن يوبخك ضميرك إذا اكتشفت جثتي في الصباح؟

- ولم؟ ليس في وسعي أن أصحبك بنفسي، فلن يسمحوا لي بالخروج ولو إلى سور الحديقة.

- أنت؟ لن يخطر ببالي أن أدعك تعبرين عتبة الباب في هذه الليلة. إنما أردت منك أن تخبريني عن الطريق لا أن ترشديني بنفسك، أو على الأقل أرجو أن تقنعي مستر هيثكليف كي يعيرني دليلًا.

- ومن عساه يكون ذلك الدليل؟ هو نفسه أم إيرنشو؟ أم الخادمة زيلا؟ أم جوزيف؟ أم أنا؟ هذه هي مجموعتنا كاملة.

- أليس في الضيعة غلمان؟

- كلا، هذه مجموعتنا.

- إذن ليس أمامي سوى البقاء.

- هذا موضوع عليك أن تسويه مع مضيفك ولا شأن لي به.

وعندئذ سمعت زمجرة هيثكليف من المطبخ يصيح لي:

- عسى أن يكون لك في هذا درس، فلا تقدم على الأسفار الرعناء في هذه البقعة الجبلية. وأما من حيث البقاء هنا الليلة، فليس من عادتي أن أحتفظ في الدار بمعدات الراحة للضيوف، ولذلك يتعين أن تشارك في الفراش هيرتون أو جوزيف.

– في وسعي أن أنام على مقعد في هذه الحجرة.

– كلا، فالغريب غريب غنيًا كان أو فقيرًا، ولا يسعني أن أسمح لغريب باحتلال مدخل الدار وأنا غافل عنه!

ونفد صبري بعد هذه الإهانة، وأعربت عن اشمئزازي، ثم نحيته عن طريقي مندفعًا إلى الفناء فاصطدمت بإيرنشو. وكان الظلام حالكًا بحيث لم أتبين باب الخروج، وجعلت أتخبط، بينما سمعت صوت الشاب يقول لهيثكليف:

– سأذهب معه إلى منتصف الطريق.

– ستذهب معه إلى جهنم، ومن عساه يرعى شأن الجياد؟

– إن حياة إنسان أجل شأنًا من إهمال أمر الجياد ليلة واحدة.

وانضمت مسز هيثكليف إلى هذا الرأي برقة لم أتوقعها منها. فصاح الشاب:

– اخرسي! لست رهن أمرك، فإن كنت حريصة على حياته فأغلقي فمك.

– إذن فليراود شبحه أحلامك ويقظتك!

ولمحت في طريقي جوزيف يحلب البقرة في ضوء فانوس إلى جواره، فاختطفت ذلك الفانوس ورحت أجري. وسرعان ما جري ورائي وهو ينادي الكلاب لتدركني، وذعرت إذ سمعت هرير الكلاب خلفي، فوقعت على الأرض ونزف الدم من أنفي، ولولا أن الخادمة زيلا أدركتني لتركوني أموت وهم يقهقهون مسرورين.

وصبت زيلا على رأسي الماء البارد، فأفقت قليلًا، ولكن حالة الإعياء التي كنت فيها لم تسمح لي برفض الضيافة تلك الليلة تحت سقف ذلك الجلف العجيب.

وسقتني زيلا بعد ذلك كأسًا من الكونياك، وساعدتني في الوصول إلى الفراش. أما أهل الدار فعادوا إلى جلستهم المألوفة.

أخذت زيلا –وهي تتقدمني صاعدة السلالم– توصيني بأن أخفي ضوء الشمعة ولا أحدث ضجة، ثم قالت لي:

إن لسيدي نظرية غريبة عن الغرفة التي ستنزل فيها؛ ولهذا لا يدع أحدًا على الإطلاق يسكنها.

ولما سألتها عن السبب أجابت قائلة:

لست أدري، وقد عشت هنا زهاء عامين، ورأيت من الأفاعيل أغربها، ولست محبة للاستطلاع.

وأخذتني الدهشة، ولم تترك لي الفتاة مجالًا للسؤال، إذ انفلتت راجعة إثر دخولي الغرفة، ولم يسعني إلا أن أغلقت الباب خلفي، ثم أخذت أتلفت حولي متفقدًا الفراش الذي سأنام فيه.

ولم يكن هناك سوى كرسي، وخزانة للملابس، ثم خزانة كبيرة من خشب البلوط في أعلاها مربعات تشبه نوافذ العربات، فاقتربت من هذه الخزانة، ونظرت من تلك الفتحات، فإذا نوع غريب من الفرش العتيقة، وإذا الخزانة نفسها أشبه بغرفة صغيرة، بينما حافة النافذة التي تلاصقها بمثابة منضدة.

ودخلت الخزانة، ووضعت الشمعة على تلك المنضدة، ثم أغلقت باب الخزانة، وتنفست الصعداء، إذ شعرت بأنني هناك بمأمن من رقابة هيثكليف، أو أي إنسان سواه.

وفي ركن من أركان حافة النافذة أو المنضدة، حيث وضعت الشمعة، وجدت صفًا من الكتب. وكان طلاء النافذة قد تغير في كل موضع منه بكتابات حفرت فيه. ولم تكن تلك الكتابة إلا اسمًا واحدًا مكررًا على مختلف الوجوه وأشكال الحروف بين كبيرة وصغيرة. وهذا الاسم هو «كاثراين إيرنشو» في بعض المواضع، و«كاثراين هيثكليف»، أو «كاثراين لينتون» في مواضع أخرى.

وحين قلبت الكتب وجدت بينها صفة مشتركة، إنها كتب كاثراين هذه. وهي مجموعة منتقاة يدل قدمها على أنها ظفرت بالتقدير المتمثل في كثرة الاستعمال. ولم يكن استعمالها مقصورًا على القراءة. فما أقل الفصول التي خلت هوامشها من تعليقات تملأ كل فراغ في الصفحة!

ولما أمعنت النظر في تلك التعليقات وجدت بعضها جملًا مستقلة، وبعضها الآخر مذكرات تكاد تتصل اتصالًا تامًا، وقد كتبت كلها بخط صبياني.

وكم أشاع السرور في نفسي أن وجدت في صفحة كبيرة خالية من الكتابة رسمًا كاريكاتوريًا متقنًا لصديقي جوزيف الخادم العجوز ذي الوجه الكالح، وشعرت على الفور باهتمام وجاذبية نحو كاثراين المجهولة، ودفعني ذلك إلى فك طلاسم خطها الهيروغليفي الباهت:

«يا له من يوم أحد فظيع. ليت أبي يعود «هندلي» يقوم مقامه أسوأ قيام، ومعاملته لهيثكليف بشعة؛ لهذا قررت أنا وهيثكليف العصيان، واتخذنا الليلة الخطوة الأولى».

«سقطت الأمطار طول النهار بغزارة، فلم نستطع التوجه إلى الكنيسة. فكان لابد لجوزيف أن يعقد مجمعًا مقدسًا في السندرة العلوية. وعلى هذا استقر هندلي وزوجته في الطابق الأدنى أمام نار تشيع البهجة والراحة، وانصرفا إلى أي شيء في الدنيا سوى قراءة الإنجيل، وأستطيع أن أؤكد ذلك وأقسم عليه. أما هيثكليف وأنا والأجير الزراعي المسكين فتلقينا الأمر بحمل كتب صلواتنا والصعود إلى السندرة. وهناك جلسنا في صف منتظم فوق غرارة قمح ونحن نتأوه ونرتعد من شدة البرد. وأنا نفسي لم يكن يعزيني عن ذلك سوى الأمل في أن يعاني جوزيف ما نعانيه ويرتعد كما نرتعد، وبذلك يختصر موعظته السنية ولكنه كان أملًا موهومًا سرعان ما خاب؛ لأن خدمة القداس التي قام بها هذا التقي الورع استغرقت ثلاث ساعات، ومع ذلك ظهرت على وجه أخي –وهو يبتعد بسرعة عن المقعد الذي جلست فيه زوجته– أمارات الدهشة عندما رآنا هابطين وصاح: «أهكذا فرغت الصلاة بهذه السرعة؟»».

«وكانت العادة في أمسيات الآحاد أن يسمح لنا والدنا باللعب بحيث لا تحدث ضجة كبيرة، أما الآن فالهمس الضعيف يكفي لمعاقبتنا بالركوع في الأركان. ويصيح الطاغية: أراكم نسيتم أن لكم سيدًا هنا، إني سأمحق أول مخلوق منكم يخرجني عن هدوئي، إني مصمم على الهدوء الكامل والسكون التام».

«ثم يعهد إلى جوزيف بتلقيننا درسًا دينيًا، وفي هذه الليلة تمردنا على

ذلك الوضع بأن ألقيت كتابي في أقصى الحجرة، ثم ركل هيثكليف كتابه أيضًا. وقامت القيامة».

«وجعل جوزيف يصيح مستنجدًا بهندلي، وأقبل علينا هذا من فردوسه الدافئ، وأخذ بخناقينا فرفع كلًا منا عن الأرض بيده، ثم ألقى بنا فوق أرض المطبخ، وأكلنا علقة ساخنة».

«إن رأسي يكاد يطير من الوجع والرطوبة. والنعاس لا يريد أن يلم بأجفاني. وأشد ما يؤلمني أن هندلي ينعت هيثكليف المسكين بالمتشرد، ويأبى عليه أن يجالسنا بعد اليوم أو يأكل معنا، ويحرم علي أن ألعب معه. ويهددنا إذا عصينا نواهيه تلك بأن يطرده شر طرده، بل إنه تجاسر على توجيه اللوم إلى والدنا لأنه أحسن معاملة هيثكليف، ثم أقسم أن يرده إلى موضعه الحق».

ويبدو أن النعاس داعب أجفاني، فهومت وأنا أنظر في تلك المذكرات الغريبة التي نقلتني إلى صميم حياة تلك الأسرة، حين كان هيثكليف طفلًا، ولا بد أنني كنت متأثرًا بالعاصفة خلال نعاسي، قد رأيت أشباحًا تقترب من النافذة، وتطرق زجاجها من الخارج، وتطلب مني وهي تئن أن أفتح لها كي تدخل، يا له من كابوس مزعج!

والتقط سمعي المرهف خشخشة في الخارج، ثم رأيت صف الكتب المرصوص على حافة النافذة يتحرك ويكاد يقع. وهممت بأن أقفز من الفراش، لكني لم أستطع أن أحرك جارحة من جسمي، فأطلقت صرخة فزع عالية. وإذا خطوات سريعة تقترب من باب الحجرة، ثم يد قوية تدفعه فتفتحه، ثم رأيت بصيصًا من النور من الكوات المربعة التي تعلو فراشي، فجلست

ورحت أمسح العرق الذي يتفصد من جبيني، ولزمت الصمت.

وبدا التردد على الداخل لحظة، ثم سمعته يغمغم كمن يحدث نفسه، وأخيرًا قال بصوت نصف مهموس كمن لا يتوقع جوابًا:

– هل من أحد هنا؟

ووجدت من الخير أن أعترف بوجودي، فقد عرفت صاحب الصوت، ولم يكن إلا هيثكليف. وقد خشيت إن لزمت الصمت أن يواصل التفتيش، وعلى هذا سارعت إلى فتح باب الخزانة.

وإلى أن أموت لن أنسى الأثر الذي أنتجته هذه الحركة!

كان هيثكليف واقفًا عند مدخل الخزانة، وليس على جسمه غير قميص وسروال، وكانت في يده شمعة، وقد ابيض وجهه حتى حاكى لون الجدار القائم خلفه. ولا شك أن صوت احتكاك الخشب وأنا أفتح باب الخزانة قد أفزعه جدًا، فقد بدا كمن تلقي صدمة كهربائية، ووقعت الشمعة من يده، وبلغ من اضطرابه أنه لم يفكر في التقاطها!

ورأيت أن أجنبه مذلة الظهور أمامي بذلك الجبن، فهتفت معتذرًا:

– لست سوى ضيفك يا سيدي، ومن سوء حظي أنني صرخت وأنا نائم تحت تأثير كابوس مزعج، وإني آسف لما سببته لك من قلق.

فثاب إلى نفسه، وأخذ الشمعة فوضعها فوق مقعد؛ لأن يده كانت ترتجف فلم يقدر على حملها بنفسه. ثم صاح وهو يغرس أظافره في راحة يده:

– قاتلك الله يا مستر لوكوود! ولكن من الذي جاء بك إلى هذه الحجرة؟ من

هو؟ لا بد أن أطردهم جميعًا من البيت في هذه اللحظة.

– إنها خادمتك زيلا، ولست أبالي أن تطردها يا مستر هيثكليف لأنها تستحق ذلك وزيادة. وأحسبها أرادت أن تحصل على تأكيد عملي بأن هذه الغرفة مسكونة بالأرواح الشريرة، وأن يكون ذلك اليقين على حسابي، فكان لها ما أرادت. إنها خلية حافلة بالعفاريت والأشباح، وأنت على حق إذ تغلقها وتنهى عن استعمالها، فما من أحد في الدنيا يحمد لك أن تتركه في وكر الأبالسة هذا.

– ماذا تعني؟ وماذا تريد أن تصنع؟

وكنت في هذه اللحظة قد جمعت ثيابي في يدي واستقبلت الباب، فواصل كلامه قائلًا:

ارقد يا رجل حيث أنت، وأتمم ليلتك بخير. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة المنكرة التي ليس لها من مبرر إلا تعرضك للذبح.

وهل تظن ذلك العفريت كان يعفيني من الله لو أنه دخل من تلك النافذة؟ لا والله لن أركن لمساكنة أرواح أجدادك الكرام بعد الآن.

ونظرت في ساعتي ثم هتفت:

لم تبلغ الثالثة بعد، وكنت أحسبها بلغت السادسة. إن الوقت يتلكأ هنا، لا بد أننا أوينا إلى المخادع في الثامنة.

– بل في التاسعة مدة الشتاء، وننهض في الرابعة.

ووجدت لهجته متغيرة، فنظرت إلى وجهه، وخيل إلى أنه يمسح عن عينيه

دمعة. ثم قال لي:

- اذهب يا مستر لوكوود فارقد في فراشي، لقد أطارت صرختك الصبيانية النوم من عيني، ونزولك الآن سيحدث اضطرابًا ويعوق أعمال الخدم.

- وأنا أيضًا طار النوم عن عيني، ولهذا أفضل أن أتمشى في الفناء حتى يطلع النهار، ثم أنطلق في سبيلي، ولك أن تأمن من خطر حضوري إلى هنا بعد اليوم، فقد شفتني هذه الليلة من داء طلب الأنس بالناس في الريف والمدن على السواء.

- إنه داء قبيح خذ الشمعة واذهب حيث شئت وسألحق بك فورًا. ولكن تجنب الفناء؛ لأن الكلاب مطلقة السراح فيه. وتجنب حجرة الجلوس والدار؛ لأن جينو تقوم بالحراسة هناك. فليس أمامك سوى الممرات والسلالم تتخبط فيها. اذهب على كل حال عن وجهي، وسألحق بك بعد دقيقتين.

وصدعت بأمره ما دام ذلك سيخرجني من تلك الغرفة الملعونة، ولما كنت أجهل إلى أين تفضي بي تلك الممرات الضيقة، فقد وقفت حيث كنت أمام الباب. وبذلك شهدت عن غير قصد مني سلوكًا غريبًا جدًا من جانب مضيفي، يناقض ما خلته عليه من رجاحة العقل.

لقد رأيته يتوجه إلى الفراش داخل الخزانة ويفتح النافذة، ثم ينفجر باكيًا في غير احتجاز. وجعل يردد بين شهقاته:

- ادخلي ادخلي، تعالي يا كاثي، تعالي إلي مرة أخرى أتوسل إليك! آه يا حبيبة قلبي! اسمعيني هذه المرة يا كاثراين، هذه المرة الأخيرة.

ولم يتلقَ من الشبح جوابًا ينم عن وجوده، وهي نزوة مألوفة في الأشباح أن يخفوا على مخاطبيهم أي أثر لمثولهم، ثم اقتحم الثلج والرياح العاصفة نافذة الغرفة في عنف، فأنطفأت الشمعة، بل أنطفأت شمعتي أيضًا!

وأخذتني الرأفة بمضيفي؛ لأن الحزن البادي في صوته أنساني أنه يهذي، وشعرت أيضًا بشيء من الخزي؛ لأن الكابوس الذي رأيته في منامي هو الذي أثار عنده هذا الهذيان. وإن كنت لا أدري لماذا!

وانتزعت نفسي هابطًا درجات السلم في حذر، فلما وصلت إلى المطبخ الخلفي، وجدت في الموقد نارًا، فأشعلت شمعتي. وعلى نورها وجدت المكان خاليًا إلا من هرة رمادية اللون تقدمت نحوي فحيتني بمواء خافت.

وسمعت من خلفي وقع أقدام، ثم رأيت الشاب هيرتون إيرنشو، وكانت سحنته متجهمة وهو يومئ إلى أن أتبعه من خلال باب في أقصى المطبخ، فتبعته صامتًا إلى أن وجدت نفسي في الدار، وقد استيقظت زيلا وراحت تشعل النار في المدفأة. بينما ركعت مسز هيثكليف وهي تقرأ في كتاب صلاة، ولا شك أنها كانت مستغرقة في صلاتها؛ لأنها تركت الكلاب تلعق يدها، ثم لمحت هيثكليف واقفًا وظهره إلى جهتي، وقد أخذ يصب جام غضبه على زيلا. تحول إلى زوجة ابنه وراح يسبها قائلًا:

– إن هذه البلهاء تبرر لقمتها بالخدمة، أما أنت فتعيشين على صدقتي بغير مقابل. دعي هذه النفايات التي في يدك وابحثي عن شيء مفيد تعملينه، إنه لا بد لك من أن تؤدي لي ثمن ابتلائي بطلعتك طول الوقت. أسامعة أنت؟

وعندئذ أجابته السيدة الشابة وهي تغلق الكتاب وتضعه على مقعد:

– سألقي هذه النفايات من يدي؛ لأنك قادر على أن ترغمني على ذلك. ولكني لن أفعل إلا ما يعجبني، بالغة ما بلغت شتائمك!

فرفع هيثكليف يده بغضب، وتراجعت هي إلى مسافة تجعلها بمأمن من تلك اليد التي أذاقتها ولا شك وطأتها من قبل.

ولما كنت غير ميال لمشاهدة منظر عراك كالذي يحدث بين القطط والكلاب، فقد تقدمت مظهرًا نفسي في دائرة الضوء، وكأني أروم الاستمتاع بدفء النار، متظاهرًا بأني لم أسمع شيئًا.

وكان الجميع من حسن اللباقة والكياسة حيث أوقفوا التراشق بالألفاظ، ودس هيثكليف يديه في جيوبه ليكفهما عن العدوان، أما مسز هيثكليف فمطت شفتيها واتجهت إلى مقعد بعيد فجلست فيه ساكنة كالتمثال، بارة بوعدها ألا تصنع شيئًا.

ولما قدم طعام الإفطار اعتذرت من عدم المشاركة فيه، وانتهزت فرصة بروز أول شعاع من أشعة الفجر فخرجت إلى الهواء الطلق الذي كان قد سكن بعد هدوء العاصفة، وإن كان شديد البرودة كأنه الثلج.

وناشدني مضيفي أن أتمهل، وعزم علي أن يرافقني حتى أجتاز المستنقعات. وخيرًا صنع؛ لأن منحدر التل كان كأنه الخضم المتلاطم من الثلج الأبيض، لا أتبين فيه وحدي المرتفعات والمنخفضات ولا المزالق والأخاديد. فلولا مصاحبته إياي لهلكت أو أصابني من رحلتي عطب شديد.

## بعيدا عن أعين الفضوليين

حقا إنَّنا كريشة في مهب الريح!

كنت حين تخيرت هذا المكان المنعزل عن الناس قد عقدت العزم على أن أتجنب كل صلة اجتماعية، ولكن إرادتي لم تستطع الصمود يومًا واحدًا أمام السأم والضيق، فما غابت شمس ذلك اليوم، ثم حملت إلي مسز دين (مدبرة البيت) طعام العشاء، حتى رغبت إليها في مجالستي وأنا أتناوله، عسى أن يثير حديثها الحركة في نفسي، أو يسلمني إلى نعاس أتخلص به من الملالة

وبدأتها الكلام قائلًا:

- إنك عشت هنا ردحًا طويلًا من الزمن، أظن أنه ستة عشر عامًا؟
- بل ثمانية عشر يا سيدي، فقد التحقت بالخدمة حين تزوجت سيدتي كي أكون وصيفة لها، فلما قضت نحبها أمسكني السيد كي أكون مدبرة للدار.
- وأحسبك شهدت تغيرًا كثيرًا في ظروف المكان والسكان؟
- وشهدت كثيرًا من المتاعب والأرزاء أيضًا.

فقلت لنفسي: لأديرن الحديث حول أسرة المالك، وحول تلك الفتاة الأرملة الحسناء التي أشتهي أن أعرف قصتها، وهل هي من بنات الإقليم أم نازحة إليه غريبة الدار؟ وعلى هذا سألت مسز دين:

- لماذا آثر هيثكليف أن يؤجر الجرانج، واحتفظ لإقامته ببيت مرتفعات ويذرنج الذي يقل عنه موقعًا وفخامة. وهل سبب ذلك ضيق ذات يده عن الأنفاق على دار كبيرة مثل الجرانج؟

- كلا يا سيدي. بل إنه واسع الغنى، تنمو أمواله في كل عام وتتراكم. فهو من الثراء بحيث يستطيع أن يقيم بدار أفخم من هذه الدار، غير أنه شحيح؛ ولذلك لا يتردد في التخلي عن الجرانج أمام إغراء الأجر المعروض. إني لأعجب من أمر هؤلاء الذين يستبد بهم الجشع، في حين لا أهل لهم ولا ولد.

- يبدو أنه كان له ولد؟

- أجل، كان له ولد ومات.

- وهذه السيدة الشابة مسز هيثكليف، أهي أم ذلك الولد؟

- نعم!

- ومن أين جاءت أصلًا؟

- إنها يا سيدي ابنة مولاي السابق، وكان اسمها قبل الزواج كاثراين لينتون، وكنت مربيتها وهي صغيرة، وكم أتمنى أن ينتقل المستر هيثكليف إلى هنا، لكي تكون معي كسابق عهدنا.

- إذن هذه الدار كانت دار آل لينتون؟

- نعم.. كانت.

- ومن هو هيرتون إيرنشو، الذي كان يعيش مع مستر هيثكليف؟ أهما قريبان؟

- بل هو ابن شقيق مسز لينتون الراحلة.

- هو إذن ابن خال الشابة؟

- نعم، وكان زوجها ابن عمتها؛ لأن هيثكليف كان قد تزوج شقيقة مستر لينتون.

- لقد قرأت فوق مدخل بيت مرتفعات ويذرنج اسم إيرنشو منقوشًا في الصخر. فهل هي أسرة عريقة؟

- عريقة جدًا يا سيدي، وهيرتون آخر سلالتها، كما أن السيدة كاثي آخر سلالة آل لينتون. لكن هل أفهم من كلامك يا سيدي أنك زرت بيت المرتفعات؟ عفوك لهذا السؤال فإني متشوقة أن أسمع ما يطمئنني عنها.

- عن مسز هيثكليف؟ لقد بدت لي في خير عافية. وفي أبهى حسن. ومع ذلك أظن أنها ليست سعيدة غاية السعادة.

- لا أستغرب هذا. وهل استرحت إلى السيد؟

- إنه شخص فظ يا مسز دين، أليست هذه طباعه المألوفة؟

- إنه في خشونته أشبه بحد المنشار، وفي صلابته أشبه بالصخر. ومن الخير لك ألا تصلك به صلة.

- لا بد أنه ذاق الكثير من حلو الحياة ومرها، ولعل فظاظته هذه من آثار الظروف التي تقلبت عليه، فهل عندك نبأ حياته؟

- أعرف عنه كل شيء يا سيدي، خلا ما ليس يعرفه إنسان غيره. إنه وحده الذي يعرف أين ولد، ومن أبواه، وما مصدر ثروته. أما هيرتون المسكين فقد حرم من ثروة أبيه وأجداده بطريق الغش والاحتيال، والمسكين هو الشخص الوحيد الذي يجهل تلك الحقيقة.

- إنك تحسنين إلي أعظم الإحسان إذا أخبرتني بطرف من نبأ جيراني. وأحسب أني لن أكون مستريحًا إن أويت إلى فراشي فورًا، فهل لك أن تتكرمي بالجلوس معي ساعة، للحديث في هذا الموضوع؟

- بكل سرور يا سيدي. أمهلني فقط ريثما آتي ببعض الصوف أحيكه وأنا أتحدث إليك، وستجدني مستعدة للجلوس إليك ما شئت من الوقت. وأسمح لي بأن آتيك بشراب ساخن لأني أرى عليك بوادر الإصابة ببرد.

استهلت مسز دين حديثها قائلة:

- قبل أن آتي لأقيم هنا، كنت أقيم بصفة مستمرة تقريبًا في مرتفعات ويذرنج؛ لأن أمي كانت مربية المستر هندلي إيرنشو، والد هيرتون. وقد ألفت أن ألعب مع الأطفال في تلك الدار، وأن أقوم بقضاء الحاجات، وأساعد في أعمال الزراعة الهينة، وتقديم الطعام للماشية.

وفي ذات صباح رائق في فصل الصيف، إبان الحصاد فيما أذكر، وصل إلى هناك مستر إيرنشو الكبير، والد هندلي وجد هيرتون فيها بعد، وكان قد

ارتدي ملابس السفر، وبعد أن ألقى إلى جوزيف بتعليماته لذلك اليوم، التفت إلى طفليه هندلي وكاثراين، وإلي أيضًا فقد كنت آكل معهما، وقال مخاطبًا ابنه:

- إني ذاهب الآن يا ولدي إلى ليفربول، فماذا أحضر لك من هناك؟ لك أن تختار ما تشاء، ولكن ليكن مما يخف حمله. فالمسافة كما تعلم ٦٠ ميلًا.

وطلب هندلي مزمارًا. ثم وجه الأب السؤال عينه إلى الآنسة كاثي وكانت تناهز السادسة من عمرها، غير أنها كانت تحسن ركوب أعتى جواد في الإسطبل، فطلبت سوطًا. ولم ينسني السيد لأنه كان ذا قلب عطوف وإن اتصف بالصرامة في بعض الأحيان، فوعد أن يأتيني بملء جيبي من التفاح والكمثرى، ثم قبل طفليه وانطلق.

واستطلنا فترة غيابه التي امتدت ثلاثة أيام، وكم من مرة جعلت الصغيرة كاثي تسأل متى يعود؟ وكانت زوجته مسز إيرنشو تتوقع حضوره ساعة العشاء في اليوم الثالث لرحيله، فجعلت تؤجل تلك الوجبة ساعة بعد ساعةن ولكن لم يظهر ما يدل على اقتراب حضوره. وتعب الطفلان من الجري إلى البوابة بين الحين والحين، ثم اشتد الظلام، ورأت أمهما أن تحملهما إلى فراشهما، لكنهما توسلا إليها أن تسمح لهما بالانتظار.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة ليلًا، انفتح الباب في هدوء، ودخل السيد فألقى بنفسه فوق مقعد، وراح يضحك ويتأوه في وقت واحد، ويأمر الجميع بعدم الاقتراب منه لأنه شبه ميت، بعد أن سار على قدميه كل تلك المسافة،

وأقسم لا يعود لمثلها أبدًا. ثم فتح معطفه الكبير الذي كان يحتضنه بين ذراعيه وقال لزوجته:

– انظري هنا يا عزيزتي. هذه هدية أرسلها إلينا الله، وإن كان منظرها الداكن القبيح يوحي بأنها هدية من الشيطان.

فتجمعنا كلنا حوله، ورأيت من فوق رأس الآنسة كاثي طفلًا قذرًا مهلهل الثياب أسود الشعر. وسنه تسمح له بالمشي والكلام، أما وجهه فكان يدل على أنه أكبر سنًا من كاثي. وعندما أوقفناه على قدميه راح يحملق فمها حوله، ويغمغم بألفاظ مبهمة لم يستطع أحد منا أن يفهم لها معنى. واستولى علي الذعر، أما مسز إيرنشو فهمت بأن تلقي به خارج باب الدار، وصاحت بزوجها:

– كيف خطر ببالك يا رجل أن تأتينا بهذا اللقيط الغجري؟ إن عندنا طفلين من صلبنا، وهما حبينا لنربيهما ونطعمهما ونشقى بهما. هل جننت؟

فأخذ السيد يفسر لها الموضوع، غير أنه كان في الواقع نصف ميت من شدة التعب. وكل ما استطعت أن أستخلصه من كلامه خلال مقاطعة زوجته له بتقريعها، أنه لمح ذلك الطفل مشردًا جائعًا يرتعد من البرد في شوارع ليفربول، فأخذ بيده وراح يسأل عن ذويه ليرده إليهم. فلم يدله أحد عليهم، وكان على عجل للعودة، ولم يستطع أن يتركه للمقادير، فأتي به وهو يشعر بأن تلك إرادة الله.

ومهما يكن من شيء فقد انتهت مولاتي إلى جمجمة خافتة هي مقدمات الاستسلام، ثم أمرني مستر إيرنشو أن أغسل بدن الطفل وألبسه ثيابًا نظيفة

وأرقده مع الطفلين.

أما هندلي وكاثي فلم يشتركا في المعركة التي قامت بين الزوجين، بل اكتفيا بالصمت والنظر والاستماع إلى أن أعلنت الهدنة ثم عقد الصلح. ثم هجما ليفتشا جيوب أبيهما بحثًا عن الهدايا التي وعدهما بها. وكان هندلي في الرابعة عشرة، ومع ذلك غضب غضب الأطفال وبكى بصوت مرتفع حين أخرج من جيب معطف أبيه حطام مزماره الموعود. أما كاثي الصغيرة فضحكت حين علمت من أبيها أن سوطها سقط منه في بعض الطريق، ثم بصقت على الغلام اللقيط القذر، فتلقت على صدغها صفعة مدوية من والدها.

ورفض الإخوان أن يقاسمهما ذلك الغريب فراشهما، بل حجرتهما، فلم أجد في ذلك غرابة. ووضعت الطفل على رأس السلم، آملة أن أفتح عيني في الصباح فأجده قد غادر البيت أو مات من البرد.

وشاء الحظ أن يسمع الطفل صوت مستر إيرنشو، فاهتدى به، وزحف حتى وصل إلى باب حجرته فنام على عتبته، فلما قام مستر إيرنشو ليغادر مخدعه عثر به. وفتح تحقيقًا في الموضوع، انتهى بحملي على الاعتراف، وكان جزائي على جبني وقسوتي هو الطرد من الدار.

هذا يا سيدي هو مبدأ دخول هيثكليف في دائرة تلك الأسرة، وقد استرضيت سيدي بعد بضعة أيام وعدت إلى البيت، فوجدت الطفل الغريب قد عمد وسمي هيثكليف، وهو اسم الابن البكر لمستر إيرنشو، وقد مات طفلًا.

ووجدت الآنسة كاثي شديدة الالتصاق بهيثكليف، أما هندلي فكان يكرهه. والحقيقة أنني أيضًا كنت أكرهه، فشاركت المستر هندلي في إلحاق الأذى به كلما وجدنا إلى ذلك سبيلًا. ولم تكن مولاتنا تدافع عنه مهما يكن من إساءاتنا إليه. أما هو فكان يبدو متجهمًا صبورًا، وكأنما تحجر من سوء المعاملة، فمهما يصفعه هندلي أو يلكمه، لا تهتز فيه شعرة، ولا يذرف دمعة. أما قرصاتي المسمومة فغاية الأمر أنه كان يتلقاها بشهيق عميق وهو يغمض عينيه، فمن يراه كذلك يحسب أنه هو الذي ألحق الأذى بنفسه مصادفة، ولا ذنب لأحد.

وأحسب تلك القدرة على الاحتمال هي التي جعلت السيد إيرنشو يهيج بالغضب كلما اكتشف عدوان ابنه على ذلك اليتيم المسكين كما كان يسميه، فقد كان تعلقه بهيثكليف غريبًا، وكان يصدق كل ما يقوله له، وما أقل ما كان يقوله، وما أقربه في الغالب إلى الحقيقة! بل إنه كان يدلله أكثر من تدليله لكاثي الرعناء المندفعة.

وكذلك كان دخول هيثكليف تلك الدار مثار حقد وخلافات، مما أدى بعد وفاة مسز إيرنشو –وقد ماتت بعد عامين من حلول هيثكليف في البيت– إلى اعتبار هندلي لأبيه طاغية لا صديقًا، وعدوًا لا حليفًا. وجعله يرى في هيثكليف مغتصبًا لعطف أبيه ولامتيازاته الشرعية. وظل هذا الشعور ينمو في صدره، وكنت أنا على رأيه.

وحدث بعد ذلك أن مرض الأخوان بالحصبة، ووقع علي عبء تمريضهما، ثم مرض بها هيثكليف وكانت إصابته خطيرة. فلم يكن يدعني أبرح فراشه، وكأنه يشعر بعظيم ما أؤديه له من الخدمة. وفي الوقت نفسه كان

أهدأ الثلاثة وأقلهم إثارة للمتاعب، وأشدهم امتثالًا للأوامر، فجعلتني هذه الصفات أقل تجنيًا عليه وكرهًا له، ولا سيما أن الأخوين أذاقاني في تمريضهما عذاب الجحيم.

ونجا هيثكليف من الهلاك، وأكد لي الطبيب أن الفضل في ذلك يرجع إلى عنايتي الفائقة ويقظتي الساهرة، فأدخل ذلك الثناء السرور العميم على نفسي. وفي الوقت نفسه رق قلبي للمخلوق العظيم الذي كان سببًا لحصولي على ذلك الثناء المستطاب، وبذلك فقد هندلي آخر حليف له.

وليس معنى هذا طبعًا أنني أصبحت مولعة بهيثكليف، بل إنني كنت لا أكتم دهشتي من إعزاز سيدي له، وهو ذلك الغلام المتجهم السحنة الذي تنطق ملامحه بالفظاظة. على أنه كان –والحق يقال– لا يشتري ذلك العطف من سيدي بالملق أو بالامتنان، بل كان يبدو عليه عدم الإحساس بمدى إحسانه. وفي الوقت نفسه كان يدرك تمام الإدراك منزلته من قلب مولاي، وليس أدل على ذلك من قصة المهرين.

كان مستر إيرنشو قد اشترى مهرين للغلامين، فأخذ هيثكليف أجملهما منظرًا، لكن مهره هذا سرعان ما أصيب بعرج. وعندئذ قال لهندلي:

– يجب أن تبادلني جوادك بجوادي، وإن لم تقبل سأخبر أباك بالصفعات الثلاث التي أنزلتها بي هذا الأسبوع، وسأريه أثر ضربتك بالعصا على ظهري، فهو لم يزل أزرق داكنًا من الخاصرة إلى الكتف.

وأخرج له هندلي لسانه، وعرك أذنه، لكن هيثكليف لم يتألم بل قال بهدوء:

– الأفضل لك أن تلبي طلبي فورًا، وإلا أكرهك أبوك على ذلك، ورد إليك ضرباتك مع الفوائد المركبة.

– أغرب عن وجهي وإلا قذفتك بهذا.

ولم يكن «هذا» سوى ثقل من الحديد توزن به البطاطس، فلم يجفل هيثكليف بل وضع يديه وراء ظهره وقال بثبات:

– اقذف! وعندئذ سأخبره كيف تفاخرت بأنك سوف تطردني من البيت عقب وفاته، وسترى كيف يعجل بطردك أنت في حياته.

فاغتاظ هندلي وقذفه فأصاب صدره، وسقط الفتى على الأرض، غير أنه نهض واقفًا على الفور. ولولا تدخلي لذهب إلى السيد، وكانت في إصابته الأدلة الكافية على صحة دعواه، على أنه لم يهدأ إلا حين نزل له هندلي عن حصانه.

وأخذ هيثكليف الحصان ليربطه في حظيرته، وعندئذ ركله هندلي من الخلف فأسقطه على وجهه وانطلق هاربًا.

وأدهشني أن هيثكليف لم يكترث، بل تجلد وأتم إبدال سرج الحصان، ثم قاده إلى مربطه، دون أن تختلج في وجهه عضلة واحدة. حتى إذا فرغ من ذلك في غير عجلة قعد عن كثب فوق كومة من العشب الجاف، وراح يدلك ساقه ليذهب أثر الضربة العميقة، ولا يضطر للدخول إلى الدار وهو يعرج. فلو فعل لسأله السيد عن خطبه، ولنال هندلي العقاب الصارم، وذلك يتنافى مع المعاهدة التي أملى هيثكليف شروطها بنفسه.

وكانت الضربة للأسف أشد مما توقع، فتخلفت عنها كدمات ظاهرة، ولم أجد صعوبة في إقناعه بأن يدعني أزعم للسيد أن المهر الجديد هو المسؤول عنها في نوبة من نوبات جماحه، فما كان هيثكليف يبالي ما يقال ما دام قد حصل على بغيته.

وإنما أردت بهذه القصة أن أبين ما كان في طبع الفتى من صلابة وتجلد، وأنه قلما كان يجأر بالشكوى. فاعتقدت أنه جبل من معدن طيب، وأنه ليس من يختزنون الأحقاد. ولكن ما كان أشد جزعي عندما كذبت السنون ذلك الظن تكذيبًا كاملًا!

ومضت مسز دين في حديثها فقالت:

- بدأت صحة مستر إيرنشو الكبير تتداعى بمرور الزمن، وبعد أن كان جم النشاط والصحة، أقعده المرض فلزم جانب المدفأة، وأصبح ضيق الصدر سريع الهياج تثيره توافه الأشياء. وإذا توهم شبهة المخالفة لسلطانه أو الخروج على إرادته استولت عليه نوبات من الثوران. ولم يكن شيء ليثيره كما تثيره محاولات التسلط على غلامه الأثير هيثكليف، فأهون الكلمات حين توجه إلى هذا الفتى تعتبر في نظره جريمة؛ لاعتقاده أن الجميع يكرهونه بسبب تمتعه بعطفه وحبه. ولما كان الجميع يتبارون في إرضاء الشيخ، فقد تباروا في إرضاء هيثكليف، فساعد ذلك في إمداد غروره وشراسته بزاد عظيم.

وحدث مرتين أو ثلاث مرات أن تمرد هندلي على ذلك الوضع، وأساء إلى الفتى على مرأى ومسمع من أبيه، فأمسك أبوه بالعصا ليضربه، وجعل يرتجف

غضبًا لأنه لم يدركه.

وأخيرًا، حسم ذلك الأمر على يد القسيس الذي يتولى تعليم الصغار من آل لينتون وآل إيرنشو، قد نصح بإرسال هندلي إلى الكلية، ووافق المستر إيرنشو الكبير على ذلك متأففًا؛ لأن هندلي في نظره فتى لا يرجى منه خير أينما حل. ولكني أملت أن ننعم بشيء من الهدوء والسلام في البيت، بعد أن رحل هندلي ليدخل الكلية.

وكان ذلك ممكنًا، لولا وجود جوزيف المتنطع في تقواه، وكان ذا نفوذ ودالة عند مستر إيرنشو، فأوحى إليه أن جهنم تنتظره إن لم يأخذ أهله بالعنف، وما زال بالرجل حتى جعله يرى أنه هندلي ماجنًا لا خير فيه، ثم أخذ يوغر صدره تدريجيًا بحكايات عن هيثكليف وكاثراين، وكان يتملق مولاه بإلقاء أشد اللوم على الفتاة.

والحقيقة أن الفتاة كانت غريبة الأطوار بصورة لم أرها في طفلة من قبل، وكانت تستنفد صبر جميع من في الدار أكثر من خمسين مرة في كل يوم، فلم نكن نأمن منذ نهوضها إلى ساعة نومها من عبثها العنيف.

لم تكن سيئة الطبع، ولكنها كانت مندفعة لا تكف عن الغناء أو الضحك أو السباب، ولم تكن تسب إلا من يأبى أن يشاركها الضحك والغناء والقفز، وقد تركز غرامها كله في مخلوق واحد هو هيثكليف، فكان أقسى عقاب يمكن أن أنزله بها أن نفرق بينهما، وكان والدها يشقى بخفتها شقاء شديدًا، ويؤنبها حتى تنفجر باكية.

وحانت أخيرًا ساعة الراحة الأخيرة لمستر إيرنشو من متاعب هذا العالم

جميعًا، فمات ميتة هادئة وهو في مقعده بجوار النار مساء يوم من أيام شهر أكتوبر. وحضر مستر هندلي ليشهد جنازة والده، ولكنه أثار بحضوره دهشتنا ولغط الجيران؛ لأنه لم يحضر وحده بل جاء معه بزوجة، لم يقل لنا من تكون ولا أين ولدت. ولعلها كانت خلوًا من حسب يشرفها أو مال يشفع لها، وإلا لما كتم أمر زواجه منها عن والده.

ولم تكن تلك الزوجة والحق يقال لتسبب اضطرابًا في الدار، فكل شيء وقعت عليه عيناها منذ تجاوزت العتبة كان يستأثر بإعجابها، ما عدا الاستعدادات للدفن ووجود المعزين. ولقد ظننتها معتوهة أول الأمر؛ لأنها أسرعت تجري إلى حجرتها، ثم دعتني لكي ألازمها، مع أن واجبي كان يقضي بأن انصرف إلى العناية بالصغار، وبالمهم من أمور الدار. وقد أدهشني أن وجدتها ترتجف وتعصر يديها، ثم تسألني مرارًا وتكرارًا:

- ألم يذهبوا بعد؟

ثم جعلت توضح لي الأثر المؤلم الذي يحدثه اللون الأسود في نفسها، ثم استسلمت بعد ذلك لرعدة هستيرية انتهت بنوبة من النحيب، ولما سألتها ماذا بها، أجابتني بقولها:

- لست أدري، ولكني خائفة من الموت جدًا.

وقد زادني هذا دهشة منها؛ لأنني رأيتها بعيدة عن أخطر الموت بعدي عنه. إذ كانت على نحافتها شابة يانعة ناضرة الوجه تتلألأ عينها كأنهما ماستان، وإن كنت قد تذكرت فيما بعد أن صعود السلالم القليلة جعلها تلهث لهاثًا شديدًا، وأن أقل صوت كان يزعجها، وأنها كانت بين الحين والحين

تسعل سعالًا حادًا. غير أني لم أكن أدري عن كنه تلك الأعراض شيئًا وقتئذ، فلم أشعر بباعث للعطف عليها، ولا سيما أنه ليس من طبعنا في هذه المنطقة أن نألف الغرباء بسهولة، أو نميل إليهم ما لم يبدوا الميل إلينا.

وكان هندلي قد تغير كثيرًا في السنوات الثلاث التي استغرقها غيبته عنا، فخف لحمه وشحب لونه، وأصبح يتكلم ويرتدي ثيابه على نحو مختلف عن ذي قبل، ومنذ دخل الدار أنذر جوزيف وأنذرني أن نقيم في المطبخ الخلفي وأن نترك له الدار.

أما زوجته فسرت كثيرًا عندما وجدت لزوجها أختًا صغيرة ، فجعلت تقبل كاثراين وتتنزه معها وتتجول. وأعطتها في البداية مجموعة من الهدايا، ثم فتر هذا الحب. وفي الوقت نفسه أصبح هندلي طاغية، وما كاد يسمع من زوجته يومًا أنها لا ترتاح لرؤية هيثكليف حتى استيقظت فيه كراهيته القديمة للغلام، فطرده من محيط العائلة، وأنزله إلى محيط الخدم. ثم حرمه من تلقي الدروس مع كاثراين على يد القسيس، وألزمه أن يعمل في الحقل كأي غلام أجير من غلمان المزرعة الغرباء.

وتحمل هيثكليف هذه المهانة بثبات أول الأمر؛ لأن كاثي جعلت تلقنه ما تتلقى من الدروس، وتشاركه في مشاق العمل في الحقل. وبدا لكل ذي عينين أنهما سينشآن معًا نشأة وحشية طليقة؛ لأن السيد الشاب لم يكن يعنيه ماذا يفعلان، ما داما لا يثقلان عليه بمرآهما، حتى إنه لم يكن يهتم بالتأكد من توجههما إلى الكنيسة يوم الأحد، لولا أن جوزيف والقسيس شكوا إليه من تخلفهما عن القداس، فأمر بهيثكليف أن يجلد. وأمر بكاثي أن تحرم من طعام العشاء والغداء ثلاثة أيام ما عدا الخبز والماء.

وفيما عدا يوم الأحد لم يكن عليهما رقيب، فلم يكن أحب إليهما من الهرب إلى الأحراش في البكور، والمكث هناك سحابة النهار، فإن عوقبا استخفا بالعقاب؛ لهوان شأنه بالقياس إلى ما يحصلان عليه في الخلاء من لذة وانطلاق.

كان في وسع القسيس أن يعين لكاثي من الفصول ما شاء كي تحفظها عن ظهر قلب، وكان لجوزيف أن يقرص ذراع هيثكليف أو يلويه حتى يدمى، ولكنهما كانا ينسيان كل هذا بخلواتهما التي تليه، وكم من مرة بكيت إشفاقًا مما سينتهي إليه حالهما بسبب ذلك النمو الوحشي بعيدين عن كل رقابة أو إرشاد وتهذيب.

وفي مساء يوم من أيام الأحاد، كانا معاقبين بالإقصاء عن قاعة الجلوس لضجة أحدثاها، فلما حانت ساعة العشاء وذهبت لأدعوهما لم أجد لهما أثرًا، وقلبنا البيت رأسًا على عقب بحثًا عنهما على غير طائل. فهاج غضب هندلي، وأمرنا أن تغلق أبواب الدار كلها، ثم أقسم لا يدخلان البيت تلك الليلة.

وأوي الجميع إلى مخادعهم، أما أنا فلم يواتني النوم، ففتحت كوة حجرتي في أعلى الدار، ولم أكترث للمطر المنهمر، وقد اعتزمت أن أفتح لهما خلسة وليكن بعد ذلك ما يكون.

وبعد قليل تبينت وقع أقدام على الطريق، وضوء فانوس عند البوابة، فتدثرت بشال حول رأسي، وأسرعت كي أمنعهما من إيقاظ هندلي إن طرقا الباب، وراعني أن أجد هناك هيثكليف وحده، فصحت به في لهفة:

– أين الأنسة كاثراين؟ أرجو ألا يكون قد أصابها مكروه؟

- إنها في الجرانج، وأنا أيضًا كنت خليقًا أن أكون هناك لولا أنهم لم يوهبوا من حسن الأدب ما يحفزهم لدعوتي إلى البقاء.

- ستلقى جزاءك، ولا أخالك ستقف عند حدك حتى تطرد نهائيًا، ثم ما الذي طوح بكما إلى الجرانج؟

- دعيني أولًا أخلع ثيابي المبتلة، وبعدها أخبرك بكل شيء يا نللي.

وحذرته من إحداث صوت يوقظ السيد، وبعد أن بدل ثيابه حدثني بجلية الخبر فقال:

- لقد تسللت أنا وكاثي من حجرة اللبن لنتسكع قليلًا في الفضاء، ثم خطر لنا حينما رأينا أنوار الجرانج على بعد أن نلقي على تلك الدار نظرة عن كثب، وأن نتحقق هل آل لينتون الصغار يقضون مثلنا أمسيات الأحد معاقبين بالوقوف في الأركان البعيدة عن النار وهم يرتعدون من البرد، في حين يجلس الأب والأم إلى الطعام والشراب والغناء والقصف والسرور حول النار. أم ترى الصغار هناك مثلنا يتلقون العظات ودروس الدين على يد الخادم، وإذا لم يحسنوا الجواب عن سؤال عوقبوا بحفظ قائمة من الأسماء البشعة الواردة في التوراة؟

- ربما لم يكن هذا حالهم هناك؛ لأنهم مهذبون مطيعون لا يستحقون المعاملة الصارمة التي يستوجبها سوء سلوككما!

- دعي هذا الهذيان يا نللي واسمعي بقية القصة، أعجبتنا الفكرة فتسابقنا في الأحراش. وسبقتني كاثي لأنها كانت حافية القدمين.

– وامصيبتاه، وأين ذهب نعلاها؟

– عليك أن تبحثي عنهما غدًا في ضوء النهار بين الأحراش، المهم أننا وصلنا إلى غايتنا، واخترقنا السور، ثم تسللنا في الممشى الممهد، وتربصنا فوق أصيص زهر مقلوب تحت نافذة حجرة الجلوس التي كان النور صادرًا منها. ولم تكن الستائر محكمة، فكان في استطاعتنا أن نطلع على ما يجري في الداخل. وما أجمل ما رأينا! رأينا قاعة جميلة حقًّا، فخمة، فيها بساط أحمر، ومقاعد مكسوة بالقطيفة الحمراء، أما السقف الأبيض الناصع فمحلى بنقوش الذهب، وتتدلى منه ثريات البلور المعلقة في سلاسل من الفضة، ولم يكن المستر والمسز لينتون موجودين هناك، فأنفرد بذلك الجمال كله إدجار وشقيقته. أليس خليقًا بهما إذن أن يكونا سعيدين؟ لو كنا مكانهما لظننا نفسينا في جنات النعيم. فهل تدرين يا نللي ماذا كانا يفعلان؟ هل تدرين ماذا كان يفعل من تنعتينهما بالفضل والفضيلة؟ كانت إزابيلا وهي في الحادية عشرة –فلا تصغر كاثي إلا بعام واحدة– ملقاة في طرف الحجرة تصرخ كأن زبانية الجحيم تنخسها بالحديد المحمي، أما إدجار فوقف بجانب النار يبكي في صمت، وفي وسط المائدة جلس كلب صغير يئن ويتوجع. وفهمنا من تبادل التهم بين الشقيقين أنهما كادا يقتلانه بتجاذبه فيما بينهما، ثم تنازعا على خصلة من شعر ذلك الكلب الصغير أيهما ينزعها من جلده، فلما انتزعها أحدها غضب الآخر ورفض أن يقاسمه إياها، وعندئذ لم نستطع كتمان الضحك من هذين المخلوقين الغريبين. وبربك يا نللي هل ضبطتني يومًا أنازع كاثي في شيء تريده لنفسها؟ أو وجدتنا يومًا ونحن وحدنا نجد تسليتنا في التشاجر والبكاء؟ أقسم لك أنني لا أرضى أن أستبدل بحالي هنا حال

إدجار لينتون في قصر الجرانج. حتى لو أتيح لي هناك أن ألقي بجوزيف إلى الهوة من أعلى قمة، وأن أطلى واجهة الدار بدم هندلي المسفوك.

- دع هذا وأخبرني كيف تركت كاثراين وحدها؟

- قلت لك إننا ضحكنا، فسمع ضحكنا الشقيقان، وإذا بهما يكفان عن البكاء وينطلقان كالسهم وهما يستنجدان أمهما وأباهما. وعندئذ أخذنا نرسل عواء وعزيفًا لنزيد في فزعهما، ثم لذنا بالفرار قبل أن يدركنا الخدم. وقد أخذت بيد كاثي في يدي، وإذا بها وقد زلت قدمها فسقطت في الظلام. وسمعتها تصرخ: «انج بنفسك يا هيثكليف، فقد أطلقوا وراءنا البولدج، وها هو قد أطبق على عقبي». وسمعت فعلًا أنفاس الكلب الملعون، ومع هذا لم تصرخ ولم تتوجع. أما أنا فصرخت وأطلقت من اللعنات والشتائم ما يكفي لمحق جميع الأبالسة، ثم تناولت حجرًا كبيرًا ودسسته بين فكيه وأنا أجتهد أن أدسه إلى زوره. وإذا خادم قد أقبل وفي يده فانوس، وأخذ يستحث الكلب إلى أن تبين الفريسة، فجذب الكلب وأبعده وقد تدلى لسانه الضخم من فمه مقدار نصف قدم، واللعاب الملوث بالدم يقطر منه. ورفع الرجل كاثي بين ذراعيه وقد غشي عليها من الألم لا من الفزع، ثم أدخلها الدار وأنا من ورائهما أنذر وأتوعد. وسمعت صوت المستر لينتون يصيح من الداخل مستوضحًا الخبر، فأجاب الخادم أن الكلب قبض على فتاة وفتى، يبدو أن اللصوص كلفوهما بالتسلل من النافذة كي يفتحا لهم الأبواب من الداخل بعد أن ينام أهل الدار. فأجاب مستر لينتون أن اللصوص ولا شك علموا أنه تولى تحصيل الإيجار في اليوم السابق. ثم أقبل نحونا ومن ورائه إدجار وإيزابيلا، ولا أدري ما الذي أرعبهم من منظري فقرروا أن يحبسوني في القبو، لولا أن كاثي أفاقت من

غشيتها، وعرفت مستر لينتون بشخصيتها، وعندئذ تذكروا أنهم طالما رأونا في الكنيسة أيام الآحاد. وتبدل الموقف فأقبل الجميع على تضميد جرح كاثي، وفي الوقت نفسه علقوا على مصاحبتي إياها تعليقات لاذعة جارحة، وألقوا اللوم على شقيقها؛ لأنه يتركها في صحبة متشرد من سلالة الغجر بذيء اللفظ، وكانوا يشيرون إلي طوفان الشتائم واللعنات الذي انطلق من شفتي لما رأيت إصابة كاثراين. وثار غضبي مرة أخرى عندما سمعت رأيهم في شخصي، فأطلقت سيلًا آخر من الشتائم. وعندئذ أمروا خادمهم روبرت أن يطردني، فرفضت أن انصرف من غير كاثي. ولكن الخادم الملعون حملني من قفاي حملًا، وألقي بي على قارعة الطريق. ثم أعطاني الفانوس وهو يؤكد لي أن المستر إيرنشو سيحاط علمًا بسلوكي الشائن، وأمرني أن أتوجه على الفور إلى البيت، ثم دخل وأغلق الباب. وقد عدت لأتلصص مرة أخرى كي أطمئن على كاثراين، واعتزمت إن وجدتها راغبة في العودة معي، أن أحطم جميع نوافذ البيت بالأحجار إلى أن يطلقوا سراحها، ولكني رأيتها قد جلست على الأريكة الفخمة في هدوء تام، ورأيت مسز لينتون تخلع عنها معطف راعية البقر الذي وضعته على كتفيها قبل أن نخرج متسللين من حجرة اللبن. ثم أتتها الخادمة بإناء فيه ماء ساخن وغسلت لها قدميها، وجاءتها إيزابيلا بطبق من الكعك الصغير وضعته في حجرها، وأحضر إدجار طبقًا آخر من الحلوى، ثم عكفت أمها على تمشيط شعرها الجميل، وجاؤوا إليها بخف، وأجلسوها بجوار النار. فلما رأيت إبتسامة الهناء تشيع في محياها، اطمأننت عليها، وأخذت طريقي إلى هنا.

– سيترتب على هذه المغامرة من الآثار الخطيرة الشيء الكثير، وأعتقد أن

مستر هندلي سيتخذ ضدك أقصى إجراء مستطاع.

وصدقت نبوءتي بحذافيرها؛ لأن هندلي إيرنشو غضب غضبًا شديدًا، ولا سيما عندما حضر مستر لينتون في اليوم التالي لزيارتنا، وألقى عليه محاضرة في واجباته كرب للأسرة وراعٍ لشقيقته الصغرى، فنال هيثكليف علقة وجيعة، ثم حرم عليه أن يخاطب كاثراين كل التحريم، وأنذره إن حدث منه ذلك بالطرد النهائي، وعهد إلى مسز هندلي إيرنشو نفسها ملازمة كاثراين بمجرد عودتها؛ كي تحول بينها وبين أي اتصال بهيثكليف.

ومضت مسز دين في حديثها وأنا أستمع لها مأخوذ اللب:

طال مكث كاثي في الجرانج خمسة أسابيع، إلى عيد الميلاد. وفي خلال هذه المدة شفي عقبها من إصابته، وتحسنت آداب سلوكها كثيرًا. وكانت زوجة أخيها تزورها مرارًا، وشرعت في التمهيد لسياستها الجديدة بالعمل على رفع اعتبارها في نظر نفسها بالملابس الغالية، وبالملق الذي تقبلته كاثي في يسر. فإذا بها تعود إلينا راكبة على مهر أسود معهم، في أبهى زينة وأشد خيلاء، وتقدم هندلي فرفعها عن صهوة الجواد فأنزلها إلى الأرض. ولم نصدق أعيننا أن تلك الفتاة الوحشية المتشردة هي التي تخطر الآن أمام أعيننا، وقد جمعت ذيول ثوبها الفضفاضة في يدها حتى تستطيع المشي، فهي صورة كاملة للسيدة الرفيعة القدر.

وعلق هندلي على ذلك التغير الكبير قائلًا لها:

- لم أكد أعرفك لأول وهلة، إنك الآن مثال الآنسة الأنيقة، وما أظن إيزابيلا لينتون يمكن أن تضاهيك.

ثم التفت إلى زوجته متسائلًا، فقالت:

- إن شقيقتك يا زوجي العزيز أجمل من إيزابيلا، ولكن يجب أن تحتاط حتى لا تعود سيرتها الأولى من الهمجية، وستقوم نللي بوظيفة الوصيفة لها.

وأشرق وجه كاثي بهذا الثناء، وجلست كالمسلسلة حتى لا تختل أناقتها. ولما هجمت عليها كلابها لتحيتها بعد تلك الغيبة الطويلة لم تستجب لمداعباتها حتى لا تفسد ثيابها الفاخرة. وحينما سلمت عليها أنا قبلتني من (بعيد لبعيد)؛ لأن دقيق كعك عيد الميلاد الذي كنت أصنعه كان يغطي ثيابي من الرأس إلى القدم. ثم تلفتت فيما حولها كمن تبحث عن هيثكليف. وكان شقيقها وزوجته يترقبان تلك اللحظة؛ لأنها في نظرهما تلقي الضوء على احتمالات المستقبل، ومدى نجاح سياستهما في هذا الشأن.

ويحسن أن أذكر هنا أن حالة هيثكليف في غيبة كاثي كانت قد غدت أسوأ كثيرًا، فالغلمان في سنه لا يميلون للإستحمام إلا بعد حث وإكراه، ولم يكن في البيت من يهمه أمر نظافته. فلم يكن يغسل وجهه، فضلًا عن سائر جسمه إلا مرة كل أسبوع؛ ولذلك تلبد شعره، وتراكمت على وجهه الأوساخ. وأما ملابسه الداخلية والخارجية فلم يبدلها منذ شهرين، ويداه كانتا في لون الفحم، وهو لون الطبقة الكثيفة من القذارة المتراكمة عليهما.

ولا شك أنه استاء كثيرًا إذ رأى تلك الآنسة الأنيقة المتحذلقة تدخل الدار، بدلًا من صاحبته الآبقة التي كانت تشاركه في وحشيته وهمجيته وتشعث شعره. ولعل هذا هو السبب في تواريه، فلم تقع عين كاثي له على أثر، وأخيرًا قالت وهي تخلع قفازيها وتكشف عن أنامل ابيض لونهما كثيرًا

بالنظافة والعناية وعدم مبارحة الدار:

- أليس هيثكليف هنا؟

وعندئذ صاح مستر هندلي وهو يبتسم في شماتة:

- في وسعك أن تتقدم يا هيثكليف لترحب بالآنسة كاثراين مثل سائر الخدم.

وفي هذه اللحظة لمحت كاثي جانبًا من جسم هيثكليف المتواري وراء الباب، فطارت إليه وعانقته، وأمطرت خده بسبع قبلات أو ثمان في طرفة عين، ثم توقفت وتراجعت. وأخيرًا انفجرت ضاحكة وهي تصيح وتصفق بيديها:

- عجبًا! كم أنت متجهم أسود الطلعة بصورة مضحكة، ولكن لا عليك، إنني استغربت منظرك لأنني تعودت في المدة الأخيرة منظر إدجار وإيزابيلا لينتون. والآن يا هيثكليف، لماذا تنظر إلي هكذا؟ أتراك نسيتني؟

وكان لهذا السؤال الأخير ما يبرره؛ لأن الخزي والكبرياء زادا في تجهمه الطبيعي، وسمراه في مكانه بعيدًا عنها. فقال مستر إيرنشو في تنازل:

- صافحها يا هيثكليف. نحن نسمح لك بذلك هذه المرة.

- لن أصافحها، ولا أستطيع أن أحتمل الوقوف لتضحك مني.

وهم بأن يهرب لولا أن كاثي أمسكته وقالت له:

- لم أقصد أن أضحك منك، هيا يا هيثكليف صافحني على الأقل إن لم

تشأ أن تقبلني. ما الذي يغيظك؟ إنني ضحكت لأنك كنت مستاء لغير سبب، ولأنك تبدو غريبًا في منظرك. ولو أنك غسلت وجهك ومشطت شعرك لزالت تلك الغرابة، فإنك قذر جدًا.

وكانت تقلب نظرها في أصابعه الطينية التي كانت في قبضة يدها، ثم نظرت بحركة لا إرادية إلى ثوبها الناصع كأنها خشيت أن يكون قد ناله من قذارته نصيب، فتتبع بعينيه حركات عينيها، ثم انتزع يده من يدها بعنف وصاح:

- لم تكن بك حاجة أن تلمسيني، وسأحتفظ بقذارتي ما شئت؛ فأنا أحب القذارة، وسوف أظل قذرًا على الدوام.

ثم انطلق هاربًا من الحجرة، بينما السيد والسيدة يضحكان ملء شدقيهما، أما كاثراين فاستولى عليها القلق والغم، وتحيرت لماذا وقعت كلماتها الساذجة عليه ذلك الوقع السيء!

## العاصفة تحدث فجأة

عادت مسز دين بذاكرتها إلى صيف عام ١٧٧٨م، أي منذ حوالي ثلاث وعشرين عام فقالت:

– في صباح يوم من أيام شهر يوليه الصافية، وله هيرتون آخر سلالة إيرنشو العريقة، وكنا مشغولين في ذلك اليوم بالحصاد في حقل بعيد. عندما أبصرنا الفتاة التي تجلب لنا في العادة الإفطار، وقد أقبلت قبل موعدها بساعة مخترقة الحقول في غير الدروب المطروقة، وتصيح وهي قادمة تجري:

– إنه أجمل غلام رأته عيني يا نللي، ولكن الأطباء يقولون إن السيدة لن تنجو؛ لأن السل أكل صدرها في الشهور الأخيرة، ولا مفر من وفاتها قبل الشتاء القادم. ذلك ما سمعتهم يقولونه لسيدي بلهجة التأكيد.

– وماذا كان جواب السيد؟

– أخذ يسب ويلعن، ولكني كنت مشغولة عنه بالنظر إلى الطفل الجميل، فهيا أسرعي الآن لتشاهديه وتتولي شأنه!

وصح ما توقعته الفتاة، فقد صار أمر هيرتون إلي وحدي، ولم يكن يسر مستر إيرنشو شيء كأن يراه موفور الصحة لا يبكي ولا يشكو، لكنه هو نفسه كان ينطوي على حزنه وألمه، لا يبكي ولا يصلي، بل يثور ويصب اللعنات على الناس والسماوات. ولم يعد الخدم يحتملون استبداده وقسوته طويلًا،

فتركوا الخدمة جميعًا ما عدا جوزيف وعداي، فقد كنت ربيبة البيت وأنا أحرى الناس أن أغفر له ما لا يغفره غيري، وأما جوزيف فكان يسره أن يوجد في مكان يعلق على حوادثه بآيات من التوراة تتوعد الأشرار بغضب الجبار.

أما معاملته لهيثكليف فكانت حرية أن تجعل من القديس شيطانًا، وقد بدا الغلام وكأنما سكنت جسده أرواح شريرة، وزادت وحشيته وهمجيته يومًا بعد يوم، وصار يتلذذ بإثارة ثائرة هندلي، حتى أصبح البيت في نظري قطعة من الجحيم، وساءت سيرتنا في المنطقة كلها، حتى امتنع القسيس عن زياراته التقليدية لنا، وتحاشي الجيران الاتصال بنا.

وكان الاستثناء الوحيد هو قدوم إدجار لينتون بين الحين والحين لزيارة كاثي، ففي سن الخامسة عشرة، كانت قد غدت ملكة جمال الإقليم غير منازعة، ولكنها زادت عنادًا واستبدادًا حتى كرهتها وكرهت غرورها، وصرت أغيظها وأغتض منها، فكانت لا تغتض مني من أجل علاقتنا القديمة. وكذلك هيثكليف ظلت له عليها دالة كبرى؛ لأنها كانت أشد الناس تعلقًا بالصلات التي مكن لها الزمن، حتى إن إدجار لينتون لم يستطع برغم محاولاته الكثيرة أن يحظى لديها بمثل النفوذ الذي كان لهيثكليف، مع أنه كان شابًا جميل الخلقة وديعًا أنيقًا، وإن كانت تنقصه حرارة الهمة.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن كاثراين كانت تتحاشى إظهار سوء طبعها أمام آل لينتون، أما فيما بيننا فكانت تترك العنان لنفسها، فلا تبالي بآداب السلوك كثيرًا.

وكان السيد يستقبل إدجار لينتون بأحسن ما يستطيع؛ لأنه يدري الباعث

له على تلك الزيارات. ولكنه كان كما قلت قد أصبح شبه مجنون، فحين لا يطاوعه مزاجه على المسالمة والمجاملة، كان يتوارى عن الأنظار ويترك الجو خاليًا للشابين.

وكانت كاثراين من جانبها تتحاشى أن يلتقي إدجار بهيثكليف، لما بينهما من تباغض، ولما تعرفه عند آل لينتون من ازدراء لذلك الأفاق، ولكن هذا كان يوقعها في الحرج كثيرًا إذا صادف التقاؤهما، لما يبديه كل منهما نحو الآخر من احتقار وبغضاء.

وفي سن السادسة عشرة كان هيثكليف قد غدا أشد خشونة وتجهمًا، بعد أن انقطع عن التعلم وانصرف لأعمال الحقل الشاقة، وصار لا يقابل ملاطفات كاثي الصبيانية إلا بالنفور والإعراض.

وفي ذات يوم، وقد تغيب السيد عن الدار، دخلها هيثكليف معلنًا أنه انتوى الإخلاد للراحة والكسل في ذلك اليوم، وكنت أقوم بإتمام زينتها؛ لأنها كانت قد انتوت أن تحيط إدجار علمًا بغياب أخيها، وخلو الدار لهما كي يأتي لتمضية اليوم معها، وإذا هيثكليف يسألها:

- هل أنت مشغولة هذا العصر؟ أتنوين الخروج؟

- كلا، لن أخرج بسبب المطر.

- ولكني أراك ترتدين ثوبك الحريري، هل تنتظرين قدوم أحد؟

- لست أدري، ولكن كان عليك أن تكون في الحقل في هذا الوقت يا هيثكليف.

– ولكن هندلي لا يمتعنا في كل يوم بالخلاص من محضره المنكود، فلا أقل من أن أنتهز هذا اليوم للتوقف عن العمل، وسأمكث معك.

– أوه! ولكن جوزيف سيخبره، وتسوء العاقبة، الأفضل لك أن تذهب.

– إن جوزيف مشغول في محاسبة قاطعي الأخشاب في الطرف الآخر من الضيعة، وسيشغله ذلك إلى حلول المساء.

ثم اتجه إلى المدفأة واسترخى أمامها، ففكرت كاثراين لحظة وقد عقدت حاجبيها، ثم قالت بعد دقيقة من الصمت:

– إن إيزابيلا وإدجار لينتون كانا قد وعدا بالحضور هذا العصر، ولكني لا أرجح حضورهما بسبب المطر، ومع هذا قد يحضران.

– إذن مري نللي أن تقول لهما عند حضورهما إنك مشغولة، ولا تبعديني عنك من أجل صديقك هذين الأبلهين التافهين، فإني أشعر أحيانًا بأنني أكاد أقول إنهما..

فصرخت فيه كاثراين وهي تحملق مرتاعة:

– إنهما ماذا؟ كفى الآن يا نللي واخرجي! وأنت ماذا كنت توشك أن تقول؟

– لا شيء، انظري إلى هذا التقويم المعلق على الحائط إلى جوار النافذة، إن الأيام المشطوبة هي التي أمضيت أمسياتها مع آل لينتون، والأيام المعفاة هي التي قضيتها في صحبتي. راجعيها جيدًا فقد عنيت بحساب كل يوم منها بنفسي.

- يا لك من أحمق! كأنك تحسبني ألقي بالي إلى مثل هذا.

- أما أنا فألقي إليه كل بالي.

- هل تحسبني أجلس معك أنت على الدوام؟ أي خير أجنيه من ذلك؟ أي حديث يمكن أن تخوض فيه؟ إنك أبله جاهل ساذج لا تجد ما تقوله.

- ولكنك لم تخبريني من قبل أنني قليل الكلام، أو أنك تضيقين بصحبتي.

- إنها ليست صحبة على الإطلاق تلك التي لا كلام فيها ولا معرفة.

فنهض، وقبل أن يفتح فمه بكلمة سمعت على الباب طرقات هينة، ثم دخل إدجار لينتون، وقد طفح وجهه بشرًا بتلك الدعوة الانفرادية التي جاءته على غير انتظار.

ولا شك أن هذه اللحظة كانت كافية لترى فيها كاثراين صاحبيها وجهًا لوجه، وترى الفرق بينهما واضحًا على أتمه. غير أن تلك اللحظة لم تطل؛ لأن هيثكليف أسرع بالخروج وترك المجال لذلك الشاب الرقيق المهذب، الذي يتحدث بنبرة خافتة ناعمة لا بلهجة البداوة الجافة التي لم يصقلها التعليم والتهذيب.

ودخلت أنا مع مستر إدجار، ورحت أشغل نفسي بالعبث في بعض الأدراج، فأمرتني أن أخرج وأدع ذلك العبث، فقلت بصوت يسمعه الضيف:

- إن سيدي حين يكون هنا يكره أعمال التنظيف والترتيب، فغيابه فرصة لقيامي بواجباتي. ولا أشك أن مستر إدجار سيغفر لي ذلك.

– ولكني مثل أخي أكره هذه الضجة في حضوري.

– يؤسفني أنك تكرهينها يا آنسة كاثراين.

ثم واصلت عملي بغير اكتراث، فإذا بها –وأعصابها لم تهدأ بعد من الموقف المحرج مع هيثكليف– تمد يدها، وهي تحسب أن الشاب لا يراها، فتدسها تحت ثيابي الفضفاضة وتقرصني قرصة طويلة بكل ما أمدها به الغل من قوة.

وكنت كما قلت قد أخذت أكرهها لغطرستها وعنادها، وفي الوقت نفسه آلمتني القرصة كثيرًا، فوجدتها فرصة مواتية؛ لأن أفضحها وأخزيها أمام ضيفها، فقفزت في الهواء وأنا أصرخ من نخستها الشياطين:

– ما هذا القرص يا آنسة؟ إنه عادة قذرة، ولست مستعدة لتحمل قسوتك.

فمدت يدها مرة أخرى لتكرر فعلتها، وهي تحملق بكل براءة وتقول:

– يا لك من كاذبة! كيف تزعمين أنني قرصتك؟

تم توهجت أذناها من شدة الغضب، وقدحت عيناها بالشرر. ولم أتراجع أمام أي اعتبار في سبيل مواجهتها بالخزي، فكشفت عن ساقي وصحت أستشهد بمستر إدجار:

– انظر يا سيدي، وقل لها أي شيء، هذا إن لم يكن ما جنته يداها.

فدقت الأرض بقدمها في غضب، وحل عليها شيطان سوء السلوك، الذي طالما جاهدت في إخفاء أمره عن آل لينتون المهذبين. فذعر إدجار وبهت

أمام إصرارها على الكذب بتبجح، كما أزعجه منها ذلك الغضب الجامح، وراح يهدئ روعها ورعدتها.

وكان هيرتون الصغير الذي يتبعني حيثما ذهبت جالسًا بقربي على الأرض، فلما رأى دموعي تنهمر أخذ يبكي ويصرخ، فإذا بها تنقض على الطفل وتهزه بين يديها حتى تكاد تزهق روحه لولا تدخل إدجار الحاسم لإنقاذه منها. وما أفلح في انتزاعه حتى فوجئ بها ترفع يدها في الهواء ثم تهوي بها على صدغه، فتراجع الشاب ونظر إليها كمن لا يصدق عينيه وخده يلتهب بحرارة الصفعة.

وعندئذ رأيت اللحظة مناسبة لتناول الطفل من بين يديه والخروج به من الحجرة، بعد أن تركت بابها مفتوحًا لأعرف ختام تلك المأساة، وإذا بالضيف المصفوع يتقدم إلى حيث كان قد وضع عصاه، وقد اكفهر وجهه حتى حاكى لون الثلج، وارتعشت شفته السفلى، فقلت في نفسي:

- حسنًا تصنع يا فتى، واحمد ربك أن جاءك النذير قبل فوات الأوان. واحمد لي أنني أتحت لك لمحة صادقة من طباعها الحقيقية.

ثم رأيت كاثراين تتقدم نحو الباب فتقطع عليه الطريق وتسأله:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فتنحى جانبًا ليتحاشاها، وحاول المرور إلى الباب فصاحت بحدة:

- يجب ألا تنصرف الآن!

وإذا به يجيبها في هدوء تام:

– بل يجب أن أذهب، وسأذهب.

فوضعت يدها على مقبض الباب بعزم وقالت:

– كلا، ليس الآن يا إدجار لينتون، بل اجلس ولا تتركني وأنا في هذه الحالة الفظيعة؛ فلن أستريح طول الليل إن تركتني هكذا أو يغمض لي جفن. وأنا لا أريد أن أشقى وأن يكون شقاء ليلتي بسببك.

– لا يمكن أن أبقى بعد أن صفعتني، لقد جعلتني أفزع وأخجل منك، وثقي بأنني لن أعود؛ لأنك كذبت أمامي بغير مبالاة وعن عمد.

فألقت بنفسها على الأرض، وراحت تبكي وهي تؤكد له أنها لم تفعل شيئًا عن عمد، وإنما هو شيطان يركبها أحيانًا فينطق على لسانها، ويورط يديها فيما لم تفكر فيه.

ورأيته يتخاذل، فأسرعت أتدخل لأشجعه صائحة:

– إنها أسوأ من الأطفال الصغار، عد إلى دارك قبل أن تندم!

فنظر من النافذة مترددًا وقد فارقته شجاعته وحزمه، وأدركت في تلك اللحظة أنه مقضي عليه لا محالة، كما يقضي على الذبابة وقعت في شراك العنكبوت. ثم إذا به يغلق الباب دوني ويخلو إليها، حتى إذا فتحت الباب لأخبرهما أن سيدي عاد فاقد اللب من السكر، وعلى أتم استعداد لهدم البيت على رؤوسنا، وجدت خديهما ملتصقين، وهما على أتم ما يكون محبان

من الوفاق. فإن تلك العاصفة كان لها الفضل في تحطيم قناع الصداقة البريئة، والكشف تحته عن وجوه الحب السافر.

وما إن سمع إدجار نبأ وصول مستر هندلي، حتى خف إلى جواده، كما خفت كاثراين إلى مخدعها، وبادرت أنا بإخفاء هيرتون الصغير حتى لا يؤذيه أبوه في هياجه، ثم أخفيت كذلك البندقية والذخيرة.

دخل مستر هندلي المطبخ كالمجنون، وهو يطلق من الشتائم ما يخجل الشياطين، فضبطني متلبسة بمحاولة إخفاء طفله في «دولاب الخزين». فصاح بي وهو يجذبني إليه من قفاي كالكلبة:

– وجدته أخيرًا، وأقسم بالجنة والجحيم، إنكم تعاهدتم فيما بينكم على أن تقتلوا هذا الطفل؛ وهذا هو السبب في أنني لا أراه. ولكني بمعونة إبليس سأجعلك تبتلعين سكين التنظيف. لا حاجة بك إلى الضحك، فلا بد لي من قتلك، بل لن يهدأ لي بال حتى آتي عليك أجمعين، وسأدفنكم في الأحراش إلى يوم يبعثون.

– ولكني يا مستر هندلي لا أحب سكين التنظيف؛ لأني كنت أستعملها منذ قليل في تنظيف أسماك الرنجة، فرائحتها ستجعلني أتقيأ، والتقيؤ سيمنعني من ابتلاع السكين. وهكذا لا يمكن أن أموت بهذه الوسيلة.

– ماذا تفضلين إذن؟ طلقة من البندقية؟

– بكل سرور.

– لكني بحثت عن هذه البندقية الملعونة فلم أجدها، ولذلك فكرت في أن

تبتلعي السكين، فلا مناص لك من ذلك، فليس في إنجلترا كلها قانون يحول بين الرجل وبين تطهير بيته. وأنا رجل بيته متعفن، هيا افتحي فمك!

وأمسك بالسكين ثم دفع طرفها بين أسناني، وكنت أعرف هذيانه فلم أفقد أعصابي، بل اكتفيت بأن بصقت مؤكدة له أن مذاقها لا يطاق، فكان ذلك كافيًا أن يخلي سبيلي. ثم التفت إلى الطفل وقال:

– إني حقًّا مخبول، فهذا الوغد الصغير لا يمكن أن يكون هيرتون، عفوك يا نللي! فلو كان ابني لأستحق الشنق؛ لأنه لم يخف للترحيب بي، ولأنه يصرخ فزعًا مني كأنني الشيطان، تعال أيها الوغد الصغير حتى أعلمك كيف يجب أن تحتفي بأبيك الحنون. ألا تظنين يا نللي أن من الأوفق أن نحلق له شعر رأسه، إن الكلاب المجزوزة أشد ضراوة، وأنا أحب الضراوة، والله إن عشت لأحطمن عنقه.

وكان هيرتون يصرخ ويرفس بين ذراعي أبيه بكل قوته، وازداد صراخه حينما حمله أبوه إلى أعلى البيت ورفعه فدلاه من سور السلم. فأسرعت فزعة لآخذه منه وأنا أناشده ألا يفزعه. وقبل أن أدركه نظر هندلي إلى أسفل ليتبين وقع أقدام على السلم، ويرى من عساه يكون صاحبها، وانحنيت أنا أيضًا كي أشير من وراء ظهره إلى هيثكليف الذي عرفت وقع أقدامه كي يبتعد. وفي هذه اللحظة لمح هندلي القادم فانتفض غضبًا ونسي أن الطفل بين يديه، فأفلته وسقط من شاهق.

ولم ينفسح أمامي الوقت كي أفزع وأصرخ؛ لأنني سرعان ما رأيت الطفل سالمًا، فقد وصل هيثكليف في اللحظة المناسبة إلى أسفل السلم، وبحركة لا

إرادية بسط ذراعيه فتلقف الطفل ثم وضعه على الأرض، وتطلع إلى أعلى ليتبين الفاعل. فلما عرف فيه مستر هندلي إيرنشو، ارتسمت على وجهه الحسرة التي يشعر بها البخيل حين يتخلى عن ورقة نصيب بخمسة قروش، ليجد في اليوم التالي أنها ربحت خمسة آلاف جنيه. وبدا واضحًا مقدار ندمه على الحيلولة –دون قصد– بين هندلي وقتل وحيده بيده. وأكاد أجزم لو أن الظلام كان سائدًا لأسرع يصلح خطأه بتهشيم جمجمة هيرتون على درجات السلم، ثم يدعي أن ذلك نتيجة السقطة.

وسرعان ما كنت أحمل هيرتون الصغير على صدري، أما هندلى فهبط السلم على مهل وقد أفاق من سكره وتداعى، وخاطبني قائلًا:

– إنه خطؤك يا نللي، كان يجب عليك أن تخفيه عن نظري.

وحاول أن يلمس الطفل الذي أخذ يصرخ مذعورًا، وجعل يقاوم بكل قوته. فقلت:

– لا تقترب منه فإنه يكرهك، كلهم يكرهونك، وهذه هي الحقيقة.

– اغربي إذن به عن وجهي! وأنت يا هيثكليف ابتعد عن سمعي و متناول يدي.

تم فتح الدولاب وتناول زجاجة خمر رفعها إلى فمه، فتوجهت إلى المطبخ وجلست لأهدهد حملي الصغير حتى ينام، وحسبت أن هيثكليف خرج إلى الجرن، ولكن الواقع أنه توارى في ركن مظلم من المطبخ الواسع بعيدًا عن النار، ورقد فوق دكة خشبية بجانب الحائط ثم لزم الصمت.

وكنت أغني للصغير وهو على ركبتي، حينما دخلت الآنسة كاثي فسألتني:

– أأنت وحدك يا نللي؟

– نعم يا آنسة.

فدخلت واقتربت من النار، وجعلت تتنهد، ثم سألتني:

– أين هيثكليف؟

– أظنه يتم عمله في الجرن أو الإسطبل.

وساد الصمت برهة طويلة، لاحظت خلالها قطرة أو قطرتين من الدمع تتدحرجان في سكون فوق خد كاثراين. أتراها آسفة لسلوكها الشائن؟ إن صح ذلك فهو تغير بل إنقلاب في سلوك الفتاة. ولم أشأ أن أسألها حتى تتحدث إن شاءت، فإنها لا تستحق معونتي على التسرية عن نفسها، وما أظنها تعني نفسها إلا بأنانيتها. وأخيرًا قالت:

– عزيزتي، كم أنا شقية!

– واأسفاه رضاك من أصعب الأمور، أصدقاؤك كثيرون، وواجباتك ضئيلة، ومع ذلك تجدين الحياة ثقيلة!

– أتكتمين سري يا نللي؟

– أترينه يستحق الكتمان؟

– أجل وهو يقلقني؛ ولذلك أريد أن أبوح لك به لأخفف عن نفسي. إني لا

أدري ماذا ينبغي أن أصنع. لقد طلب مني إدجار لينتون اليوم أن يتزوجني، وقد أعطيته جوابًا. وقبل أن أقول لك أهو القبول أو الرفض. قولي لي أنت: ماذا كان ينبغي أن يكون؟

– الحق يا آنسة كاثراين أنني لا أدري، وإذا نظرنا إلى سلوكك كما تكشف له اليوم، أعتقد من واجبك أن ترفضي؛ لأن تقدمه بطلب يدك بعد ما رآه من أمرك يدل على أنه إما غبي أبله، وإما مجازف أرعن، وكلاهما بئس الزوج!

– اسمعي إذا إستمررت على هذه النغمة فلن أخبرك بالباقي، لقد قبلته يا نللي، رضيت به زوجًا. أسرعي وأخبريني برأيك!

– رضيت به! إذن ما فائدة المناقشة؟ فالرجوع في الوعد غير مستطاع.

– بل قولي أخطأت أم أصبت.

– يجب أن نقلب الأمر من عدة وجوه قبل أن نصل إلى هذا الحكم، فأولًا وقبل كل شيء هل تحبين مستر إدجار؟

– ومن الذي لا يحبه؟ طبعا أحبه.

– ولماذا تحبينه يا آنسة كاثي؟

– هراء. أحبه وكفى.

– يجب بكل وسيلة أن تخبريني لماذا؟

– حسنًا، لأنه وسيم لطيف المعشر.

- سبب رديء.
- ولأنه شاب مرح.
- رديء أيضًا.
- ولأنه يحبني.
- شيء لا أهمية له فلولا ذلك ما خطبك.
- ولأنه سيغدو غنيًا، وأنا أحب أن أكون أعظم امرأة في المنطقة، وسيزهيني أن يكون لي مثل ذلك الزوج.
- وهذا أردأ الجميع! والآن خبريني كيف حبك له؟
- كما يحب كل إنسان، ألا ما أحمقك يا نللي!
- لست حمقاء مطلقًا، أجيبيني.
- أحب التراب الذي تحت قدميه، والهواء الذي فوق رأسه، وكل الذي يلمسه من حي وجامد، وكل كلمة يتفوه بها، أحب جميع نظراته وأوضاعه وأعماله، أحبه من كل وجه كل الحب. هل هذا يكفيك؟
- إنك تحبين مستر إدجار لأنه وسيم وشاب ومرح وغني، ولأنه يحبك، والسبب الأخير لا قيمة له، فقد تحبينه ولا يحبك هو، وقد يحبك ولا تحبينه ما لم تكن له المزايا الأربع السالفة الذكر. ولكن هناك آخرين فيهم وسامة وشباب ولهم ثروة، بل ربما كانوا أملح منه وأغنى، فما الذي يمنعك

أن تحبيهم؟

– ربما كان ما تقولين صحيحًا، ولكني لم أقع على أحد منهم، ولم أرَ إلا إدجار، وليس فيمن رأيت من يضارعه.

– – قد ترين من يضارعه أو يفوقه في مستقبل الأيام، ثم هو لن يظل على الدوام وسيمًا شابًا، وربما لم يدم له الثراء.

– ولكنه اليوم وسيم شاب ثري، ولا شأن لي إلا بالساعة الراهنة.

– مادام ذلك كذلك، تزوجي مستر إدجار لينتون!

– لا حاجة بي إلى إذنك كي أتزوجه؛ فسأتزوجه، ولكنك حتى الآن لم تقولي لي هل أخطأت أم أصبت في هذا القرار؟

– بل أصبت كل الصواب، على اعتبار أن الناس يصيبون حين يتزوجون بحاضرهم دون غدهم. والآن لنسمع قصة شقائك، فإني لا أرى له موجبًا. أخوك مثلًا سيسره أن تتزوجي مستر إدجار، ووالداه لن يعترضا، وأنت ستتخلصين من معيشة مضطربة هوجاء، وبيت تكتنفه المتاعب، لتنتقلي إلى بيت فيه سعة، وله وقاره ومكانته. وأنت تحبين إدجار، وإدجار يحبك. فأين إذن بواعث الشقاء؟

– هنا، وأيضًا هنا!

وضربت بيمناها جبهتها وبيسراها صدرها، ثم استطردت:

– هنا وهنا، وحينما كان للروح في الجسد مسرب ومقام. في روحي وفي

قلبي، وفي عقلي وفي ضميري، في هذه كلها أشعر عن يقين بأنني أخطأت بقراري ذاك.

– هذا من أعجب العجب!

– هذا هو سري يا نللي، فإن وعدتني ألا تسخري مني أوضحته لك قدر ما أستطيع، قولي لي أولًا يا نللي ألم تحلمي في حياتك أحلامًا غريبة؟

– أحيانًا.

– كذلك أنا. لقد رأيت في حياتي أحلامًا لازمتني وغيرت أفكاري، وتغلغلت في حياتي كما يتغلغل الخمر في الماء، فغيرت لون أفكاري. وسأقص عليك حلمًا من هذه الأحلام. ولكن حذار أن تضحكي من أي جزء منه!

– كفى يا آنسة كاثراين! كفانا ما نحن فيه من كآبة فلا تهيجي الأشباح والشياطين. هيا اضحكي وعودي إلى مألوف مرحك، وانظري إلى هيرتون الصغير كيف يبتسم وهو نائم، فهو لا يحلم بشيء مفزع. ما أحلى بتسامته!

فارتبكت قليلًا وأطرقت، وبعد ذلك قالت:

– لو أنني كنت في الفردوس يا نللي لشعرت بتعاسة شديدة.

– ذلك لأنك لست أهلًا لدخول الفردوس أيتها الخاطئة.

– كلا، ليس هذا هو السبب، فقد حلمت مرة أنني في الفردوس.

– قلت لك إنني لا أريد أن أصغي لأحلامك يا آنسة كاثراين قبل أن أنام!

– لن أفزعك، إنما أردت أن أقول لك إن الفردوس لم يظهر لي على إنه مقري؛ ولهذا رحت أبكي حتى انفطر قلبي شوقًا إلى الأرض. فغضبت الملائكة مني غضبًا شديدًا وأسقطوني في وسط الأرض، فوق قمة مرتفعات ويذرنج، فصحوت وأنا أبكي من الفرح. وهذا هو سري يا نللي، ومعناه أن زواجي من إدجار لينتون لا يصلح به حالي، كما لم يصلح حالي بالمقام في الفردوس. ولو أن هذا المنكود الذي في داخل البيت، والذي يسمي نفسه أخي لم ينزل بهيثكليف إلى الدرك الأسفل، ما فكرت في الزواج من إدجار لينتون. فالآن واأسفاه يحط من قدري أن أتزوج هيثكليف؛ ولهذا كتب على المسكين ألا يعلم أبدًا كم أحبه، نعم أحبه يا نللي حبًا ليس عليه من مزيد! وليس حبي له لأنه وسيم أو غير ذلك من الأسباب، كلا؛ بل لأنه أشبه بذاتي مني، وأيًا كان معدن الأرواح فروحه وروحي معدنهما واحد، أما روح إدجار لينتون فتختلف عن روحينا، كاختلاف ضوء القمر عن ضوء البرق والصواعق، أو كاختلاف الجليد عن النار.

وعندما وصلت في كلامها إلى هذه المرحلة، فطنت أنا إلى وجود هيثكليف من حركة يسيرة، فلتفت ورأيته ينهض ويتسلل خارجًا فلم تشعر به. فقلت لها:

– مهما يكن من شيء، فإنك متى أصبحت مسز لينتون فقد بفقدانك الصداقة والحب وكل شيء، فهل فكرت كيف سيكون احتمالك لفراقه؟ وكيف سيكون احتماله بعد أن تخلى عنه العالم أجمع؟

– ماذا تقولين؟ وعن أي فراق وأي هجران تتحدثين؟ من الذي يجرؤ أن يفرق بيننا؟ كلا يا نللي، من يفرق بيننا ما دمت حية؟ إن تلاشي كل لينتون على وجه هذه الأرض أيسر من موافقتي على التخلي عن هيثكليف. لم يخطر شيء من هذا ببالي، ولن أكون مسز لينتون إن كان التفريق بيني وبين هيثكليف هو بائنة ذلك الزواج، هذا ثمن لا يمكن أن أدفعه. وسيكون هيثكليف عندي كما كان على الدوام، وعلى إدجار أن يتخلى عن بغضه له إن كان جادًا في الزواج مني، ولا شك أنه سيطيقه حين يعرف حقيقة شعوري نحوه. وها قد رأيت الآن يا نللي أنك ظننتني غادرة أنانية، ولكن لا، ألم يخطر لك أنني لو تزوجت هيثكليف لعشنا متسولين معدمين؟ أما إذا تزوجت لينتون فسيكون في استطاعتي أن أعين هيثكليف على النهوض، بحيث أجعله بمنأى عن سطوة أخي واحتياجه إليه.

– بأموال زوجك يا آنسة كاثراين، أليس كذلك؟ أؤكد لك أنك لن تجديه طوع بنانك كما تقدرين، وأؤكد لك أيضًا أن هذا المبرر هو أسوأ ما ذكرت لي في تبرير قبولك الزواج من إدجار لينتون.

– كلا، بل هو أحسنها. فإنك لا تعلمين يا نللي أن ألعن ما منيت به من الشقاء هو شقاء هيثكليف الذي لمسته منذ البداية. فهدف حياتي الوحيد وسبب حياتي أيضًا هو هيثكليف. فلو أن كل من عداه تلاشى من الوجود وبقي هو، لاستمر وجودي متمثلًا في وجوده وكيانه، حتى بعد أن أكون ترابًا، أما إذا بقي كل من عداه و تلاشى هو، فالكون كله يصبح غريبًا عني وعن وجودي، وسأحس أنني لم أعد شيئًا في ذلك الكون. إن حبي للينتون كأوراق الشجر في الغابة، إن يكن اليوم أخضر يانعًا فلسوف يغيره الزمن، كما يعدو الشتاء على الأشجار فيعريها من أوراقها بعد أن يجف ماؤها

وتصبح مواتًا. أما حبي لهيثكليف فأشبه بالصخر الخالد الذي يقوم راسخًا تحت أطباق الثرى الذي تنبثق منه أشجار الغابة. وقد لا يكون ذلك الصخر ذا قيمة، أو مصدر بهجة بادية للعيان، ولكنه ضروري كالقضاء المحتوم، ثابت لا يتغير ولا يريم. نللي إنني هيثكليف، أنا هو! فهو دائمًا وبغير انقطاع يشغل بالي وعقلي وسريرتي، لا باعتباره لذة أو ملهاة، كلا، إن اشتغالنا بأنفسنا فيه من الهم أكثر مما فيه من السرور، وكذلك اشتغالي بهيثكليف هو كاشتغالي بأمر وجودي وكياني؛ لهذا أستحلفك ألا تجري على لسانك بعد اليوم حديث التفريق بيننا، لأنه مستحيل!

- إن كان لي يا آنسة أن أخرج بمعنى من كلامك الذي لا معنى له، فهو دهشتي لمقدار جهلك بالمسؤوليات التي تترتب على الزواج، وإلا فأنت أشأم من عرفت في الدنيا من الفتيات الطائشات! وعلى كل حال لا تزعجيني بمزيد من أسرارك، لأني لا أستطيع أن أعدك بكتمانها.

- وكانت حرية أن تلح علي في الكتمان لولا دخول جوزيف، فسكتت والتصقت بي، إلى أن سألني جوزيف عن هيثكليف، وذكرت له أنه في الجرن، فخرج ليناديه. وعندئذ قلت لها:

- لقد كان في ركن المطبخ المظلم، وأنا واثقة أنه سمع جانبًا كبيرًا من الحديث.

فقفزت، وانطلقت من الباب كالمجنونة تنشد لقاءه قبل أن تفكر فيها ستقوله له. ثم عادت بعد لحظات كالمجنونة أيضًا، وأخذت تجذب شعرها؛ لأن هيثكليف ليس له في الدار أثر، ولأن البوابة وجدت مفتوحة فلا شك أنه

هام على وجهه في الأحراش. وأخذت تجري هنا وهناك وتضع كفيها حول فمها، وتناديه فتردد الأحراش صدى صوتها ولكنه لا يجيب النداء، ثم أمرت جوزيف أن يخرج للبحث عنه بمصباح، وارتمت فوق صدري تهزني وتصيح بي:

- لقد نسيت ماذا كنت أقول لك! ماذا قلت حتى غضب هكذا؟ أم تراه سخط مني سوء معاملتي له هذا العصر؟ خبريني ما الذي أغضبه مني؟

- ما كل هذه الضجة التي لا موجب لها؟ ولماذا تفزعين هكذا؟ أي غرابة في أن يخرج هيثكليف لاستنشاق هواء الأحراش في ضوء القمر؟

وكانت ليلة حالكة جدًا بالنسبة لموسم الصيف، تلبدت فيها الغيوم، وأنذرت العاصفة بالهبوب. فقدرنا أن انهمار المطر سيضطره إلى أن يعود، غير أن كاثراين ظلت على قلقها، تذرع الحجرة ولا يستقر لها قرار، إلى أن نال منها الإجهاد، فجلست إلى جانب الحائط غير مبالية بقطرات المطر الكبيرة وقصف الرعود، وجعلت تصرخ وتناديه بين الحين والحين تم تصغي مليًا وتنفجر باكية.

وقرب منتصف الليل، اشتدت العاصفة فبلغت مداها، حتى لقد هدمت جانبًا من مدخنة الدار، وانقضت الصاعقة على شجرة في طرف الحديقة، ومع هذا لم تتزحزح من مكانها، وظلت عارية الرأس لا تتدثر بشيء فوق ثوبها. فقلت لها:

- الساعة الآن الواحدة صباحًا. وأظنه قدر أن مستر هندلي لن يسمح بفتح الباب له في تلك الساعة المتأخرة، ولهذا سيقضي ليله في الخارج.

ولم أظفر منها برد، فتركتها مع جوزيف الذي حاول أن يعظها بنصوص من التوراة، وأويت إلى فراشي أنا وهيرتون. فلما طلع النهار هبطت إلى المطبخ، وجدت الآنسة كاثراين جالسة قرب النار والباب مفتوح، ثم دخل هندلي وقال لأخته:

– ماذا بك يا كاثي؟ أراك واجمة شاحبة مبتلة الثياب؟

فلم تجبه، فقلت له أنا:

– إنها شريرة، قضت طول الليل تحت وابل المطر.

– ولماذا؟ ما الذي أسهرها؟ أهو الخوف من الرعد؟

فلم يجسر أحد منا على ذكر الحقيقة وسكتنا جميعًا، فتناول أخوها معصمها وقال:

– نبضها يدل على أنها مريضة، ولعل هذا سبب قلقها وأرقها. هيا إلى فراشك.

فجذبت يدها من يده، وجعلت تسبه وتضرب صدره وهي تتشنج بالبكاء، فأمر هندلي جوزيف أن يذهب فورًا، ويأتي بالطبيب لأنه أعتقد أن بها حمى أضلت صوابها.

وما إن حضر الطبيب كينيث حتى قرر على الفور أنها مصابة بحمى خطيرة، ثم حجمها وأمر لها بدواء ونظام للتغذية قوامه السوائل، كما أمر بالتشديد في مراقبتها حتى لا تقذف بنفسها من النافذة أو ما إلى ذلك.

ولست أزعم أني ممرضة تسيل رقة، ولكن الواقع أنني وجوزيف والسيد

سهرنا عليها بكل عناية. وكانت مسز لينتون العجوز تزورنا وتشرف على التمريض، وتصحح أخطاءنا. ولما وصلت كاثراين إلى مرحلة النقاهة أمرت أن تحمل إلى الجرانج لتبديل الهواء باعتبار أن الجرانج هو بيتها وأولى بها.

ومنذ ذلك اليوم ولمدة أشهر متعاقبة، خاصمتني الآنسة كاثراين، ورفضت أن تكون لي بها صلة إلا صلة الخادم بالمخدومة، ووقعت على جوزيف العقوبة نفسها، فاستغلت إلى أقصى حد ظروف مرضها الأخير؛ لأن الطبيب قرر أنها لا تتحمل المعارضة أو الإثارة، ويجب أن تنفذ مشيئتها بغير تردد، ومن يثير غضبها فكأنه يقتلها.

وعلى هذا الأساس، أصبح شقيقها يتجنبها، ويحرص على مجاملتها ومطاوعة نزواتها وأهوائها. وكان مسرورًا غاية السرور لأنها ستشرفه بمصاهرة آل لينتون العظام، فإعزازه لها كان عن مفاخرة لا عن حب حقيقي.

أما إدجار لينتون فكان كأمثاله الكثيرين من الشبان، مغرورًا بنفسه وشبابه، يعتبر نفسه أسعد إنسان في ذلك اليوم الذي قاد فيه كاثي إلى المذبح المقدس في كنيسة جميرتون بعد وفاة أبيه بثلاثة أعوام.

والحق أقول إنني لم ألازم كاثي عن طيب خاطر حين أصرت وأصر أخوها أن أنتقل معها إلى بيت زوجها. فقد كان هيرتون الصغير في العام الخامس من عمره، وكنت لم أفرغ بعد من تلقينه حروف الهجاء، وقد بكينا كثيرًا عندما افترقنا. ولولا إصرار مستر هندلي على طردي نهائيًا إن لم أذهب مع شقيقته بحيث أحرم من هيرتون على كل حال لما وافقت على الرحيل.

ويظهر أن هندلي كان يتعجل رحيلي ليخلو البيت من كل من لديه بقية حياء منهم، فيعيش بغير وازع مع قرناء السوء الذين اصطفاهم، ولم أتردد في

مصارحته بذلك وأنا أودع هيرتون الوداع الأخير.

وكان هذا الوداع أخيرًا بمعنى الكلمة، إذ لم يسمحوا لي برؤيته بعد ذلك. ولست أشك أنه اليوم قد نسي تمام النسيان نللي دين التي كانت له أبر الأمهات، والتي كان لها أغلى ما في الحياة.

وكان الفجر قد لاحت تباشيره حينما بلغت مسز دين إلى هذا الحد في حديثها، فاستأذنت في النهوض لتنام، على أن تستأنف الحديث في يوم آخر.

# ذات مساء رطب الأنفاس

تمكن مني البرد الذي أصبت به، فقضيت أربعة أسابيع أتقلب على فراش الحمى. وقد روعتني أوجاعي، كما روعتي الرياح العاتية التي كانت تهب من الشمال كأسنان الرماح، فضلًا عن أطباء الريف بتخبطهم وسماجتهم، ولا سيما الطبيب كنيث الذي أنذرني بألا أتوقع القدرة على مبارحة الدار قبل الربيع القادم.

وكان مستر هيثكليف قد تفضل بزيارني في تلك المدة مرة واحدة للاستفسار عن صحتي، ثم أرسل إلى بعد ذلك سلة فاكهة. وكنت قد دخلت في دور النقاهة، فخطر ببالي –ما دامت القراءة غير مسموح لي بها– أن أتسلى بالاستماع إلى بقية قصته من مسز نيللي دين.

قالت:

اختفى هيثكليف عن أنظارنا منذ تلك الليلة، ولست أدري حتى اليوم، ولا أحد في هذه المنطقة يدري، هل أثرى في تلك السنوات التي اختفاها من طريق شريف أم غير شريف؟ وهل هاجر إلى أمريكا أم احترف قطع الطريق في إنجلترا؟ المهم أني صحبت الآنسة كاثراين إلى الجرانج، وأنها خيبت ظني فها فأحسنت السياسة والسلوك، وبدا عليها تعلق بمستر إدجار لينتون عجبت له، وربطتها بشقيقته إيزابلا مودة كبيرة.

ولاحظت أن مستر إدجار كان ينتابه خوف شديد من إثارة سخطها بأي ممارسة، وكان يرجو مني دائمًا أن أترفق وأتحمل ثوراتها العنيفةن فكنت أذعن

إرضاء لذلك السيد الكريم. وحينما كانت تنتابها فترات من الوجوم والصمت بين الحين والحين، كان زوجها يحترم ذلك الصمت ويعزوه إلى التغير الذي أحدثه مرضها في بنيتها وأعصابها؛ لأنها قبل أن تصاب بذلك المرض لم تكن عرضة لمثل تلك النوبات من الكآبة. ويصبر الرجل إلى أن تنقشع الغمامة فيستجيب لمرحها وإشراقها بمرح من جانبه وإشراق، وهكذا اعتقدت أن السعادة الشاملة العميقة ترفرف عليهما.

واستمر الحال على ذلك المنوال، إلى أن تطوعت الأحداث بكشف النقاب عن الحقيقة، وتفهيم كل منهما أنه ليس صاحب المقام الأول في قلب الآخر. ففي ذات مساء رطب الأنفاس، من شهر سبتمبر، كنت قادمة من البستان أحمل سلة ثقيلة مليئة بالتفاح الذي كنت أجنيه هناك، وكان القمر يطل على حائط الفناء الداخلي فيلقي ظلالًا غريبة الشكل هنا وهناك، وأنزلت السلة الثقيلة فوضعتها على درج البيت عند باب المطبخ، ثم تلكأت لأستريح قليلًا، وأملأ صدري بمزيد من النسميات الرخية، وقد تعلق نظري بالقمر وظهري إلى المدخل، فسمعت صوتًا من ورائي يقول:

– أهذه أنت يا نللي؟

وكان الصوت عميقًا غريبًا في نبرته، كأن به لكنة أجنبية، ومع ذلك كانت في طريقة نطقه باسمي نغمة خفية جعلت ذلك الصوت يبدو مألوفًا لي، فدرت على عقبي لأكتشف المتحدث، وقد انتابني الخوف؛ لأن الأبواب كانت مغلقة، ولم أكن قد رأيت أحدًا يقترب.

وهناك عند ركن المدخل، تحرك شبح كان قائمًا في الظل، ثم دنا مني.

فتبينت رجلًا طويل القامة، في ثياب قاتمة، أسمر الوجه، أسود الشعر.

فقلت لنفسي:

– من عساه يكون؟ الستر إيرنشو؟ ولكن كلا، فالصوت لا يشبه صوته.

– لقد انتظرت هنا ساعة كاملة، وكان كل شيء طول تلك المدة ساكنًا سكون الموت، فلم أجسر على الدخول، ألا تعرفينني؟ انظري جيدًا فلست غريبًا عنك.

وعندئذ مال فسقط الضوء على وجهه، ورأيت وجنتين غائرتين يعلوهما عارضان من الشعر الأسود، وقد غارت العينان تحت حاجبين كثيفين، وانطلق منهما بريق غريب تذكرته على الفور، فرفعت يدي في دهشة وأنا لا أدري هل أرحب به أم أعرض عنه! ثم غمغمت:

– ماذا؟ هل عدت؟ أهو أنت حقًا؟

فجعل ينقل بصره بيني وبين النوافذ العلوية التي لا ينبعث منها ضوء، وقال:

– أجل، هيثكليف أليسوا في البيت؟ أين هي؟ ولكنك لا تبدين السرور بلقائي يا نللي، لا لزوم لهذا الوجوم، هل هي هنا؟ تكلمي! أريد أن أقول لها كلمة واحدة، فاذهبي إلى سيدتك وقولي لها إن شخصًا من جيميرتون يرغب في مقابلتها.

– ولكن كيف ستتلقى النبأ، إن الدهشة تعتريني، ولا شك أن المفاجأة

ستخرجها عن صوابها. إنك أنت هيثكليف ولا شك، ولكنك تغيرت في قامتك، وصوتك، فماذا كنت تصنع؟ هل كنت جنديًا؟

فضرب الأرض بقدمه وقال وقد نفد صبره:

– اذهبي وبلغي رسالتي! فإني على أحر من الجمر حتى تعودي.

وتركته ودخلت، ولكن ما وصلت إلى البهو حيث جلس مستر إدجار لينتون وزوجته، حتى شعرت بألا قدرة لي على التقدم، ثم خطر ببالي أن أتعلل بسؤالهما هل يريدان إشعال الشموع، وفتحت الباب على هذه النية. فوجدتهما جالسين إلى شرفة تطل على الحديقة الواسعة اليانعة، وقد سادهما وساد الحجرة والبستان المنبسط أمامهما سلام عجيب، جعلني أشعر بالإجرام لأنني سأقدم على تكديره، فأوشكت أن أحبس كلمات الرسالة التي أحملها في حلقي، لولا لحظة اندفاع جعلتني أفلتها فجأة:

– إن شخصًا من جيميرتون يريد أن يقابلك يا سيدتي.

– وماذا يريد مني؟

– لم أسأله يا سيدتي.

– حسنًا. أرخي الستائر يا نللي، وأحضري الشاي ريثما أعود.

وغادرت الحجرة، ثم سألني مستر إدجار في غير اكتراث عن الزائر، فقلت له:

– إنه شخص لم تكن تتوقع سيدتي زيارته، فهو ذلك المدعو هيثكليف،

أحسبك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش في بيت مستر إيرنشو.

وصاح في عجب وإستنكار:

- ذلك الغجري الحراث؟ ولماذا لم توضحي ذلك لكاثراين؟

- على رسلك يا سيدي، ولا ينبغي أن تنعته بهذه النعوت وإلا ساءها ذلك، فقد أوشكت أن تموت كمدًا عندما هرب من البيت، وأعتقد أن عودته ستكون لها عيدًا.

فنهض مستر إدجار، وفتح النافذة الأخرى المطلة على الفناء الداخلي وأطل منها، وأحسبهما كانا هناك لأني سمعته يقول بسرعة:

- لا تقفي هناك يا حبيبتي، بل أدخلي الشخص إن كنت حريصة على التحدث إليه.

وبعد لحظة سمعت كاثراين تصعد السلم في سرعة كبيرة، وقد تألقت عيناها، وتسارعت أنفاسها في حماسة مفاجئة كادت تطمس معالم الفرح، ثم طوقت زوجها بذراعها وهتفت:

- إدجار، يا حبيبي إدجار، لقد عاد هيثكليف، هو بنفسه هنا!

- حسنًا، ليس هذا مبررًا لخنقي، ولا سيما أنه لم يقع مني مطلقًا موقع الكنز الثمين، فلا لزوم لكل هذه الضجة.

- أنا أعلم أنك لم تكن تحبه، ولكن يجب الآن من أجل خاطري أن تكونا صديقين. فهل لي أن أدعوه للصعود إلى هنا؟

– هنا؟ في حجرة الجلوس؟

– أين إذن؟

فنظر اليها متحيرًا ثم قال:

– أليس المطبخ مكانًا أنسب لجلوسه؟

فنظرت إليه زوجته بمزيج من الغضب والضحك، وقالت:

– كلا، لا أستطيع الجلوس في المطبخ. وأرجو منك يا نللي أن تعدي الشاي هنا على مائدتين صغيرتين إحداهما لسيدك وشقيقته الآنسة إيزابيلا لأنهما من السادة الأشرافن والأخرى لهيثكليف ولي، بما أننا من الطبقة الدنيا أليس في هذا ما يرضيك يا عزيزي؟ أم يجب أن نوقد مدفأة منفصلة لنا أيضًا؟ إن أردت ذلك فأصدر الأوامر اللازمة. أما أنا فسأجري لأعود إلى ضيفي، رباه، كم أخشى أن يكون هذا السرور ضربًا من الخيال!

وكادت تمرق منطلقة، لولا أن إدجار أوقفها ثم قال لي:

– اذهبي أنت يا نللي فاطلبي منه أن يصعد إلى هنا، وأنت يا كاثراين حاولي أن تسيطري على فرحك حتى لا يصل إلى السخف، فما بك من حاجة أن يتفرج الخدم على منظر سيدتهم وهي تبتهج بعودة خادم هارب وكأنه أخ شقيق.

ونزلت أنا، فوجدت هيثكليف في انتظار الدعوة للصعود، وتبعني صامتًا إلى أن أدخلته في حضرة السيد والسيدة، وكان وجه السيدة محمَرا مما يدل

على أنها تلقت عبارات ساخنة في فترة غيابي القصيرة. ولكنها ما إن رأت صديقها على عتبة الباب حتى قفزت من مكانها نحوه، وتناولت كلتا يديه في يديها ثم قدمته إلى إدجار. ثم مدت يدها فتناولت أصابع مستر إدجار المتراخية فدستها في يد هيثكليف. وفي تلك اللحظة سقط ضوء الشموع واضحًا على الزائر فأدهشني أكثر من ذي قبل ذلك التغير الذي حدث له، وقد أصبح رجلًا طويل القامة رياضيًا ممشوقًا، حيث يبدو سيدي بجواره غلامًا هزيلًا، وكانت قامته المنتصبة توحي بأنه كان في الجيش، وجهامته تجعله يبدو أكبر سنًا من إدجار. أما جبينه ورأسه المرفوع فينمان عن الاعتداد بالنفس، ولا أثر فيهما للمهانة القديمة، وفي نظراته الآن ذكاء وفهم.

وكانت دهشة سيدي تعدل دهشتي أو تفوقها، فظل لحظة طويلة لا يدري كيف يخاطب ذلك الخادم الأجير كما كان ينعته. أما هيثكليف فوقف ينظر إليه بهدوء وثبات، إلى أن آثر أخيرًا أن يتكلم فقال:

– اجلس يا سيدي، فقد شاءت زوجتي من أجل الأيام الماضية أن أستقبلك استقبالًا وديًا، ويسرني بطبيعة الحال أن أقوم بكل ما يسرها.

– وكذلك أنا، ولذلك سأبقى بكل سرور ساعة أو ساعتين.

واتخذ لنفسه مقعدًا تجاه كاثراين، ولبثت هي معلقة النظرات بوجهه كأنما تخشى أن يتلاشى من أمام عينها إن هي حولتهما عنه، ولم يرفع هو عينيه ليلاقي عينيها معظم الوقت، بل كانت النظرة السريعة بين الفينة والفينة، تكفيه كي ترتد نظراته في كل مرة، وقد تراءت في صفحاتها السوداء آيات جديدة من الإشراق والابتهاج السافر، الذي كان ينهله من نظراتها المتعلقة به. وبلغ

من استغراقهما في سرورهما المتبادل أن غفلا عن التحرج، ولم يكن ذلك حال مستر إدجار، فقد اكفهر لونه بالضيق، وبلغ ذلك الضيق غاية مداه عندما نهضت زوجته فاختارت عرض البساط واختطفت يدي هيثكليف في يديها من جديد، وراحت تضحك وتقهقه بغير كلام كالمسلوبة. ثم قالت بعد حين:

– أكاد أخرج من جلدي لفرط ابتهاجي، بل إني سأظن غدًا إنني كنت في حلم، فلم أصدق أنني رأيتك يا هيثكليف ولمستك بيدي، وتحدثت بلساني إليك، ووقعت نبرات صوتك على سمعي حقًا وصدقًا. هذا وأنت يا هيثكليف ما أقساك! إنك لست أهلًا لكل هذا الترحيب. كيف طوع لك قلبك أن تغيب عني ثلاث سنوات تلزم فيها الصمت ولا تفكر في؟

فغمغم بصوت عميق أجش وهو مأخوذ:

– بل فكرت فيك أكثر قليلًا مما فكرت أنت في، لقد سمعت منذ أمد قريب بزواجك يا كاثي، ورتبت في نفسي وأنا واقف أمام الباب أن أتزود بنظرة واحدة من وجهك، ربما كانت نظرة دهشة، ثم أسوي حسابي بعد ذلك مع أخيك هندلي، وبعدها أنوب عن الحكومة في تنفيذ قصاص الإعدام في نفسي، غير أن ترحيبك طرد جميع هذه الأفكار من رأسي. ولكن حذار أن تقابليني على نحو آخر في المرة القادمة، بل لا أحسبك تطردينني أو تصدينني عن نفسك بعد الآن. هل كنت حقيقة حزينة لفراقي؟ إن هذا الفراق كانت له أسباب، فقد كافحت ظروفًا مرة في الحياة منذ انقطع عن سمعي صوتك، فاغفري لي لأن جهادي لم يكن إلا من أجلك.

وعندئذ تنحنح إدجار لينتون، وقال بلهجة اجتهد أن تكون عادية:

– يا كاثراين، ما لم تكوني راغبة في تناول شايك باردًا، تعالي من فضلك واجلسي في مكانك. ولا سيما أن مستر هيثكليف سيكون أمامه سير طويل أينما كان المكان الذي سيقضي فيه ليلته، وأنا أيضًا ظمآن.

فجلست أمام الإبريق، ودقت الجرس الخاص بالشاي فدخلت الآنسة إيزابيلا، ولم تستغرق الوجبة عشر دقائق. أما كاثراين فلم تملأ فنجانها لأن فرحها كما قالت لم يتح لها أن تأكل أو تشرب. وأما إدجار فوجدت في طبق فنجانه شيئًا لم أعهده من قبل، هو بركة صغيرة من الشاي يبدو أنها سقطت من الفنجان لأنه كان يهتز في يده، ومع ذلك لم ينقص من الفنجان شيء يذكر. والضيف لم يطل المكث ذلك السماء أكثر من ساعة واحدة بعد الشاي، وقد سألته وهو منصرف:

– هل أنت ذاهب الآن إلى جيميرنون؟

– كلا، بل إلى مرتفعات ويذرنج. قد دعاني مستر هندلي إيرنشو لقضاء الليلة هناك عندما زرته هذا الصباح.

وجعلت هذه العبارة ترن في رأسي بعد رحيله، ورحت أتساءل هل عاد إلى هذا الأقليم وقد ارتدى مسوح النفاق كي يثير المتاعب والكوارث؟ إني كنت أشعر في أعماق قلبي بأنه كان من الأفضل للجميع لو ظل بعيدًا حيث كان.

وقرب منتصف الليل، أيقظتني كاثراين من نومي، ففتحت عيني لأراها

جالسة على مقعد بجوار فراشي وهي تهز كتفي، فقالت لي كالمعتذرة:

– لم أستطع أن أنام يا نللي، وشعرت بالحاجة إلى شخص يؤنسني ويشاركني سعادتي. وإدجار مستاء لأنني مسرورة بشيء لا يثير لديه اهتمامًا؛ ولهذا فهو يرفض أن يفتح فمه. ولما ألححت عليه بفيض سروري كي أشركه معي فيه اتهمني بأنني قاسية أنانية، راغبة في الكلام في وقت يشعر هو فيه بالتوعك والنعاس، وهو كما تعلمين يزعم دائمًا أنه مريض متوعك عند أدنى معارضة أو خلاف. فلما انطلقت أمتدح في عبارات وجيزة مزايا هيثكليف، صرخ تحت تأثير الغيظ أو الصداع أو الحسد، ثم انفجر باكيًا، وعندئذ تركته وحده وجئت إليك.

– وما جدواك من إطراء هيثكليف لديه؟ لقد كانا يتبادلان البغضاء وهما صغيران، فمن الطبيعي جدًا أن يكره إدجار سماع الثناء على هيثكليف، فلا تحاولي الحديث إليه عن صاحبك، اللهم إلا إذا كنت تهدفين إلى إثارة عراك سافر بينهما.

– ولكن أليس غيظه هذا دليل ضعف شديد؟ أنا مثلًا لا أشعر بأي حسد من توهج شعر إيزابيلا الذهبي أو نصاعة بياض جلدها، أو رشاقتها وأناقتها المترفة الدقيقة، أو تعلق الأسرة الظاهر بها، بل إنك أنت أيضًا يا نللي تقفين في صفها إن نشب بيني وبينها خلاف، فأذعن أنا وأقبلها وأدعوها حبيبتي. وأنا على حبي الشديد لإدجار أراه ضعيفًا.

– ولكن الآن خبريني لماذا ذهب هيثكليف إلى مرتفعات ويذرنج؟ هل تراه أصبح تقيًا يمد يد الصداقة والود لأعدائه السابقين؟

– لقد شرح لي هذه المسألة يا نللي، فقد عجبت مثلك لأنه زار أخي في الصباح، فقال أنه ذهب إلى هناك ظنًا منه أنك تقيمين في مرتفعات ويذرنج، كي يستقي منك آخر المعلومات عني. فلما رآه جوزيف أخبر هندلي بوجوده، فحضر هندلي وراح يسأله عما كان يصنع وكيف كان يعيش، ثم طلب منه أن يدخل. وفي الداخل وجد بضعة أشخاص يلعبون الورق بالرهان، فانضم إليهم هيثكليف، وخسر أخي مبلغًا كسبه هيثكليف. ولاحظ أخي أن جيب هيثكليف عامر بالمال، فدعاه للحضور في المساء لاستئناف المقامرة وقضاء الليلة عنده، فقبل هيثكليف. وهذا يدلك يا نللي على أن أخي أصبح من الاضمحلال الذهني والعصبي بسبب المقامرة والإفراط في الخمر بحيث لا يتخير أصدقاءه، ولا يتوجس من تقريب من كانت بينه و بينهم في الماضي ترات شديدة. وأنا من جانبي أعتقد أن هيثكليف يميل لتثبيت قدمه في مرتفعات ويذرنج، كي يكون أقرب ما يمكن من هنا. وقد صارحني بأنه سيعرض على أخي أجرًا مرتفعًا جدًا نظير السماح له بالإقامة معه في المرتفعات، وبطبيعة الحال سيقبل أخي لحاجته المستمرة إلى المال.

– عجبًا، وهل لا تشعرين بخوف من العواقب يا سيدتي؟

– لا أشعر بأي خوف على صاحبي؛ لأن لديه من رجاحة العقل ما يصونه من الأخطار. أما هندلي فلا أخاف عليه إلا قليلًا، لأنه أكبر عدو لنفسه، وسأبذل جهدي لحمايته من كل ضرر جسدي قد يأتيه من جانب هيثكليف، وما عدا ذلك فهو وشأنه. اسمعي يا نللي، إن عودة هيثكليف اليوم قد عقدت الصلح بيني وبين الله والبشرية، لقد كنت كافرة بالعناية الإلهية، حاقدة على الناس جميعًا عندما حرمت منه، كنت أشعر بمرارة لا

حد لها. أما الآن فلن أنتقم منه لما سببه لي من آلام فظيعة، بل سأتحمل كل شيء من الآن فصاعدًا في سبيل الاحتفاظ به قريبًا مني. لقد تفجر في قلبي لعودته ينبوع من الطيبة والتسامح يسع العالم كله. فالآن لو تجاسر أحقر مخلوق في العالم ولطمني على خدي الأيمن، لما بادرت فأدرت له خدي الأيسر فحسب، بل لسألته العفو لإثارتي إياه إلى أن ضربني، وبرهانًا على تلك الروح الجديدة سأذهب الآن وأصالح إدجار، طابت ليلتك يا نللي، إنني الآن ملاك.

يمكن أن نقدر مدى نجاح كاثراين في إصلاح ما بينها وبين زوجها مستر إدجار لينتون من نهوضه صباح اليوم التالي منشرح المزاج، حتى إنه لم يبد اعتراضًا على أخذها إيزابيلا معها بعد الظهر إلى مرتفعات ويذرنج، وقد جزته على ذلك بطوفان من الرقة والتودد جعل البيت يبدو جنة الفردوس مدى أيام متعاقبة؛ لأن السيدة والخدم جميعًا شملهم إشراق عطفها.

وقد استعمل هيثكليف –أو مستر هيثكليف كما ينبغي أن أدعوه بعد ذلك– الرخصة التي منحت له في زيارة الجرانج استعمالًا متزنًا يبدو عليه طابع الحذر في أول الأمر، وكأنه يتحسس مدى القابلية عند رب البيت في تحمل تطفله.

وكانت كاثراين من جانبها تقلل من مظاهر سرورها باستقباله، إلى أن اكتسب بالتدريج حقًا مقررًا في توقع حضوره باستمرار، وكان ذلك حريًا أن يضع حدًا لمتاعبه، لولا أن عنصرًا جديدًا لم يكن في الحسبان تدخل في خطته. وذلك العامل هو إيزابيلا لينتون التي ظهر عليها ميل قاهر نحو ذلك الضيف، وكانت في ذلك الوقت شابة فاتنة في الثامنة عشرة من عمرها، مرحة

ذكية، ولكنها إذا غضبت كانت عنيفة في غضبها.

ومن نافلة القول أن نقول إن أخاها الذي كان يحبها حبًا شديدًا أزعجه ذلك الغرام، وما عدا المهانة التي تنجم عن مصاهرة رجل ليس له اسم، وأيلولة أملاك الأسرة كلها إلى ذلك الشخص في حالة عدم إنجاب إدجار لينتون، فقد فطن إدجار إلى شيء أعمق من هذا، وهو أن هيثكليف وإن يكن قد تغير ظاهره وأسلوب كلامه وأدب سلوكه، إلا أن عقله وسريرته لم يصل إليهما التغير. وكان إدجار يبغض ذلك العقل وتلك السريرة، ذلك البغض الذي يشعر به المتمدين أمام كل ما هو فطري غفل، وهو ما جعله يفزع حتى من التفكير في إمكان زواج إيزابيلا من هيثكليف.

ولا شك أن فزعه كان ينقلب إلى هول، لو أنه عرف الحقيقة كاملة، وهي أن غرام إيزابيلا بهيثكليف كان سهمًا أصاب فؤادها وحدها، وأن هيثكليف لم يحاول إغواءها؛ ولذلك ظل إدجار يجهل الحقيقة ويلقي اللوم على هيثكليف، ويتهمه بتدبير تلك الخطة كي يستولي مستقبلًا على ثروة آل لينتون الكبيرة.

وكنا كلنا قد لاحظنا في المدة الأخيرة أن إيزابيلا لا تستقر على حال من القلق، لسبب مجهول، وأنها باتت ضيقة الصدر متكدرة الخاطر، وأنها على الخصوص كانت تتصيد المناسبات وتختلقها للتشاجر مع كاثراين باستمرار والإلحاح في ذلك إلى أن تخرجها عن صبرها. وعزونا ذلك في أول الأمر إلى سوء الصحة، إذ كانت تزداد في كل يوم شحوبًا وهزالًا، إلى أن قررت سيدتي ذات يوم أن ترسل شقيقة زوجها إلى الفراش وتبعث في طلب الطبيب كينيث، فإذا إيزابيلا تثور وتقرر أنها لا تشكو مرضًا سوى فظاظة كاثراين. فصاحت هذه بها:

- كيف تزعمين هذا أيتها الشريرة؟ لا شك أنك جننت! متى كنت فظة معك؟

- بالأمس.

- بالأمس؟ لأي مناسبة؟

- ونحن نتنزه بين الأحراش، قد طلبت مني أن أسير حيث شئت، وتلكأت أنت مع مستر هيثكليف.

- لم أقصد أن وجودك معي يضايقني، وإنما قصدت أن حديث مستر هيثكليف سيكون في أمور لا تكترثين لها.

- كلا، بل أردت إبعادي لأنك تعلمين أنه يطيب لي أن أكون هناك.

- هل أنت مجنونة؟ سأعيد على مسامعك الآن ما قاله لي بالحرف الواحد، وسنرى هل كان يهمك سماعه أم لا.

- هراء، ليس موضوع الحديث ذا أهمية، إنما كل اهتمامي أن أكون مع..

- مع من؟

- معه، مع هيثكليف، وسماجتك أنك لا تريدين أن يكون أحد محبوبًا منه سواك.

- هذا مستحيل، لعلك جننت! مستحيل أن تكني ذلك الإعجاب بهيثكليف، وأن تعديه شخصًا لطيفًا جذابًا، أرجو أني لم أحسن الفهم يا إيزابيلا!

- كلا، فأنا أحبه حبًا يفوق حبك لإدجار، وهو أيضًا كان حريًا أن يحبني لو

أنك لم تشغليه طول الوقت على هذا النحو الشائن.

- ويحك! إن هيثكليف شخص فظ غليظ القلب، لا ثقافة لديه ولا تهذيب، إنه منطقة وعرة من الصخور البركانية القاحلة، لا ظل فيها ولا ماء، ولا يمكن أن تنبت فيها نابتة خضراء. وإن وضعك قلبك بين يديه لشبيه بوضع عصفور الكنار في العراء وسط عاصفة هوجاء من عواصف الشتاء.

- يا للعار! أهذا رأيك في صديقك؟ إنك أوخم في صداقتك من عشرين عدوًا!

- أنت لا تصدقينني إذن؟ حسنًا، فلتجربي بنفسك، فقد أبرأت ذمتي.

ولم يمضِ وقت طويل تفكر فيه إيزابيلا، ففي اليوم التالي عقدت جلسة في محكمة المدينة المجاورة، وكان على سيدي أن يحضرها بوصفه من المحلفين، وكان مستر هيثكليف على علم بغيابه فبكر بالحضور. وكانت كاثراين وإيزابيلا جالستين في المكتبة صامتتين بسبب ما بينهما من الخصام. وما وقع نظر كاثراين على مستر هيثكليف من نافذة المكتبة حتى أخذت تضحك ضحكة خبيثة، ولم تفطن إيزابيلا إلى سبب ضحكها؛ لأنها كانت عاكفة على الكتابة إلى أن انفرج الباب ودخل هيثكليف، فأخذت على غرة، وأمعنت سيدتي في قسوتها حين قربت له مقعدًا من النار وقالت له بمرح:

- مرحى مرحى جئت في أوانك، فإنه يزهينى يا هيثكليف أن أقدم لك أخيرًا فتاة شغفت بك أكثر مني، ولك أن تتيه بذلك فخرًا. كلا، إنها ليست نللي فلا تنظر إليها هكذا، إن شقيقة زوجي المسكينة يتفطر قلبها ويذوب لوعة وصبابة بمجرد استجلاء محاسنك الجسدية والروحية. ففي يدك أنت

وحدك أن تغدو صهر إدجار، كلا، لا تهربي يا إيزابيلا فليس هذا أوان الهرب. سأرغمك على الجلوس بالقوة، لقد تشاجرنا يا هيثكليف بسببك كالقطط، وصارحتني بأنه ينبغي أن أتنحى؛ لأترك لها المجال كي ترمي فؤادك بسهم يصميه إلى الأبد، وتمسح منه كل أثر لذكراي.

وثارت إيزابيلا، ثم انتزعت يدها من قبضة كاثراين القوية وصاحت:

– أرجو يا مستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه أن تخلي سبيلي.

بيد أن الزائر لم يكترث للمسألة كلها ولم يجب، فأخذت المسكينة تتوسل إلى كاثراين.

– كلا، لن أتركك، اجلسي! الكلمة لك الآن يا هيثكليف، فإيزابيلا تقسم أن حب إدجار لي ليس شيئًا بالقياس إلى حبها لك، وقد شتمتني لأني أول أمس أبعدتها عنك ونحن نتمشى بين الأحراش، فهي لا تتمنى في الوجود شيئًا سوى أن تكون بقربك ، فأدار هيثكليف كرسيه ليواجههما وتأملهما برهة ثم قال:

– اتركيها، فهي الآن على الأقل لا تستسيغ صحبتي.

وظل يرمق موضوع البحث كما يرمق الإنسان حيوانًا غريب الشكل منفرًا جلبه البحارة من أقطار الهند، فالناس يتطلعون إليه بدافع من الإستطلاع والطرافة رغم بشاعته. وضايقت هذه النظرة إيزابيلا فلم تجد بدًا من الفرار بأي ثمن، وكان الثمن انقضاضها على يد كاثراين فعضتها، فتركتها هذه وهي تصرخ وتسبها، فمرقت خارجة. وأخذ هيثكليف يلوم كاثراين لقسوتها على

الفتاة وإغاظتها بهذه الصورة في وجوده.

– ولكني لم أقل لك سوى الحقيقة، فقد ظلت قلقة حتى كادت تجن في الأسابيع الأخيرة، وهذا كله بسببك. فلما حسبتها مريضة انطلقت تشتمني واعترفت في هذيان يشبه الحمى أنها مجنونة بهواك، ولما صورت لهما مثالبك وعيوبك أوشكت أن تقتلني كما يقتل الوثني من يعيب صنمه المعبود. ولكن حذار أن تستغل هذه الحقيقة، إنما أردت فقط أن أعاقبها. ولكني أحبها كثيرًا يا عزيزي هيثكليف، ولا أسمح مطلقًا بأن أتركك تعبث بها أو تلتهمها.

– وأنا أكرهها بحيث لا أقربها إلا كما تقرب الغولة الفريسة. فلو قدر لي أن أعيش معها لبلغتك أخبار عجيبة عنها، وأقلها أن أرسم على صفحة محياها الشمعي ألوان الطيف، فأجعلها كقوس قزح، وأن أقلب زرقة عينيها سوادًا كل يوم أو يومين، فما أشد شبه عينها بعيني إدجار. ولهذه المناسبة أليست هي وريثة شقيقها؟

– لا قدر الله! فلسوف يحجبها عن الميراث اثنا عشر ابن أخ إن شاء الله، فلا تتعب نفسك بالتفكير في هذا الأمر أيها الذئب المتوحش.

وبعد تلك الفترة، كنت في طريقي ذات يوم إلى جيميرتون بعد الظهر وقد صحا الجو، فلما وصلت إلى العلامة الحجرية التي ينشعب عندها الطريق شعبتين تؤدي إحداهما إلى مرتفعات ويذرنج، شعرت بحنين شديد إلى تلك الدار، ولا سيما إلى الصغير هيرتون، وتوجهت إلى هناك.

وأسعدني الحظ فرأيت الصغير يلعب في البستان عند البوابة، وآلمني كثيرًا

أن أجد الطفل الذي نما وترعرع لم يعد يذكر من كانت له بمثابة الأم. ولما حاولت مداعبته كشر عن أنيابه، وبدا عليه التوجس والشر، فأحزنني ذلك وأسال دموعي. وأخرجت من جيبي برتقالة قدمتها إليه لأتألف قلبه، فتردد برهة ثم خطفها من يدي، وكأنه يخشى أن أكون قد أضمرت العبث به، وأخرجت أخرى جعلتها بعيدًا عن متناوله وسألته:

- ألا تريد أن تمنحني قبلة؟

فكان جوابه أن ابتعد وتناول حجرًا ضرب به رأسي بإحكام. فغضبت وقلت له:

- ما هذا؟ من الذي علمك إياه؟ أهو القسيس؟

- لعنة الله على القسيس وعليك! أعطني هذه البرتقالة!

- قل لي أولًا من معلمك؟

- الشيطان أبي.

- وماذا يعلمك أبوك؟

فلم يجب وغافلني وقفز ليخطف البرتقالة، فرفعت يدي أكثر وكررت السؤال، فقال:

- لا شيء سوى أن أبتعد عن مجلسه، فأبتعد عنه وألعنه.

- ومن الذي علمك أن تلعن أباك؟ أهو الشيطان؟

– كلا.

– من إذن؟

– هيثكليف.

– وهل تحب مستر هيثكليف؟

– نعم.

– ولماذا؟

– لا أعلم، ولكنه يرد لأبي ما يصنعه بي، فيشتمه حين يشتمني، وهو يقول إنني حر أفعل ما أشاء. ثم إنه طرد القسيس الذي أراد أن يعلمني القراءة، وأقسم أن يأكل رقبة القسيس بأسنانه إن وضع قدمه على عتبة الدار.

وكان هذا حسبي كي ينفطر قلبي أسى على هيرتون، فاستدبرت مرتفعات ويذرنج، وانطلقت أعدو هاربة من دار سيطر عليها الشيطان.

وعندما جاء هيثكليف للزيارة في المرة التالية، كانت إيزابيلا تطعم الحمام في الفناء، ولم تكن قد كلمت سيدتي منذ ثلاثة أيام. وكنت أعرف أن هيثكليف لا يبدي أي مجاملة لا لزوم لها نحو إيزابيلا. أما في هذه المرة ما كاد يراها حتى ألقى نظرة على واجهة الدار، وكنت أنا واقفة وراء ستار نافذة المطبخ فلم يرني. وبعد ذلك اجتاز الفناء وقال لها كلامًا يبدو أنه أخجلها فهمت بالابتعاد. وعندئذ وضع يده على ذراعها ليمنعها من ذلك، فأسرعت تغطي وجهها؛ لأنه فيما يبدو ألقى عليها سؤالًا لم تشأ أن ترد عليه، ومرة

أخرى ألقى نظرة سريعة على نوافذ البيت، فلما أيقن أن أحدًا لا يراه، تجاسر الوغد فاحتضنها وقبلها. فهتفت لنفسي:

– يا لك من يهوذا الخائن! أيها المنافق الغشاش!

وسمعت أثر ذلك صوت كاثراين يناديني من ورائي، وقد دخلت المطبخ على حين غرة مني. ثم سألتني:

– من تعنين بهذا يا نللي؟

– صديقك السافل، والثعلب المتسلل الواقف هناك، لقد طوحت نسمة بالستار فرآنا وها هو ذا يقترب من الباب ليدخل الدار.

وكانت كاثراين قد لمحت إيزابيلا وهي تحاول الخلاص من أحضانه وتجري هاربة إلى الحديقة. وبعد لحظة دخل هيثكليف فأوشكت أنا أن أنفجر فيه، لولا أن كاثراين منعتني بحزم وغضب ثم قالت لي:

– إن من يسمعك يظن أنك السيدة هنا! أما أنت يا هيثكليف فماذا تبغي بهذه الألاعيب؟ ألم أقل لك أترك إيزابيلا وشأنها، لئن لم تفعل لأجعلن إدجار يوصد الباب دونك!

– سألت الله ألا يفعل، وأن يبقى كعهده وديعًا كالحمل، وإلا أرسلته إلى السماء.

– صه! وقل لي لماذا خالفت نصيحتي؟ هل اعترضت طريقك عن عمد؟

– وما شأنك أنت؟ من حقي أن أقبلها ما شاءت، فلا حق لك في الاعتراض.

إني لست زوجك وليس لك أن تغاري علي.

– لست غيرى عليك، فاكشف القناع عن وجهك، وإن كنت تحب إيزابيلا فأقسم أنك ستتزوجها. ولكن هل تحبها؟ قل الحقيقة يا هيثكليف، أنا موقنة أنك لا تحبها.

– وهل يوافق مستر إدجار لينتون؟

– سيوافق.

– بل له أن يوفر على نفسه عناء الموافقة، فسأتزوجها بغير إذنه. وأما أنت يا كاثراين فأريد أن أقول لك كلمتين، أريد أن تعلمي أنني مدرك تمام الإدراك كف عاملتني معاملة جهنمية، جهنمية.. أتسمعين؟ فإذا خدعت نفسك بأنني لا أدرك ذلك فأنت حمقاء، وإذا ظننت أن بليتي يمكن تخفيفها بالكلمات المعسولة فأنت بلهاء، وإذا تخيلت أني سأستمر أتعذب ولا أنتقم لنفسي، فأعمالي القريبة ستبرهن لك أن العكس هو الصحيح. وشكرًا لك ألف مرة لأنك بحت لي بسر شقيقة زوجك، وأقسم أن أستغله غاية الاستغلال، وليس عليك إلا أن تقفي بعيدًا.

– كيف تجسر أن تقول إنني عاملتك معاملة جهنمية؟ وأي انتقام تتحدث عنه؟

– اطمئني، فليس انتقامي منك، ولن ينصب عليك، فمهما يستبد الطاغية بعبيده لا يجسر العبيد أن يرفعوا أنظارهم أو يتمردوا عليه، وإنما يصبون سخطهم ومقتهم على من دونهم من العبيد. فلك أن تعذبيني وتتلذذي

بتعذيبي ما شئت، فلن أمسك بسوء. ولكن اسمحي لي على الأقل بأن أتلذذ بتعذيب من أستطيع تعذيبه على طريقتي الخاصة، ولا تحاولي اقناعي بالتماس السعادة بين أحضان إيزابيلا، فمن إيزابيلا؟ لقد كان لي قصر منيف من آمال السعادة، هدمته أنت وسويت به الأرض، فلا تحاولى تعزيتى عنه بجحر قذر حقير، ثم تزعمين لنفسك أنك محعام تتصدقين!

– أراك مغيظًا لأني لم أغر! وإني مخطئة لأني عرضت عليك هذه العروس، فذلك بمثابة تقديم روح نقية مؤمنة إلى براثن إبليس، وأرى أنك لا تستريح أن يسود السلام هذه الدار، لهذا ساءك أن يرجع إدجار عن استيائه بسبب عودتك. فجعلت تبحث عن طريقة تعكر بها صفونا. اصطدم بإدجار إن شئت يا هيثكليف، وغرر بشقيقته، فهذه حقًا أنجح طريقة تنتقم بها مني.

وساد الصمت بعد ذلك، وظلت سيدتي جالسة بجانب النار وقد احمر وجهها غضبًا، أما هيثكليف فوقف معقود الذراعين فوق صدره يحملق في اللهب، وعندئذ خرجت لأجد سيدي في حجرة الجلوس يعجب لطول غياب كاثراين في المطبخ وهو أسفل الدار.

وذكرت له أنها هناك مع مستر هيثكليف، وأن سلوكه أغضبها. فلما سألني عما فعل صارحته بكل شيء فصاح قائلًا:

– إن هذا لا يطاق، ومن العار أن تعتز بمثل هذا الصديق وتفرض عشرته علي. أسرعي يا نللي ونادي الخادمين من البهو. فلن أصبر على هذا الوغد بعد اليوم!

ونزل إلى الطابق الأرضي، ثم أمر الخادمين بالانتظار في الممر، ودخل وأنا أتبعه إلى الطبخ، فوجدناهما قد استأنفا مناقشتهما الحامية، أو على الأصح

وجدنا سيدتي تواصل لومها إياه، وقد وقف هو ينظر من النافذة. فلما دخل سيدي توقفت فجأة، فصاح بها:

- كيف سولت لك نفسك أن تبقى لحظة واحدة بعد ما بدر من هذا المنحط؟ لا شك أنك تعودت سفالاته حتى لم تستغربيها. وربما ظننت أنني سأتعودها أيضًا.

فنظر إليه هيثكليف ثم قهقه ضاحكًا، فالتفت إليه إدجار وقال له بفتور:

- لقد طال احتمالي لك يا سيدي!

فأجال هيثكليف بصره في محدثه بإزدراء ثم قال:

- أرى حملك الوديع يا كاثي يستعمل لغة الثيران، وهذا يجعله في خطر من تهشيم دماغه بمفاصل أصابعي. ولكن يؤسفني يا مستر لينتون أنك لست أهلًا لهذا.

فنظر سيدي نحو الممر، وأشار إلي أن أدعو الخادمين، فخرجت لأدعوهما، غير أن سيدتي فطنت وتبعتني. ولما تبينت الموقف جذبتني إلى الداخل ثم أغلقت الباب بالمفتاح ووضعت ظهرها وراءه. وأجابت على نظرة الغضب والدهشة من زوجها قائلة:

- ما هذه الوسائل الغادرة؟ إن لم تكن لديك الشجاعة كي تهاجمه وحدك، اعتذر له واعتبر نفسك مهزومًا، وسيكون هذا درسًا لك؛ حتى لا تتبجح في المستقبل وتدعي لنفسك من البأس والقيمة أكثر مما لك. كلا، لن أعطيك المفتاح ولو اضطررت إلى ابتلاعه! واعلم يا إدجار أنني كنت بصدد الدفاع عنك وعن ذويك، أما الآن فإني أتمنى أن يفترسكم

هيثكليف جميعًا، وأن يجلدك وأختك بالسياط؛ لأنك جرؤت أن تظن بي السوء. كلا لن أعطيك المفتاح!

ولما وجدته قد استمد من ثورته قوة، وأوشك أن ينتزع المفتاح من يدها، قذفت به إلى وسط النيران. فاستولت على مستر إدجار رعدة عصبية وشحب وجهه كوجوه الموتى أمام هذا الإذلال. وممن؟ وأمام من؟ فارتمى فوق مقعد وغطى وجهه بيديه. فصاحت كاثراين:

– أنت الآن مهزوم، وعلى حسب قوانين الفروسية القديمة من حق هيثكليف أن يبيعك بيع الرقيق أو يرفع يده ويقتلك، ولكن أبشر فلن يمسك بسوء!

ومط صديقها شفته بازدراء وقال:

– أتمنى لك الاستمتاع بهذا الجبان الذي تجري الدماء في عروقه لبنًا.

وأهنئك بذوقك الرفيع الذي جعلك تفضلين هذا الرعديد علي أنا، لن أدنس يدي بلمسه، ولكني سأرفسه بحذائي وأعتبر هذا ترضية كافية. أتراه يبكي الآن أم هو مشرف على الإغماء من فرط الخوف؟

ثم اقترب ودفع بقدمه المقعد الذي جلس فوقه إدجار، وإذا بسيدي يقفز بسرعة ويضربه في رقبته ضربة كانت كفيلة بأن تلقي غيره أرضًا، فلبث يشهق برهة. وفي ذلك الحين خرج إدجار من الباب الخلفي إلى الفناء. ومن هناك إلى المدخل الأمامي. فصاحت كاثراين بهيثكليف في ذعر:

– لقد قطعت على نفسك طريق الحضور إلى هنا نهائيًا، فانصرف الآن لأنه سيعود بحفنة من المسدسات وعصبة من الأعوان. أسرع بربك يا

هيثكليف؛ لأنني أفضل ألف مرة أن أرى إدجار صريعًا على أن أراك أنت مجندلًا!

– إن خرجت قبل أن أرد إليه هذه الضربة، فلن أرجع عن قتله بعد.

– لا تنتظر، لن يعود معهم. سيرسلهم وحدهم ليطردوك أو يقتلوك.

فراجع هيثكليف نفسه ثم قرر تجنب المعركة، وتناول قضيب المدفأة فحطم به قفل الباب وانطلق خارجًا، في الوقت الذي هجم فيه الخدم ومعهم إدجار من الباب الآخر. وكان الإعياء قد بلغ منها مبلغه فأمرتني أن أصحبها إلى مخدعها، وأخذت وهي مستلقية بثيابها على الفراش ترتعد غضبًا، ثم قالت:

– قولي لزوجي يا نللي إنني مهددة بمرض خطير نتيجة ما سببه لي من الإثارة؛ ولهذا لا أريد أن أراه الليلة، حتى لا يستأنف محاضراته المزعجة. وأظنك ترين أنه لا لوم علي فيما حدث. فهو الذي تجسس علينا وراء الباب.

ولم أشأ أن أقول لها إنني أنا التي أبلغته، كما أنني لم أبلغ رسالتها إلى زوجها، ولكني حرصت على أن أقف وراء الباب لأسمع مناقشتهما. وقد بدأ هو الكلام الحزن هادئ:

– لا تقلقي فلن أطيل المكث. وإنما أريد فقط أن أعرف هل تنوين..

– لا أريد كلامًا الآن فأنت طبعًا بارد الأعصاب لا تسبب لك انفعالاتك الحمى، وعروقك تفيض ماء مثلجًا، أما عروقي فتغلي فيها الدماء. اخرج حالًا يا إدجار!

ثم أخذت تجذب حبل الجرس إلى أن انقطع، وتمهلت أنا قليلًا ثم دخلت فوجدتها تصرف على أسنانها وتضرب برأسها الجدار. وقد وقف زوجها محملق في أفاعيلها وقد تملكه الخوف، ثم أمرني أن أحضر ماء. فأتيت بكوب وحاولت أن أسقيها فلم تشرب، فصببته على وجهها دفعة واحدة وأنا ألعنها في سريرتي.

وبعد لحظات تخشبت، وانقلبت عيناها، ثم ابيض وجهها حتى حاكى وجوه الموتى، ففزع إدجار فزعًا شديدًا. ولكني همست في أذنه وأنا أغالب خوفي حتى لا يرضخ:

– لا خوف عليها، لا خوف مطلقًا، لا تتدخل أنت.

– ولكني أرى دمًا على شفتيها.

– من أثر عضه بأسنانها، لقد رتبت هذا عمدًا كي تفزعك فتتنازل عن موقفك.

ويبدو أنها سمعت همسي ففتحت عينها ورمقتني بنظرة نارية، وخشيت أن تضربني فتحطم عظامي في ثورتها. وإذا بها تدور بنظرها في الحجرة ثم تندفع خارجة، فطلب مني سيدي أن أتبعها، فتبعها إلى حجرة نوم كانت معدة للضيوف، فدخلتها وأوصدتها من الداخل.

ولما لم تنزل في ساعة الإفطار في اليوم التالي، صعدت لأسألها هل تريد أن نبعث إليها بشيء تأكله، فردت بكلمة واحدة:

– كلا.

وتكرر هذا الجواب الموجز في أوقات الغداء والشاي والعشاء، ثم في إفطار اليوم التالي. وكان زوجها يقضي وقته طيلة اليومين في المكتبة معتكفًا، ويتناول طعامه فيها، ولم يستفسر عن تصرفات زوجته. وقضى مع إيزابيلا ساعة حاول فيها أن يكشف لها عن حقيقة هيثكليف، غير أنه لم يخرج بطائل، ولم تجب عن شيء من أسئلته المتلاحقة، فختم المقابلة بتحذيرها تحذيرًا حاسمًا من تشجيع ذلك الوغد، وإلا قطع كل صلة تربطه بها، ولم يعترف بأخوها إلى الأبد.

# لقاء أخير

مضى يومان آخران، والآنسة إيزابيلا تقضي أكثر وقتها في الحديقة والبستان، وهي في صمت مستمر، لا تقطعه إلا فترات من البكاء الصامت أيضًا، أما شقيقها فكان يحبس نفسه بين كتبه في المكتبة، دون أن يفتح كتابًا، على أمل أن تأتي إليه كاثراين تائبة مستغفرة فتصالحه.

وكانت كاثراين نفسها لا تزال صائمة عن الطعام، وتظن أن إدجار في كل وجبة ينفعل ويقلق لغيابها، وأن الكبرياء وحدها هي التي تمنعه أن يأتيها راضخًا مستغفرًا، أما أنا فكنت أتابع أعمالي المنزلية، ولا أنقل أخبار أي طرف من الأطراف الثلاثة إلى الطرفين الآخرين.

وفي اليوم الثالث، فتحت كاثراين بابها وطلبت مزيدًا من الماء تبل به ريقها ؛ لأنها اعتقدت أن الموت صار قاب قوسين منها أو أدنى، وقد صارحتني بذلك وفي ظنها أني سأنقله بحروفه إلى مسامع زوجها، غير أني لم أفعل لأني كنت أعلم أنه غير صحيح. ثم أتيتها بشيء من الشاي والكعك، فإذا بها تشرب وتأكل بنهم، ثم تستلقي على وسادتها، وتتشنج أصابعها وتصيح:

– سأموت إذن ما دام أمري لا يعني أحدًا، ليتني لم أشرب ولم آكل كي أموت بسرعة.

ولما لم أرد، إستأنفت تقول لنفسها بصوت خافت:

– كلا، لن أموت حتى لا يفرح، إنه لا يحبني مطلقًا ولن يفتقدني، خبريني

يا نللي. أصحيح أنه لا يبالي بصومي وإشرافي على الموت؟

– وكيف يبالي يا سيدتي وهو لا يعلم أنك صائمة أو متوعكة؟

– لا يعلم؟ ولماذا لم تخبريه؟ أقنعيه يا نللي بأنني سأموت جوعًا.

– هل نسيت يا سيدتي أنك تناولت الآن شيئًا من الطعام ستكون له آثار طيبة في رد قواك المنهكة؟ دعي هذه الألاعيب الصبيانية واستمتعي بنوم هادئ حتى الصباح!

ولم تجبني، بل تشنجت وراحت تحملق حولها في الحجرة، ثم صرخت وهي تحملق في المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط:

– أترين هذا الوجه يا نللي؟ من هذه وماذا تريد مني؟

وأدركت من نظرتها أنها تهذي، وأنها لم تعرف صورتها، فقمت وغطيت المرآة بشال. فصاحت وهي تلوح بذراعيها وعلى وجهها أمارات الخوف:

– لا فائدة إنها واقفة هناك وراء الشال، بل إنها تتحرك وتحرك الشال، من هي؟ ليتها تخرج إلي وتحدثني عن نفسها. هذه الحجرة مسكونة يا نللي وأخاف أن أبقى فيها وحدي، لا تفارقيني!

فأخذت يدها بين يدي، وحاولت أن أهدئها، ولكن الرعدة شملت جسدها كله، وظلت عيناها شاخصتين إلى المرآة. فقلت لها:

– ليس هناك أحد، إنه أنت، هذه هي المرآة.

– أنا؟ آه.. وهذه الساعة تدق اثنتي عشرة دقة.

واسترخت ثم جذبت الغطاء فوق عينيها، فتسللت إلى الباب وفي نيتي أن أستدعي زوجها. وإذا بها تصرخ صرخات ثاقبة، فعدت بسرعة لأجدها واقفة أمام المرآة وقد أزاحت الشال عن موضعه وصار وجهها تمثالًا مجسمًا للرعب، فأخذتها بين ذراعي وعدت بها إلى الفراش، وهي تغمغم:

– ليتني كنت في بيتنا في المرتفعات، ليتني أسمع الرياح وهي تعصف بين الأحراش، دعوني أملأ صدري من هذه الرياح مرة أخيرة.

وسارعت أنا إلى فتح النافذة، فاندفع الهواء البارد إلى الداخل، ثم أغلقتها وعدت إلى كاثراين، فإذا هي مسترخية مغمضة العينين، وقد تخضل وجهها بالدموع. ثم سألتني:

– كم مكثت في هذه الحجرة؟

– ثلاثة أيام.

– فقط؟ حسبتني بقيت فيها شهرًا، لقد رأيت أحلامًا مزعجة، وسقط من ذاكرتي كل ما يتعلق بالسنوات السبع الأخيرة، فإذا بي طفلة وقد مات أبي منذ أيام، واكتنفتني تعاسة شديدة لما فرضه هندلي من التفريق بيني وبين هيثكليف. ثم صحوت من نومي فجأة لأجد الطفلة المتعلقة بالغلام هيثكليف قد أصبحت مسز لينتون وسيدة الجرانج، وزوجة رجل غريب لا تعرف عنه شيئًا، فهي مشردة منفية من عالمها الأصيل. افتحي يا نللي النافذة على مصراعيها هذه المرة، ودعي هواء الأحراش التي امتزجت بطفولتي وعالمى

يأتي إلي، لماذا يا نللي لا تفعلين ما آمرك به؟ تحركي!

– لأنني لا أريد أن أقتلك من شدة البرد.

– إذن سأقوم وأفتحها بنفسي.

ونهضت في سرعة لم تسمح لي بمقاومتها، واندفعت إلى النافذة في خطوات مترنحة ففتحتها على مصراعيها، وأطلت منها غير مبالية بالهواء الثلجي الذي كان يضرب كتفها العاريين كالخناجر. وجعلت أتوسل إليها، ثم أرغمتها عنوة على العودة لفراشها، وإذا بقوتها العصبية تزيد على قوتي فتفلت مني وتعود إلى النافذة، وكان كل شيء في الخارج غارقًا في الظلام. وراحت تصيح مشيرة بيدها المحمومة نحو مرتفعات ويذرنج:

– انظري! هذه حجرتي، وفيها الشمعة، وأمامها الأشجار العالية تهزها الرياح. وهذه الشمعة الأخرى في حجرة جوزيف العلوية، إنه سهران إلى أن أعود من الخارج كي يغلق البوابة. إنني لن أعود الآن يا جوزيف؛ لأنني تراهنت مع هيثكليف على أن يقف في منتصف الليل بين المقابر ويتحدى الأشباح أن تظهر وتكلمه. كلا يا هيثكليف، لن أرقد في المقابر وحدي، ولئن دفنوني على عمق اثنى عشر قدمًا، ثم هدموا الكنيسة فوق قبري أيضًا، فلن أستريح ولن أستقر إلى أن آخذك معي.

فلم يعد عندي شك في خطورة حالتها، وأسرعت أدعو زوجها، وإذا بي أجده أمام الباب، فقد استرعى لغطنا سمعه وهو في طريقه من المكتبة إلى مخدعه الخاص، فوقف مدفوعًا بحب الاستطلاع ليتبين سبب سهرنا إلى هذه الساعة المتأخرة. فقلت له:

– أسرع يا سيدي، إن سيدتي المسكينة مريضة، ولم أعد أستطيع السيطرة عليها وهي في إبان نوبتها. انس غضبك وحاول أن تقنعها بالرقاد في فراشها.

فاندفع منزعجًا وهو يصيح:

– كاثراين مريضة؟ أغلقي النافذة يا نللي، ولكن لماذا؟!

ولم يتم جملته لأن منظر وجهها وهي في هذيانها أفزعه، فشرحت له كيف صامت ثلاثة أيام، فكاد يقتلني لأني كتمت عنه ذلك. ثم اتجه إليها ملهوفًا مرتاعًا، ولم تعرفه في أول الأمر، حتى إذا هدأت وبدأت تثوب إلى رشدها صاحت في غضب:

– هذا أنت أخيرًا يا إدجار لينتون؟ إنك من هؤلاء الذين يجدهم الإنسان حين لا يحتاج إليهم، ولا يجدهم حين يكون لوجودهم نفع. ولكن ثق إنه ما من قوة تستطيع أن تمنعني الآن عن موضع راحتي الضيق هناك، فموعدي معه قبل ختام الربيع. انظر جيدًا يا إدجار لينتون، إن مكاني ليس بين أجداث آل لينتون تحت سقف الكنيسة، بل في الهواء الطلق، في العراء. أما أنت فلك أن تذهب إليهم إن شئت، أو تأتي إلي!

– ماذا بك يا كاثراين؟ هل لم أعد شيئًا لديك؟ هل تحبين هذا الوغد هيث...

– اخرس! إن نطقت هذا الاسم قفزت على الفور من هذه النافذة. إن الذي تلمسه الآن قد يكون لك، أما روحي فستكون فوق قمة هذا التل قبل أن تلمسني مرة أخرى، لست أريدك يا إدجار، لم أعد أريدك! عد إلى كتبك، ويسرني أنك وجدت عزاء عني؛ لأن كل ما كنت تملكه مني قد انتهى!

فنظر مستر إدجار نحوي، وأمرني أن أسرع إلى الطبيب كينيث. وفيما أنا أجتاز الحديقة لأصل إلى الطريق، وجدت عند السور شيئًا أبيض يتحرك حركة غير منتظمة، فوقفت لأتبينه حتى لا أتوهم بعد ذلك إنه عفريت، وإذا بي أكتشف أن هذا الشيء هو كلب الآنسة إيزابيلا الصغير فاني، وقد علق من رقبته إلى خطاف في الحائط بمنديل، وقد أوشك أن يلفظ نفسه الأخير، فحللت وثاقه وأنا أعجب لأمره، فهذا الكلب لا يفارق سيدته وينام في فراشها.

وعندئذ خيل إلي أنني أسمع وقع حوافر جياد عن بعد، وذلك شيء مستغرب في الساعة الثانية صباحًا، غير أن الوقت لم يتسع للتفكير، وانطلقت إلى بيت الطبيب كينيث. فحضر معي في الحال. وكان الطبيب صريحًا جدًا، فعبر لي عن ضعف أمله في نجاة سيدتي من هذه الصدمة الثانية، ما لم تطع تعليماته بصورة أدق من المرة الأولى. ولكنه جعل يستجوبني ونحن في الطريق عن أسباب النوبة، وهل يحب مستر إجادر زوجته وحزن لمرضها. فقلت له:

– إنه مغرم بها، والخوف عليها يفطر قلبه، فلا تفزعه أكثر مما ينبغي.

– لقد حذرته في المرة السابقة من إثارة أعصابها، ولكني سمعت أخيرًا إنه تشاجر مع مستر هيثكليف، أليس هذا صحيحًا؟

– صحيح، وقد حدث ذلك على إثر طموحه إلى الظفر بالآنسة إيزابيلا، وما أظن أنه يمكن أن يدخل البيت بعد ذلك.

– وهل الآنسة إيزابيلا معرضة عنه؟

– إنها لم تجعلني موضع سرها.

– إنها فتاة كتوم حقًا، ولكنها بلهاء. فقد سمعت من يوثق بكلامه أنها قضت ساعتين في الليلة الماضية –وما أقساها من ليلة– مع هيثكليف، في البستان الذي يقع خلف الدار، وكان يلح عليها ألا تعود إلى البيت بل تركب معه على ظهر جواده فيهرب بها. وقد أبلغني من شاهدهما أنها لم تتخلص منه إلا بعد أن أقسمت بشرفها أن تكون على استعداد لذلك الهرب عند اللقاء التالي. ولم يسمع صديقي شيئًا عن موعد ذلك اللقاء بالضبط، ولكن حذري مستر إدجار كي يفتح عينيه جيدًا.

وأقلقتني هذه الأخبار، فأسرعت أسبق الطبيب، ووجدت الكلب الصغير يعوي في الحديقة، ففتحت له البوابة، لكنه لم يدخل الدار بل راح يتجول بين الأعشاب ويدس أنفه في الأرض، ولو لم أمسكه لهرب إلى الطريق.فلما أسرعت إلى حجرة إيزابيلا، ثبتت لي صحة ظنوني؛ لأني وجدتها خالية. ولكن ما العمل الآن؟ ليس من المحتمل أن تتمكن من اللحاق بالهاربين إذا طاردناهما الآن، وأنا نفسي لا أستطيع هذه المطاردة. وفي الوقت نفسه لا تسمح حالة سيدتي بأن أنذر أهل الدار ليقوموا بالمطاردة، فلم أجد حلًا أوفق من إطباق فمي وترك الأمور تجري في أعنتها، وأسرعت إلى حجرة سيدتي كي أكون تحت أمر الطبيب.

وقد أفلحت الأدوية المسكنة في تهدئة أعصابها، فنامت نومًا مضطربًا. وسهرت أنا مع زوجها بجانب فراشها، بعد أن تلقينا تعليمات الطبيب، وأهمها المحافظة على جو الهدوء التام، وتجنب أي إثارة أو إنفعال.

ومضت ساعات من النهار قبل أن يتبين الخدم أن الآنسة إيزابيلا لم تنهض من فراشها كالعادة. وأظهر شقيقها استياء لعدم اهتمامها بالسؤال عن صحة زوجته، ووجف قلبي خوفًا من أن يعهد إلي سيدي بالذهاب إلى حجرتها، فيقع على عاتقي أمر إبلاغه نبأ هربها، ولكن كفيت هذه المحنة؛ إذ كانت إحدى الخادمات تشتري شيئًا من جيميرتون في ساعة مبكرة، فعادت تصيح وهي تصعد السلم ثم تقتحم الحجرة والدهشة مرتسمة على وجهها:

– أدركنا يا سيدي، لقد هربت سيدتي إيزابيلا مع هيثكليف. قابلني في الطريق صبي اللبان الذي يأتي هنا كل يوم، وأخبرني بأنه رآهما يقفان على بعد ميلين من جيميرتون لإصلاح حدوة الحصان عند البيطري بعد منتصف الليل بقليل. وكذلك أكد له البيطري صدق ظنونه مطريًا هيثكليف؛ لأنه دس في يده جنيهًا ذهبيًا تعويضًا له عن إقلاق نومه. ولما طلبت سيدتي كوب ماء سنحت الفرصة للبيطري فتأكد من شخصيتها بما لا يدع مجالًا للشك وبعد ذلك اتجها بأقصى سرعة مبتعدين عن القرية. وأخبرني ذلك الغلام أيضًا أن الأنباء قد ملأت منذ الفجر جيميرتون عن طريق البيطري وابنته.

ورأيت أنا من باب الشكليات أن أجري فأنظر في حجرة إيزابيلا ثم أعود فأؤكد صدق تلك الخادمة، وكان مستر إدجار قد جلس متهالكًا على مقعد بجوار فراش سيدتي. فلما إقترحنا أن يقوم بعض الخدم بالمطاردة، قال:

– ما الفائدة؟ لقد ذهبت بمحض إرادتها، ومن حقها أن تذهب حيث شاءت، فلا تذكروها بعد ذلك أمامي؛ لأنها لم تعد منذ الآن شقيقتي إلا بالاسم، لا لأنني تبرأت منها، بل لأنها برأت نفسها مني.

وكان هذا كل ما قاله في صدد ذلك الموضوع الخطير، وتأكدت من تحرياتي الخاصة أنه لم يبذل خلسة أي مجهود لتقصي أخبارها أو معرفة ما انتهى إليه أمرها، بل إنه كان يجهل في أي بلد استقر بها المقام.

ولم يذكرها على لسانه إلا مرة واحدة، وكان ذلك بعد بضعة أيام من هربها. إذ قال بغير مقدمات:

– اذهبي يا نللي إلى حجرة إيزابيلا، فاجمعي كل ما يخصها في حقائب مرتبة وأغلقيها جيدًا؛ كي تكوني على أهبة إرسالها إليها في دارها الجديدة عند أول فرصة تعلمين فيها عنوان تلك الدار؛ فلا أريد أن يبقى لها في داري شيء.

وفيما عدا هذا لم يشر إليها بكلمة، وكنا جميعًا حريصين على ألا نشير إليها أمامه بكلمة، أو بأي شيء يمكن أن يذكره بها.

انقطعت أخبار الهاربين شهرين، وفي خلال هذين الشهرين عانت كاثراين أسوأ صدمة، مما يسميه الأطباء حمى مخية، وتغلبت عليها. وما من أم كان من الممكن أن تمرض طفلها الوحيد بإخلاص كما مرض إدجار كاثراين. لم يكن ينام من الليل إلا غرارًا، وكان يحتمل منها كل عذاب الأعصاب المريضة والعقل المهتز الدعائم، وكان فرحه لا حد له حين بشره الطبيب بأنها جاوزت منطقة الخطر، ولبث ملازمًا لها، يتتبع باهتمام عظيم دبيب العافية في بدنها، وتداعب صدره الآمال في أن يعود عقلها إلى الاتزان، كما كان يعهدها.

وكان هناك عامل آخر من عوامل الأمل لدينا، هو أن كاثراين كانت حاملًا، فولادة الطفل كانت أكبر الظن حرية أن ترد إليها قبس السعادة الذي أطفأه غرامها المنكود.

**وينبغي أن أذكر أن إيزابيلا، بعد حوالي شهرين من هربها، بعثت رسالة قصيرة إلى شقيقها، أخبرته فيها بزواجها من هيثكليف، وكان أسلوبها باردًا جافًا. ولكن كان هناك في ذيل الرسالة وبالقلم الرصاص الباهت اعتذار رقيق كتب على عجل، ورجاء أن يعفو عنها لما سببته له من كدر، ولا سيما أنها لا يمكن أن تتدارك اليوم ما حدث.**

**وأعتقد أن سيدي لم يرد على هذه الرسالة، فقد تلقيت بعد أسبوعين خطابًا طويلًا عجبت كثيرًا لصدوره من عروس حديثة العهد بشهر العسل، وما زلت أحتفظ بهذا الخطاب تذكارًا لكاتبته المسكينة. وسأتلو عليك فقرات منه:**

**– لقد وصلت في الليلة الماضية يا عزيزتي نللي إلى مرتفعات ويذرنج، وهناك سمعت لأول مرة أن كاثراين كانت مريضة وما زالت، وأعتقد أنه ليس من المفروض أن أكتب إليها، كما أن شقيقي ليس لديه استعداد بدافع الغضب أو الأسى أن يجيب عما أرسلت إليه بشأنه، فليس أمامي سوى أن أكتب إليك أنت. وأحب أن تبلغي إدجار أنني مستعدة لأن أتنازل عن العالم وما فيه كي أرى وجهه، وأن قلبي حن إلى الجرانج بعد مغادرتي لها بأربع وعشرين ساعة، بل إن قلبي هناك الآن، ولكني لا أستطيع أن أجعل بدني يقتفي أثر قلبي، فليس لأخي وزوجته أن يتوقعا حضوري، ولكن ذلك ليس لضعف إرادتي، أو عدم توافر الرغبة والشوق إليهما. وأحب أن أسألك يا نللي سؤالًا شخصيًا، لقد نشأت مع هيثكليف، خبريني هل هو إنسان؟ وإن كان إنسانًا فهل هو مجنون؟ وإن لم يكن مجنونًا فهل هو شيطان؟ أرجو أن تخبريني عن حقيقة الرجل الذي تزوجته عندما تحضرين لزيارتي، ويجب أن يكون ذلك قريبًا، تعالي بسرعة ولكن لا تكتبي إلي. إن هذا الرجل يتجدد عجبي منه في كل**

لحظة، فيطغى العجب على ما أشعر به من الفزع والخوف. وإني أؤكد لك أن النمر أو الثعبان السام لا يمكن أن يثير من الفزع في نفسى مثل ما يثيره هذا الزوج. إنه أخبرني مساء أمس بمرض كاثراين، وأخذ يتهم شقيقي بأنه تسبب فيه، وأقسم أن أكون بديلة لإدجار في انتقامه منه، إلى أن يضع يده عليه. إني أكرهه جدًا وأشعر بالهوان وبمدى حماقتي، ولكن إياك أن تبوحي بشيء من ذلك لأحد في الجرانج، وفي الوقت نفسه اعلمي أنني سأنتظر في كل يوم حضورك بفارغ الصبر فلا تخيبي أملي.

وما إن انتهيت من قراءة هذا الخطاب، بل هذه الإستغاثة، حتى ذهبت إلى سيدي فأخبرته أن شقيقته وصلت إلى المرتفعات، وأنها أرسلت إلي خطابًا تعرب فيه عن أسفها لمرض زوجته، وعن رغبتها الشديدة في رؤيته، وأملها في أن يبعث إليها معي فورًا شيئًا يدل على صفحة عنها. فصاح:

– أصفح عنها؟ ليس عندي ما يستحق الصفح. وتستطيعين يا نللي أن تذهبي اليوم إلى المرتفعات، وأن تقولي لها إنني لست غاضبًا، ولكني آسف وحزين لأني فقدتها، ولا سيما أنني لا أستطيع أن أتوهم أنها سعيدة. ومن المفروغ منه أنني لن أذهب لزيارتها، ففراقنا أبدي. أما إذا كانت راغبة حقًا في إسداء معروف إلي، فلتقنع زوجها بمغادرة البلاد.

– هلا كتبت إليها كلمة قصيرة يا سيدي؟

– كلا؛ لأن كل اتصال بيني وبين أسرة هيثكليف مستحيل.

وقد ضايقني من مستر إدجار هذا البرود، فظللت طول الطريق من الجرانج إلى المرتفعات أعد الكلمات التي أقولها لإيزابيلا، وكيف أخفف عنها وقع

رفض أخيها أن يكتب إليها بضعة أسطر على سبيل التعزية.

وأجرؤ أن أقول إنها كانت تترقب حضوري منذ الصباح، فقد رأيتها تنتظر من الكورة العليا، وأنا مقبلة على الحديقة. فلما هززت لها رأسي تراجعت بسرعة من خوف أن يراها أحد. ودخلت أنا الدار دون أن أطرق الباب، فإذا بيت كدت أنكره لما طرأ عليه من الإهمال والكآبة. ولم تطل دهشتي إلا ريثما دخلت إيزابيلا بوجهها الجميل، فرأيت فيها صورة للإهمال أدهى وأمر، فشعرها غير مرجل، وثوبها غير مهندم، ولم يكن هندلي موجودًا، أما هيثكليف فكان جالسًا إلى مائدة يقلب بين يديه أوراقًا، فلما رآني نهض ودعاني للجلوس.

ومدت يدها خلسة لتتناول الخطاب المنتظر، فهززت لها رأسي، ولكنها لم تفهم إشارتي، فتبعتني إلى حيث وقفت أمام المشجب لأعلق قبعتي، وهمست تسألني، ففطن هيثكليف لمغزى تلك المناورة، وقال بصوت عال:

– إن كان معك شيء لإيزابيلا يا نللي، فأعطيها إياه، ولا داعي للتخفي.

– ليس معي شيء، وقد أمرني سيدي أن أخبر شقيقته ألا تتوقع منه رسالة أو زيارة في الوقت الحاضر. وهو يبعث إليها بحبه وبتمنيات السعادة، وبصفحه عما سببت له من حزن، ولكنه يرى قطع العلاقات بين الأسرتين.

فارتعدت شفتا مسز هيثكليف، وجلست على مقعدها عند النافذة، ووقف زوجها بقربي بجانب الموقد، وراح يسألني عن كاثراين وأخبار مرضها وسبب ذلك المرض، وقد ألقيت اللوم كله عليها، ولم يفتني أن أشير عليه بتجنب كل إتصال بالجرانج، وقلت له:

– لقد شفيت الآن سيدتي، بمعنى أنها نجت من الموت، ولكنها لن تعود إلى سالف شأنها. وإذا كنت تريد بها الخير فيجب أن تجنبها كل هياج عصبي، وأفضل ما تصنعه أن تغادر هذه البلاد. واعلم أن شكلها قد تغير إلى حد كبير، وأن خلقها قد تغير أكثر من شكلها، وأن الشخص الذي يعاشرها الآن بحكم الضرورة لا يحفظ لها الود، إلا على ذكرى ماضيها من الجمال والذكاء، وصداقة منه ورحمة وقيامًا بالواجب.

– ربما كان من الممكن أن سيدك لا يشعر نحوها إلا بالرحمة الإنسانية وبالواجب، ولكن أتتوهمين أنني سأترك كاثراين لواجبه وإنسانيته؟ وهل يمكن أن تقارني شعوري نحو كاثراين بشعوره نحوها؟ إنني سأجعلك قبل مغادرة هذا البيت تتعهدين بتمكيني من مقابلتها، فماذا أنت قائلة؟

– أقول يا مستر هيثكليف إنك لا ينبغي أن تفعل ذلك، وأنك لن تقابلها عن طريقي، فأول احتكاك بينك وبين سيدي سيقتلها.

– أعلم هذا، ولكن بمساعدتك يمكن تحاشي الاحتكاك، فإذا أبى هو أن يحاول التدخل فلا مناص من قتله. وليتك من الإخلاص بحيث تصدقينني القول إلى أي حد تتألم كاثراين لموته؛ فإن خوف إيلامها هو الحائل الوحيد بيني وبين القضاء على حياته. ولك الآن أن تقارني بين حبي لها وحبه لها، فلو كنت في مكانه وكان في مكاني لما فكرت مطلقًا أن أحرمها من مقابلته.

– ومع هذا تحاول أن تصيبها بنكسة بتذكيرها بوجودك بعد أن أوشكت أن تنساك؟

– وهل تظنينها أوشكت أن تنساني حقًا؟ إنك تعلمين كما أعلم يا نللي أنها

كلما فكرت في إدجار مرة فكرت في هيثكليف ألف مرة، إن آل لينتون وشقيقها هندلي ذرات من العدم بالقياس إلى مكانتي عندها. إن مستقبلي يتلخص في كلمتين هما الموت أو الجحيم؛ لأن كل حياتي بعد فقدانها جحيم، ثم إن حب إدجار لها مهما يشتد لن يبلغ في مدى ثمانين عامًا بعض حبي لها في يوم واحد. وكاثراين لها قلب يضارع في عمقه قلبي، ولأن يجتمع البحر المحيط في كوز أقرب من أن يستأثر إدجار بعواطفها، إنه ليس أعز عليها من كلبها أو حصانها إلا قليلًا.

وعندئذ لم تستطع إيزابيلا أن تحتفظ بصمتها فصاحت:

– كاثراين وإدجار متحابان أقصى ما يكون الحب، ولا يحق لإنسان أن يتحدث عنهما بهذه الصورة، ولن أحتمل أن يهان أخي وأنا ساكتة.

– إن أخاك الفاضل يحبك أنت أيضًا حبًا لا مزيد عليه، أليس كذلك؟ ولهذا فهو يتخلى عنك بغير رحمة لمن يعلم أنه يسومك العذاب.

– كلا. إنه لا يعلم، فإني لم أخبره بذلك.

– ولكنك كتبت إليه، أليس كذلك؟

– لأقول له إننا تزوجنا، وقد رأيت الخطاب بنفسك.

– ولم تكتبي شيئًا آخر؟

– كلا.

– حسنًا فعلت، وإلا كنت لقيت جزاءك الحق من يدي!

ثم التفت نحوي وقال لي:

– إنها نزقة ، لم تتحملني سوى ليلة واحدة. فقبل طلوع فجرها جعلت تبكي، وحاولت الهرب، ولكني سأعرف كيف أروضها.

– أستأذن يا سيدي في الانصراف، فإن واجباتي في التمريض والعناية بسيدي تحتم عودتي، وأحب أن أقول لك إن مسز هيثكليف نشأت نشأة كريمة، وتعودت الرعاية والخدمة والتدليل؛ لأنها فتاة وحيدة، فمن الواجب أن تأتيها بخادمة، وأن تعاملها برقة. ومهما يكن رأيك في مستر إدجار، فليس في وسعك أن تشك في قدرتها على العواطف العميقة، فلولا ذلك لما هجرت الراحة والترف وجازفت بكل شيء لتقيم في كنفك، وفي برية موحشة كهذه.

– لقد تركت هذا الذي ذكرت تحت تأثير وهم خادع صورني لديها في صورة بطل الأساطير، وعلى أمل أن تجد مني تدليلًا لا حد له. وإن مجازفتها الحمقاء لا تكسبها في نظري تقديرًا، بل تسبغ عليها صفة الرعونة؛ لأن سلوكي السابق لم يكن فيه ما يبرر أن تتوهمني رقيقًا أو مجاملًا. والحمد لله أنها بدأت الآن تكتشف الحقيقة الواضحة، وهي أني لا أحبها ولم أحبها قط. لقد بدأت تفهم ذلك بعد أن كدت أيأس من قدرتي على تفهيمها، ومع ذلك فهو فهم ناقص، فبالأمس فقط قالت إنها أمست تكرهني، ولكني ما كدت أتركها في غرفتها وحدها إلى نصف الليل، حتى جاءت تطرق بابي متنهدة مستعطفة، ولست أبالي أن يعلم الجميع من خدم ومن سادة أن العواطف بيننا من جانب واحد فقط، فإني لا أخدعها ولا أخدع الناس في هوانها علي وقسوتي عليها. وقد بينت لها ذلك منذ اللحظة الأولى، فعندما ركبت لتهرب معي، وكانت تحمل كلبها الصغير المدلل، شنقته أمام عينها بمنديلها. فلما

توسلت إلى أن أبقي عليه، قلت لها إنني لن أتراجع عن شنق كل شخص ينتمي إليها ما عدا واحدًا، وظنت المجنونة أنني أعنيها، وأن ذلك غيرة مني عليها، ورغبة في الاستئثار بحبها وحدي، ففرحت ولم تنفرها مني فظاظتي، بل أصبحت تستمرئها وتزيد مع الفظاظة هيامًا وتعلقًا. فهل هناك ما هو أعظم من هذه البلاهة؟ فأرجو يا نللي أن تقولي لسيدك إني لا يمكن أن أحب أخته أو أن أستلطفها، وإنني لم أر في حياتي مخلوقًا أهون وأتفه منها، فهي سبة حتى لاسم لينتون. لقد أقدمت في سبيل تنفيرها مني على أعمال دنيئة سافلة منافية لكل مبادىء التربة والأخلاق كما تفهمها الفتيات المهذبات، مما يقشعر له بدني كلما تذكرته. ولكنها قابلت كل ذلك بالإذعان، بل بالمبادرة إلى الاستجابة والامتنان؛ لأنها توهمت أن ذلك هو طبعي الحقيقي، مبالغة منها في الحصول على رضاي. ولكن خبريه أيضًا أنني ألتزم حدود القانون الذي أعرفه جيدًا بحيث لا أتيح له مبررًا لطلب التفريق بيننا؛ لأني أريد أن أستبقيها لأعذبها، وليعلم أنها لن تتقبل إقدام أحد على محاولة إبعادها عني، لأن كل شيء مقبول عندها في سبيل معاشرتي.

– إن هذا يا مستر هيثكليف حديث رجل مجنون، والراجح أن زوجتك مقتنعة بجنونك، وهذا هو تفسير تحملها ما تصبه عليها.

فتألقت عينا إيزابيلا بحقد وشراسة وقالت:

– لا تصدقي يا نللي كلمة واحدة مما يقول إنه كذاب ، إنه وحش وليس إنسانًا. قال لي من قبل إن في استطاعتي أن أتركه، وأقدمت على المحاولة. ولكني لا أجسر اليوم أن أكررها بعد الذي لقيته عقابًا عليها، ولكني أرجو منك يا نللي أن تتعهدي لي بألا تنقلي حرفًا من هذا الحديث البشع إلى أخي

**أو إلى كاثراين، فكل مراده يا نللي أن يحطم قلب إدجار غيظًا وإذلالًا ويأسًا، وهو يزعم أنه لم يتزوجني إلا ليجعلني مطية للتسلط عليه، ولكني لن أمكنه من ذلك، لن أمكنه من القضاء على أخي عن طريقي، الموت أهون عندي من هذا. وكل أملي أن ينسى حيطته الشيطانية وهو يعذبني، فيتورط ذات مرة أو يندفع فيقتلني، فلذتي الوحيدة الآن أن أموت أو أراه ميتًا الآن.**

**– يكفي هذا الآن يا زوجتي. وعليك يا نللي أن تتذكري ما قالته أمامك إذا دعيت لأداء الشهادة أمام المحكمة. وانظري إلى سحنتها، إنها تعجبني جدًا هكذا؛ لأنها تصور غاية الغيظ والحقد، فتعكس مدى ما وصلت إليه من نجاح في تنغيص حياتها. يا إيزابيلا، إنك في هذه الحالة لا يمكن أن تتركي لنفسك، وبوصفي حاميك الشرعي، سأقوم بالواجب البغيض على نفسي وألازمك، أي أجعلك تلازمينني. هيا اصعدي إلى الطابق العلوي الآن؛ لأن عندي ما أقوله لنللي سرًا.**

**ولم تتحرك من مكانها، فقبض على رقبتها من الخلف وعلى كتفها، ثم رفعها في الهواء وقذف بها إلى السلم وهو يقول: «أتجهلين طريق السلم حتى هذه السن يا طفلتي المدللة؟ هذا هو الطريق».**

**وصعدت المسكينة وهي تنشج بالبكاء، فلم أطق صبرًا وتناولت قبعتي وأنا أقول: «أتدري معنى كلمة الرحمة؟ ألم تشعر بها يومًا من الأيام؟!».**

**– ضعي هذه القبعة جانبًا، لم يحن الوقت بعد لخروجك. فإني إما أن أقنعك وإما أن أكرهك على مساعدتي في الوصول إلى مقابلة كاثراين وبغير إمهال. وأقسم أني لا أضمر سوءًا، ولا أريد أن أتحرش بإدجار، وإنما مرادي فقط أن**

أسمع من لسانها كيف هي الآن، ولماذا مرضت وتعرضت للموت. ثم أسألها إن كان في استطاعتي أن أقوم لها بأي خدمة. لقد قضيت ليلة أمس، عقب وصولي إلى هنا، ست ساعات في حديقة الجرانج. وسأذهب إلى هناك أيضًا الليلة، وسأظل أحوم حول المكان كل ليلة وكل نهار إلى أن أجد وسيلة للدخول. وإذا التقى بي إدجار لينتون مصادفة فلن أتردد في أن أصرعه، وأكيل له من اللكمات ما يكفل غيابه عن صوابه طيلة مكثي مع كاثراين. وقد اشتريت مسدسًا أهدد به الخدم إن اعترضوا طريقي. ولكن ألا ترين يا نللي أن من الحكمة تدبير مقابلة بحيث لا يحدث احتكاك بيني وبين الخدم أو سيدهم؟ في استطاعتك أن تفعلي ذلك بسهولة فسأنبهك لوجودي، وعندئذ تدخلينني من غير أن يتنبه أحد لدخولي، بحيث تكون كاثراين بمفردها في حجرتها، وعليك بعدئذ أن تقفي للحراسة إلى أن انصرف. ويجب

أن يستريح ضميرك لهذا الاقتراح، لأنه سيمنع حدوث متاعب لكثيرين.

فاحتججت لما في ذلك العمل من خيانة لمولاي، وقسوة وأنانية واستهانة بصحة مسز لينتون، مما قد يعرضها لنكسة ولو بمفاجأة السرور لها من حيث لا تتوقع، وهددته بأن أبلغ مولاي ليحتاط للأمر. فصاح هيثكليف:

في هذه الحالة سأتخذ ما أريد يا امرأة، وسأستبقيك هنا في مرتفعات ويذرنج إلى الصباح ريثما أنفذ خطتي ليلًا. وما أحمقك إذ تزعمين أن كاثراين لا تتحمل رؤيتي، وأن مفاجأتي قد تقتلها؛ لهذا يا امرأة رغبت إليك في التمهيد لديها. واعلمي أن رؤيتي هي التي ستعيد إليها العافية. اختاري لنفسك: إما الاعتقال هنا ويتحمل ضميرك مسؤولية عدم منع الشر، مع أنك الآن تستطيعين ذلك، وإما الاشتراك معي في خطتي التي لا تضر أحدًا.

وعارضته خمسين مرة، ولكنه في النهاية انتزع مني الموافقة، وحملت رسالة منه إلى سيدتي، ووعدت بأن أخبره عند أول مرة يغيب فيها مولاي عن البيت وعن موعد عودته، وأن أساعده في التسلل خلسة داخلًا وخارجًا.

وقلت لكاثراين وقد انتهزت فرصة خلوة معها بعد عودتي: «هذا خطاب لك يا مسز لينتون. ينبغي أن تقرأيه فورًا لأنه يحتاج إلى رد».

– فضي ختمه واقرأيه، فالضعف يزيغ بصري ويدي لا تقوى على رفعه.

– هل من الحكمة أن أقرأه أنا يا سيدتي؟ إنه من مستر هيثكليف.

فبدت على وجهها ومضة تدل على محاولة التذكر وترتيب الأفكار، وتناولت الخطاب فرفعته بلهفة أمام عينيها، حتى إذا وقع نظرها على الإمضاء تنهدت وضمته إلى صدرها، ونظرت إلي في توسل صامت تستعين بي على إدراك فحواه، فقلت: «إنه راغب في مقابلتك، وهو الآن في الحديقة، فبماذا أجيبه؟».

وفي هذه اللحظة رأيتها تنحني إلى الأمام وتصغي وقد أمسكت أنفاسها، مع أني لم أكن قد سمعت شيئًا. وفي اللحظة التالية ترامى إلى أذني وقع أقدام تعبر البهو، فعلمت أن خلو الدار من سيدها قد أغرى هيثكليف بالدخول دون انتظار لإشارتي. ورأيت اللهفة والإشراق يرتسمان على كيانها كله وهي تتطلع إلى باب حجرتها المغلق، وما إن فتحه حتى اخترق الحجرة في خطوتين ثم تلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره.

وظل خمس دقائق كاملة لا ينطق بكلمة، ولا يطلقها من بين أحضانه؛

لأنه كان يقبلها أينما وقعت شفتاه. وما أظن أنه منحها طول حياته قبلات بهذا العدد. ولكني أقول الحق حين أقرر أن سيدتي هي التي قبلته أولًا، وأقر الحق أيضًا أن اضطرابه وانفعاله كان أقوى من احتماله، حتى إنه لم يجد القدرة أن ينظر في وجهها؛ لأنه شعر بالحقيقة لأول وهلة، وهي أن داءها لا شفاء منه. وكانت أول كلماته بعد ذلك: «أي حياتي كاثراين كيف أحتمل هذا؟» ولم يحاول أن يخفي في لهجته نبرة اليأس، وهو يحملق فيها حملقة لولا الجزع الذي حر عينيه لفاضتا بالدمع. وأراحت كاثراين ظهرها ثم قالت:

- والآن انظر ماذا صنعت أنت وإدجار، لقد حطمتما قلبي يا هيثكليف، ثم تأتيان كلاكما فتتباكيان كأنكما أنتما المجني عليكما، كلا، لن أشفق عليك أو أرثي لك. لقد قتلتني، أما تستحي؟! كم عام تقدر أن تعيش بعد موتي؟

وكان هيثكليف قد ركع على إحدى ركبتيه ليعانقها، فلما قالت ذلك هم بأن ينهض واقفًا، فأنشبت يدها في شعره وأبقته راكعًا ثم استطردت بمرارة:

- ليتني أستطيع أن أمسكك هكذا إلى أن نموت كلانا معًا، ولن أبالي كم تعاني، وماذا يعنيني من عذابك؟ ولماذا لا تتعذب أنت أيضًا؟ أتراك ستنساني؟ هل ستكون سعيدًا يومًا حين يواريني بطن الأرض؟ ألست ستقول بعد عشرين عامًا: «هذا قبر كاثراين إيرنشو. أحببتها منذ زمن طويل، وآلمني فقدها، ولكن انتهى الآن كل هذا. فكم أحببت بعدها وأحببت، وأطفالي أحب إلي مما كانت، وحين أكون لن يسرني أني صائر إليها»؟ أهذا ما سوف تقول يا هيثكليف؟!

فصرخ وهو يجذب رأسه بعنف فيحررها من يدها ويصرف على أسنانه:

– لا تمعني في تعذيبي إلى أن أجن كما جننت!

ورأيت في يدها وهي تحملق في وجهه خصلة من شعره، جمعت عليها يدها في حرص الشحيح على أكرم ماله. ورأيت على ذراعها أربعة خطوط زرقاء من أثر أصابعه حين تشبث بها في عنف لينهض واقفًا، ثم استطرد بعد لحظة:

– هل أصابك مس من الشيطان حتى تكلميني بهذه الطريقة وأنت على شفا الموت؟ أتقدرين أن هذه الكلمات ستبقى محفورة في ذاكرتي تأكل فيها بعد أن تفارقيني؟ وأنت تعلمين كم أنت كاذبة حين تتهميني بقتلك، وتعلمين أيضًا يا كاثراين أنني لا أنساك أو أنسى وجودى، ألا يكفيك في أنانيتك الجهنمية أنني سأصلى عذاب الجحيم هنا حين تشملك أنت الراحة الأبدية؟

– راحة؟ لن تكون لي هناك راحة إلى أن تصير معي، وأنا لا أرجو لك عذابًا أشد من عذابي يا هثكليف. كل ما هناك أنني لا أحتمل أن نفترق، وكلما عذبتك كلمة من كلماتي بعد وفاتي، تذكر دائمًا أنني أشعر بذلك العذاب نفسه وأنا تحت الثرى، فاصفح عني وتعال اركع هنا ثانية.فمال هيثكليف فوق ظهر مقعدها بحيث لا ترى وجهه وما ارتسم عليه من أسي. فلما التفتت لتراه ابتعد بسرعة، ووقف يحملق في نار المدفأة وظهره إليها، فتابعته بنظراتها. وبعد برهة قالت في عتاب حزين:

– ها أنت ترين يا نللي أنه لا يريد أن يلين لي لحظة كي يعوقني عن قبري، هكذا إذن أحبني ولكن لا بأس، ليس هذا هيثكليف الذي أعرفه، فهيثكليف الذي أعرفه سأظل أحبه، وسآخذه معي لأنه في روحي. لا يضايقني شيء الآن

إلا سجني هذا. لا تبكي يا نللي، إنك تظنين أنك أوفر حظًا مني لأنك في كمال الصحة والعافية، ولكن اطمئني فسيتغير هذا كله بعد قليل، وسأكون أنا التي تحزن عليك وترثي لك. عزيزي هيثكليف، ليس هذا أوان الخصام تعال إلي يا هيثكليف.

وفي لهفتها وشوقها نهضت معتمدة على ذراع مقعدها، فالتفت إليها وقد انفجرت أمارات اليأس على وجهه، وعيناه الواسعتان قد خضلهما الدمع تحملقان فيها بوحشية، وصدره العالي يرتفع ويهبط. ووقف الاثنان كلٌ في مكانه برهة، كأنهما يخشيان عواقب الإقدام، ثم قفزت كاثراين فتلقفها، والتحما في عناق خلت أن سيدتي لن تنجو منه حية، وأدركت على الفور أنها فقدت رشدها، ورأيته يرتمي في أقرب مقعد، فلما اقتربت لأرى هل أغمي عليها زمجر الكلب المسعور، فانتحيت جانبًا ولذت بالصمت متوجسة.

وبدرت من كاثراين حركة سرت عني بعض قلقي، إذ رفعت يدها لتجذب إليها عنقه، ولتضغط بخدها على خده وهو يعانقها. أما هو فأمطرها بوابل من القبلات المحمومة، وراح يناجيها كمن فقد صوابه:

– لقد علمتني الآن إلى أي حد بلغت قسوتك وغدرك، لماذا احتقرتني؟ لماذا غدرت بقلبك يا كاثي، لن أسري عنك بكلمة واحدة، وأنت أهل لهذا لأنك قتلت نفسك. أجل، لك أن تقبليني وأن تبكي ما شاء لك البكاء، وأن تفجري مني القبلات والدموع، فقبلاتي ودموعي ستكون آلات عذابك الأبدي. لقد أحببتني، فبأي حق تخليت عني؟ في سبيل نزوة طائشة شعرت بها نحو إدجار لينتون؟ لم تكن ألوان الشقاء أو الفقر أو الهوان أو الموت أو أي شيء مما يمكن أن يصبه الله أو الشيطان بمستطيعة أن تفرق بيننا، ففرقت أنت بيننا

محض إرادتك. كلا، لم أحطم قلبك، بل أنت التي حطمته، وبتحطيمه حطمت قلبي أيضًا.

فنشجت كاثراين بالبكاء وقالت:

– دعني وحدي! إن كنت قد أخطأت فها أنذا أموت جزاء خطيئتي، أليس هذا كافيًا؟ وأنت أيضًا هجرتني، ولكني أصفح عنك فاصفح عني.

– ما أصعب الصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين الغائرتين الخابيتين، وأتحسس هاتين اليدين الهزيلتين. قبليني أيضًا، قبليني حتى لا أرى عينيك. لقد غفرت لك، أجل إني أحب قاتلي، ولكن قاتلك أنت كيف أحبه؟

ثم سكتا وسكنا، وقد تلاصق وجهاهما، واغتسل كل وجه بدموع الوجه الآخر، أجل كان هيثكليف يبكي مدرارًا لأول مرة في حياته.

ولما طال سكونهما، بدأت أقلق لأن الوقت مضى بسرعة، فقلت:

– انتهى الوقت، سيكون سيدي هنا في مدى نصف ساعة.

فزمجر هيثكليف ولعنني، واشتدت ضمته لكاثراين التي لم تبدِ حراكًا. وبعد قليل رأيت كوكبة من الخدم آتين من الضيعة على الطريق، فعلمت أن سيدي ليس بعيدًا عنهم، ثم فتح البوابة بنفسه وأقبل نحو البيت في خطوة مسترخية؛ لأن جو ذلك النهار كان دافئًا، فما تبينته حتى فزعت وصحت بهيثكليف:

– أسرع بربك! تسلل من الباب الأمامي فلن تصادف هناك أحدًا، واختبئ بين

الأشجار إلى أن تسنح لك فرصة فتخرج من الحديقة.

فقال هيثكليف وهو يحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها:

– ينبغي أن أذهب الآن يا كاثي، ولكن إن عشت سأراك قبل أن ترقدي، لن أبعد عن نافذتك أكثر من خمس خطوات.

فتعلقت به وشدت قبضتها حوله بأقصى جهدها الواهن وهي تقول:

– لن تخرج، لن تذهب!

– ساعة واحدة فقط يا حبيبتي.

فازداد تشبثها به في فزع جنوني، وجعلت تصرخ:

– كلا لا تذهب! إنه اللقاء الأخير لا تحرمني منه! ماذا يستطيع لنا إدجار في هذه الساعة؟ إني أموت يا هيثكليف.

فاستسلم هيثكليف يائسًا، وألقى بنفسه حيث كان وهو يقول:

– يا للمجنونة هذا هو، صه يا حبيبتي اسكتي يا كاثراين، سأبقى، ولئن أطلق علي الرصاص وأنا في موضعي هذا لأموتن وأنا أباركه.

واشتد عناقهما أكثر من ذي قبل، وسمعت سيدي يصعد السلالم، فأخذ العرق البارد يتصبب من جبيني، وصحت بهيثكليف:

– أتنوي أن تصغي لهذيانها؟ إنها لا تدري ما تقول، فهل تريد أن تقوض حياتها لأنها لا تملك من الفطنة ما تسوس به نفسها؟ انهض! إن هذا أشأم

عمل أقدمت عليه في حياتك، ففيه القضاء علينا جميعًا.

وفي هذه اللحظة سرني أن أرى ذراعيها تتهاويان عن عنقه ورأسها يميل إلى الخلف، فظننتها غشي عليها أو ماتت، وقلت في نفسي ليتها ماتت حقًا حتى لا تسبب مزيدًا من الكوارث لكل من حولها. وإذا بالباب يفتح ويبرز منه إدجار، فيثب على ذلك الزائر المتطفل وقد شحب وجهه دهشة وغضبًا، ولم أدرِ ماذا كان سيصنع بالضبط؛ لأن الآخر عاجله فألقى بين ذراعيه زوجته المغشى عليها وهو يقول: «انظر أسعفها أولًا ثم خاطبني بعد ذلك».

وغادر هيثكليف الحجرة فجلس في حجرة الجلوس، وانصرفت أنا وإدجار إلى إسعافها حتى أفاقت وأخذت تئن وتتنهد، غير أنها لم تسترد رشدها.

ونسي إدجار في تيار قلقه عليها أمر عدوه البغيض، أما أنا فلا؛ لأني بادرت في أول فرصة فخرجت إليه أناشده أن ينصرف، مؤكدة له أن حالتها تحسنت، وأنني سآتيه بأخبارها في الصباح. وقال لي أخيرًا:

– ليس في نيتي أن أرفض الخروج، ولكني سأبقى في الحديقة طول الليل، وأوصيك يا نللي أن تبري بوعدك فتأتي إلي في الصباح، وستجديني تحت أشجار الحور، وإلا أتيت سواء أكان إدجار هنا أم لا.

قبيل متصف تلك الليلة، ولدت كاثراين الصغيرة، الموجودة الآن في مرتفعات ويذرنج، ولدت في الشهر السابع من أشهر الحمل، وبعد ساعتين من ولادتها ماتت الأم. ماتت ولم ينفسح لها الوقت لحظة واحدة تفتقد فيها هيثكليف أو تعرف فيها إدجار.

ومصاب إدجار من الفداحة بحيث لا يجدي فيه الوصف، وإنما يقوم دليلًا عليه سلوك حياته بعد تلك الليلة. وفي اعتقادي أن عاملًا إضافيًا في ذلك الحزن هو أن يكون الجنين فتاة لا فتى، مسكينة حقًا هذه الفتاة، لم يفرح لها قلب إنسان، ولم يكترث لها قلب مخلوق، فلو ماتت بعيد ولادتها بساعات لما وجدت من يحزن عليها أو يقيم لذلك وزنًا!

وأمر إدجار فوسدت الفقيدة على فراشها، ووضع رأسه جوار رأسها وأغمض عينيه. فكانت العين تقع على وجهين تماثل فيهما الشحوب والجمال، غير أن وجه الميتة كان يفيض سلامًا، أما وجهه هو فكان ينطق بالجزع.

ولما خيل إلي أن سيدي قد استغرق في النوم بعيد شروق الشمس، تسللت خارجة من الدار إلى هواء الصبح المنعش، وهناك في البستان وجدت هيثكليف متكئًا إلى دوحة عتيقة، وقد تلبد شعره بقطرات الندى. ويدو أنه سلخ في وقفته هذه زمنًا طويلًا، فرفع إليّ عينيه وهو يقول:

– ماتت، أعلم هذا، ولم أكن أنتظرك لأعرفه. أبعدي منديلك هذا ولا تبكي أمامي، لعنة الله عليكم أجمعين! فليست بها حاجة إلى دموعكم.

– أجل ماتت، ماتت في هدوء ولم تتعذب لحظة واحدة، تنهدت ثم استرخت كما يفعل الطفل إذ يتنبه من نعاسه لحظة، ثم يغط في النوم.

– ولكن، ألم يجرِ ذكري على لسانها؟

– إنها لم تتنبه من إغمائها ولم تعرف أحدًا منذ فارقتها، وأسلمت الروح وعلى

ثغرها ابتسامة حلوة، لقد اختتمت حياتها في دعة، وأسأل الله أن تقوم في العالم الآخر بمثل ذلك السلام.

فصرخ وهو يضرب الأرض بقدمه، وقد نفرت عروقه كالثور الهائج:

– بل فلتقم بالعذاب واللعنات، لقد ظلت كاذبة حتى النهاية، أين هي؟ ليست هناك في السماء، ولم يبتلعها العدم، فأين هي؟ اسمعي أيتها السماء ليست لي إلا أمنية واحدة: لا هدأت كاثراين إيرنشو ما بقيت أنا حيًا، تزعمين أنني قتلتك يا كاثراين؟ فلتطف روحك حولي كما تطوف روح المقتول حول قاتله، ولتقض مضجعي ليلًا ونهارًا، كوني معي دائمًا في أي صورة تشائين، ادفعي بي إلى الجنون، ولكن لا تتركيني في الهاوية، هاوية هذا العالم حيث أفتقدك فلا أجدك. إلهي لماذا فعلت هذا؟ أما علمت أنني لا أستطيع أن أعيش بغير حياتي؟ أما علمت أنني لا أستطيع أن أعيش بغير روحي؟

وأخذ ينطح جذع الشجرة الضخمة بجبهته، وعيناه الواسعتان تدوران في محجريهما، ويطلق خوارًا ليس كأصوات الآدميين.

ولم يطاوعني قلبي أن أتركه في أساه وحيدًا، فوقفت صامتة وأنا أشعر بالرثاء له، ولكنه ما إن تنبه لوجودي ورآني أرقبه حتى زأر يأمرني بالانصراف، فانصرفت وأنا مطمئنة إلى أن التسرية عنه شيء ليس في طاقتي مهما فعلت.وقد دعي مستر هندلي إيرنشو شقيق الفقيدة بطبيعة الحال إلى حضور الجنازة، وإلى شهود مواراة شقيقته القبر، غير أنه لم يحضر، ولم يعتذر.

وبذلك لم يصحب جدث كاثراين سوى زوجها والخدم والمستأجرين، أما إيزابيلا فلم تدع. وقد أدهش الفلاحين ألا تدفن في الكنيسة مع آل لينتون،

ولا في مقابر آل إيرنشو خارجها، بل على سفح التل في العراء، حيث غطت قبرها الأزهار البرية. وهناك أيضًا رقد زوجها بجوارها حين حانت منيته.

# المالك المنتظر

تغيرت أحوال الجو بعد وفاة سيدتي، فكنا لا نكاد تصدق أننا سلخنا من الصيف ثلاثة أسابيع؛ لأن الرياح والبرد كانا أشبه بصميم الشتاء.وفي يوم جمعة، وقد اعتكف سيدي في حجرته مريضًا مهدمًا، كنت جالسة وحدي في حجرة الجلوس بعد أن قلبتها إلى حجرة أطفال، وعلى ركبتي الطفلة الصغيرة أهدهدها، فسمعت صوت ضحك، ثم انفتح الباب ودخل شخص حسبته إحدى الخادمات فزجرتها صائحة: «ما هذا الضحك؟».

– عفوك ولكني أعلم أن إدجار في فراشه، ولم أستطع مغالبة نفسي، ولا سيما أني ظللت أجري طول المسافة من مرتفعات ويذرنج إلى هنا.

وكانت المتحدثة مسز هيثكليف، ثم استأنفت الكلام، فقالت:

– لا تنزعجي، سأشرح لك كل شيء بعد قليل. ولكن اذهبي حالًا ومري بإعداد العربة لتحملني إلى جيميرتون، وكلفي إحدى الخادمات بإحضار شيء من ملابسي.

وأسرعت أنفض عن ثيابها الثلج والماء، وأخلع حذاءها المبتل لتصطلي أمام النار، فقد كان ثوبها الحريري خفيفًا، ونعلها رقيقًا، ولا شك أن البرد نال منها. أضف إلى هذا أن جرحًا تحت أذنها غائرًا لولا شدة البرد لتصبب منه الدم. وأما وجهها فكانت تغطيه الكدمات والخدوش، وأما جسدها كله فهو بقية أعفتها يد الهزال. ومن الطبيعي أنني حاولت إقناعها بالانتظار إلى الصباح، ولكنها تشبثت ولو ذهبت سائرة على قدميها، وما زالت بي حتى

نفذت أمرها، وسمعت السائق يتعهد بإعداد العربة، وعندئذ بدأت الحديث قائلة:

– لا تظني أني شامتة في كاثراين لأنني ضحكت وأنا داخلة، فقد بكيتها كثيرًا، وأسفت لافتراقنا وهي غاضبة مني، وفي الوقت نفسه كان حزنه الشديد عليها يدعوني إلى الإعراض عن مشاركته في شعوره. أعطيني قضيب النار، فإني أريد أن أحطم آخر شيء أحتفظ به من ذلك الوحش وهو خاتم الخطبة. وأريد أن أحرقه بالنار.

وقرنت القول بالفعل في عصبية صبيانية:

– عليه أن يشتري غيره إن أدركني، فلا أستبعد أن يحضر ليبحث عني هناك كي يغيظ إدجار ويثيره، ولذلك لا أجسر على البقاء. ومن جهة أخرى لم يكن أخي آية في الحنو، فلا أريد أن أستنجد به أو أسبب له المتاعب، ولولا الضرورة ما لجأت إلى هنا الآن.

– خبريني بما حدث في ترتيب، واشربي الشاي. وكفي عن هذا الضحك الذي لا يتفق وظروف هذه الدار.

– أبعدى هذه الطفلة فإن بكاءها يثيرني.

فصدعت بأمرها كي تهدأ، ثم سألتها عن علة هربها وعن مقصدها، فقالت:

– كان ينبغي أن أبقى لأرفه عن إدجار وأعني بالطفلة، ولأن الجرانج بيتي الشرعي. ولكن الوحش لن يتركني أبقى وأهدأ وأسترد صحتي وراحة قلبي، لقد قضى على حبي قضاء تامًا، فأراح بذلك قلبي الذي لم يعد ينازعني إليه، غير

أني مازلت أذكر كيف أحببته يومًا، ومع ذلك أعتقد أن كاثراين كانت على درجة هائلة من الشذوذ الشنيع في الذوق، حتى إنها أنزلته من نفسها تلك المنزلة الغالية، رغم معرفتها بحقيقته تمام العرفة.

– إنه إنسان على كل حال، وهناك من هم أسوأ منه.

– كلا، إنه ليس إنسانًا، ولا يستحق الشفقة. فقد أعطته قلبي فجعل يخنقه حتى مات ثم رده إلي. لقد سألتني ما الذي جعلني أجمع أمري على الهرب أخيرًا؛ وسبب ذلك أنه نسي تحت تأثير فجيعته ما أخذ به نفسه من الحذر في تعذيبي، لقد هم أخيرًا بأن يقتلني.

وجعلت تتلفت حولها، فلما رأت الحوذي قد أتم إعداد المركبة نهشت وتدثرت بشال كبير، من جملة ثياها الباقية في الدار، ثم وقفت فوق مقعد فقبلت صورة إدجار وصورة كاثراين، ثم قبلتني أنا أيضًا وركبت العربة، وصحبها في هذه المرة كلبها الصغير فاني، الذي فرح فرحًا جنونيًا باستعادة سيدته.

ثم انطلقت بها العربة انطلاقًا أبديًا، وإن كانت الرسائل قد اتصلت بعد ذلك بينها وبين مولاي الذي كتم عني مكانها، وإن كنت أعتقد أنه في الجنوب بالقرب من لندن، حيث انزوت ووضعت بعد هربها ببضعة أشهر مولودًا ذكرًا هزيلًا، سمته باسمم أبيها «لينتون».

وحدث أن قابلني هيثكليف ذات يوم في القرية، وسألني عن مكانها، فلما لم أبح له به لأني كنت أجهله، هز كتفيه وقال:

– ليس لهذا أهمية على كل حال، فالمهم ألا تجيء إلى أخيها.

ولكنه لم يسكت، بل استأنف أبحاثه، وإستطاع برشوة الخدم أن يعرف عنوانها، لكنه لم يقدم على اللحاق بها، وهو تعفف أحسبها تشكره له بينها وبين نفسها. وكان كثيرًا ما يسأل عن الطفل كلما رآني، فلما عرف أنها سمته لينتون قال: «أتراهم بهذا يريدون أن أكرهه أيضًا؟!».

– بل لا أظنهم يريدون أن تعرف عنه شيئًا مطلقًا.

– ولكني سآخذه حينما أريد ذلك، ولهم أن يوقنوا من هذا.

ومن حسن حظ والدته أنها ماتت قبل أن تحين هذه الساعة، بعد وفاة كاثراين بثلاثة عشر عامًا، حينما كان لينتون في الثانية عشرة أو أكثر قليلًا.

وأعود بك إلى اليوم التالى لزيارة إيزابيلا الأخيرة، وهي هاربة. في ذلك اليوم كانت حالة مولاي غاية في السوء، لا تسمح بأي حديث، ولما وجدت منه استعدادًا للإصغاء بعد ذلك أخبرته، فرأيت عليه أمارات المرور لفراق شقيقته لزوجها، فقد كان يبغض الزوج بغضًا لم أكن أقدر أن دماثته تسمح به.

والواقع أن صدمته وما اكتنفها من أحزان ومنغصات جعلته يحبس نفسه في بيته حتى لا يتوجه إلى مكان قد يسمع فيه ذكرى هيثكليف؛ ولهذا السبب تخلى عن وظيفته القضائية. بل انقطع عن التردد على الكنيسة وعلى القرية، ورسم لنفسه حدودًا لا يتجاوزها هي حدود حديقته وضيعته، لا يتعداها إلا لجولة بين الأحراش، أو لزيارة قبر زوجته في المساء أو في الصباح الباكر، قبل أن يخرج الناس من دورهم. غير أنه كان بحكم طبعه ميالًا للإذعان

والاستسلام، ولم يكن يتردد في استعادة ذكرى زوجته بكل محبة، وعلى أمل سعادتها في الدار الآخرة، وشتان ذلك ومحبة هيثكليف التي جعلته يكابر القدر ويتحدي روحها أن تحوم حوله، فهو لا يؤمن كثيرًا بعالم آخر.

ومن جهة أخرى، انتهى به الاستسلام إلى العناية بطفلته الصغيرة، فسرعان ما حلت في قلبه محل والدتها، وسماها باسمها. ولكنه لم يكن يدعوها مطلقًا بذلك الإسم كاملًا، بل كان يختصره إلى كاثي، مع أنه لم يكن يدعو أمها مطلقًا بذلك الاسم المختصر، ربما لأن هيثكليف كان يناديها به.

ولست أدري لماذا كنت أقارن في جميع المناسبات بين إدجار لينتون وهندلي إيرنشو، وكيف جعلت الأحزان والترمل من الرجلين نقيضين برغم تماثل ظروفهما، فإدجار أصبح رجلا تقيًا فاضلًا مسالمًا منزويًا، وهندلي أصبح عربيدًا سكيرًا ماجنًا مقامرًا شريرًا.

والحق أن نهاية هندلي إيرنشو جاءت كما يتوقع الجميع، ولم تستغرق بعد وفاة شقيقته أكثر من ستة أشهر، ولم نكن نعلم شيئًا من ظروفه. وكل ما وصل إلى علمي عرفته حين توجهت للاشتراك في معدات الجنازة، بعد أن حضر الطبيب كينيث وأبلغ نبأ الوفاة إلى سيدي.

ولما وصلت إلى المرتفعات، أوضحت أنني جئت للإشراف على معدات الدفن. وقد أظهر جوزيف حزنًا مناسبًا للموقف، وأبدى ارتياحه لحضوري. أما هيثكليف فقال إنه لا يرى لزومًا لوجودي، ولكن لا مانع عنده من إشرافي على جميع الترتيبات ما دامت هذه رغبتي، ثم أردف بعد ذلك قائلًا:

– الأصول والواجب أن يدفن جثمان هذا الأحمق عند مفترق الطرق، وغير

احتفال إطلاقًا. لقد حدث أن تركته أمس بعد الظهر عشر دقائق. وفي هذه الفترة أغلق بابي المنزل حتى لا أدخل، ثم قضى الليل كله يعب الخمر إلى أن قتل نفسه بإصرار. وحطمنا الأبواب في الصباح لما سمعناه يرسل شخيرًا كصهيل الحصان. فوجدناه ملقى على الأرض فاقد الوعي، ولم يوقظه التدليك أو الصفع أو الماء البارد، فأرسلت في طلب كينيث، وجاء ليجد تلك الدابة وقد تحولت إلى جثة، وجده قد مات وشبع موتًا.

ولكني أصررت على أن تكون جنازته لائقة بمكانه، فقال هيثكليف:

– لك أن تفعلي هذا، ولا مانع عندي فيه، ولكن اعلمي في الوقت نفسه أن نفقات الجنازة كلها ستدفع من جيبي.

وكان مظهره العام يدل على عدم المبالاة، فلا هو بالمسرور ولا هو بالمحزون، ولكن عندما حمل الحاملون النعش من البيت، رأيته ينافق فيرتدي ثياب الحداد، ثم يحمل هيرتون اليتيم فيضعه فوق المائدة ويقول له:

– الآن يا صغيري أصبحت لي وحدي!

وكانت الشمائة تلوح على نبراته، بيد أن الصغير المسكين لم يفقه شيئًا، وكان يحب هيثكليف الذي علمه أفانين السباب والتحرش بأبيه وبالناس، فسرته كلمات هيثكليف، وراح يعبث بشعره ويربت على خده. فتدخلت قائلة:

– يجب أن يذهب الغلام معي إلى الجراج يا سيدي، فهو آخر شيء في الدنيا يمكن أن يخلص لك من دون الناس.

فنظر إليّ مليًا ثم قال: «هل قال إدجار لينتون هذا؟»

– طبعًا، وقد أمرني أن آخذه.

فابتسم الوغد وقال:

– لن نناقش هذا الموضوع الآن. ولكن عندي على كل حال رغبة في أن أربي غلامًا صغيرًا على هواي، بشرط أن يكون وثيق الصلة بسيدك، فإن أراد أن يأخذ هذا الطفل فسأضطر أن أحل محله ابني من شقيقته، فأبلغيه هذا.

وكان هذا الإنذار كافيًا لتقييد أيدينا، فقد نقلته إلى سيدي عقب عودتي، فلم يفاتحني في الموضوع بعدها.

وهكذا أصبح الضيف النزيل في ويذرنج هو السيد الوحيد المطلق السلطان؛ لأنه استطاع أن يثبت للمحامي الذي ينوب عن مستر لينتون أن هندلي إيرنشو كان قد رهن كل شبر من أملاكه للحصول على نقود يرضي بها جنونه بالقمار، وأن هيثكليف نفسه هو الذي رهن الأرض والدار.

وبذلك أيضًا أصبح هيرتون إيرنشو –الذي كان ينبغي أن يكون الآن كبير أعيان الإقليم– عالة على عدو والده اللدود، وأمسى يعيش في بيته كما رأيته كبعض الخدم، إلا أنه لا يتمتع مثلهم بميزة الأجر، ولا قدرة له على الانتصار لنفسه؛ لأنه وحيد لا نصير له كما أنه يجهل تاريخه وكيف أغتيلت حقوقه.

وكانت الأعوام الاثنا عشر، التي تلت تلك الفترة القاتمة، أسعد فترة في حياتي، فلم يعكرها إلا ما كان ينتاب سيدتي الصغيرة من الأمراض المعهودة في الأطفال جميعًا، الفقراء منهم والأغنياء على السواء.

وأكبر عناية كبدتنيها كاثراين الصغيرة، بالنسبة لولادتها المبكرة، كانت في

الأشهر الستة الأولى، أما بعد ذلك فقد شبت كالزهرة اليانعة. وقبل أن ينقضي عام كامل على وفاة أمها، استطاعت أن تمشي فتتعثر، وأن تتحدث على طريقتها الخاصة، فكانت كشعاع من الشمس دخل ذلك البيت القاتم. وقد حبتها الطبيعة بجمال المحيا، فجمعت بين عيون آل إيرنشو السوداء الساحرة، وبين بشرة آل لينتون الناصعة وملامحهم الدقيقة وشعرهم الأصفر المجعد.

ومن حسن الحظ أنها كانت صافية القريحة ميالة إلى التعلم، وكان والدها هو معلمها الخاص، فتعلمت على يديه بشغف وأحرزت نجاحًا كبيرًا.

ولم تكن إلى حين بلوغها سن الثالثة عشرة قد جاوزت حدود الحديقة بمفردها، وغاية الأمر أن مستر إدجار ربما أخذها معه إلى الخارج ميلًا أو نحو ذلك في بعض الأحيان، ولكنه لم يكن يأمن عليها أي إنسان آخر. وكانت الكنيسة هي البناء الوحيد الذي دخلته أو اقتربت منه فيما عدا بيتها الخاص، أما مرتفعات ويذرنج ومستر هيثكليف فلم يكن لهما بالنسبة لها وجود.

وقد ذكرت آنفًا أن مسز هيثكليف عاشت اثنتى عشرة عام بعد مفارقة زوجها، وآل لينتون قوم ضعاف البنية فلا ترى في إيزابيلا أو شقيقها ما تراه في أهل هذا الاقليم عادة من صلابة وقوة. ولست أدري على التحقيق ماذا كان مرضها الأخير، ولكني أحسب أنها ماتت بالمرض الذي مات به شقيقها فيما بعد، وهو نوع من الحمي بطيء لا يلبث أن يتقدم عند النهاية فيسبب الموت.

وكانت مسز هيثكليف قد كتبت إلى شقيقها عن مرضها الذي دام أربعة

أشهر، وناشدته أن يذهب إليها، لأن أمامها أمور كثيرة تحب أن تسويها، كما أنها تحب أن تعهد إليه بلينتون الصغير، وأن تودعه الوداع الأخير.

ولم يتردد سيدي لحظة واحدة في إجابة طلبها، على ما عهد فيه في السنوات الأخيرة من عزوف عن كل ما من شأنه أن يبعده عن الدار، وترك سيدي كاثراين الصغيرة تحت عنايتي الساهرة، وزودني بتعليمات مشددة ألا أتركها تغادر سور البستان حتى ولو في صحبتي.

واستمر غيابه ثلاثة أسابيع، وفي اليومين الأولين جلست الصغيرة في ركن من المكتبة، وقد شغلها الحزن لسفر والدها عن المطالعة واللعب.

وأعقبت تلك الفترة الأولى مرحلة أخرى من الشغب وضيق الصدر والقلق، ولما كانت صحتي وسني لا تسمحان لي بمجاراتها في القفز والصمود والهبوط، قد فكرت في طريقة تسلي بها نفسها، وكانت هذه الطريقة أن أرسلها في رحلات تجوب فيها المزرعة على الأقدام تارة وعلى ظهر مهرها الصغير تارة أخرى، وكنت أتصنع الاهتمام بما تقصه علي في آخر كل رحلة.

وحل الصيف بكل إشراقه وبهجته، وكانت قد تعشقت تلك النزهات الخلوية الانفرادية، حتى إنها كانت تمكث في الخارج من وقت الإفطار إلى وقت الشاي، ثم تنفق السهرة في رواية تفاصيل ما شاهدته. ولم أكن أخشى أن تتجاوز الحدود المرسومة؛ لأن البوابات كانت مقفلة بالمفاتيح في الغالب، ولأني كنت أظن أنها ما كانت تجازف بالخروج منها، حتى ولو وجدتها مفتوحة على مصراعيها، ولكن هذه الثقة ثبت لي بالتجربة أنها لم تكن في موضعها.

وجلية الأمر أن كاثراين جاءتني ذات صباح في الساعة الثامنة، وذكرت لي

أنها في ذلك اليوم ستكون «تاجرًا» عربيًا على أهبة اجتياز الصحراء بقافلته؛ ولهذا يجب أن نزودها بمؤونة كافية لها وللجمال الثلاث والحصان، وكانت ترمز إلى تلك الحيوانات بثلاثة كلاب كبيرة وكلب صغير. فقمت في الحال وجمعت لها زادًا طيبًا من الحلوى والكعك وما إلى ذلك، جعلته في سلة صغيرة ربطتها في السرج، ثم ألبستها قبعة واسعة الأطراف لتقيها من الشمس، وأوصيتها ألا تجري بالحصان كثيرًا، وأن تعود في وقت مبكر، بيد أن الملعونة لم تحضر في ساعة الشاي، ولم يعد من أعضاء القافلة إلا أكبر الكلاب لأن سنه المتقدمة كانت تميل به دائمًا إلى إيثار الراحة، فأرسلت الرسل في كل اتجاه للبحث عن القافلة المفقودة، وخرجت بنفسي للبحث أيضًا.

وصادفت في الطريق فلاحًا يقلم الأشجار في سور بعض الزراعات على حدود أملاكنا، فسألته عن سيدتي الصغيرة، فذكر أنه رآها في الصباح تقفز بجوادها فوق السور المنخفض، ثم اختفت عن الأنظار.

ولك أن تتصور مبلغ جزعي عندما سمعت هذا الكلام، فمن يدري أين ذهبت؛ ولذلك انطلقت على وجهي في الطرقات، أنظر كالمجنونة حولي ولا أرى لها أثرًا، وخطر ببالي أنها ربما سقطت في هوة وهي تحاول تسلق التلال، وإلا فما السبب في تأخرها عن العودة حتى هذه الساعة؟

وزادت شكوكي قوة حين عثرت بأحد كلاب القافلة، وهو أشرسها في الواقع، ملقى على الأرض والدم ينزف من أذنه، وكان ذلك تحت نوافذ مرتفعات ويذرنج مباشرة، فهجمت كالمجنونة ورحت أطرق الباب. وإذا بإمرأة من أهالي جيميرتون التحقت بالخدمة بعد وفاة هندلي تفتح لي وتقول:

– أراك قد جئت للبحث عن سيدتك الصغيرة، لا تخافي، إنها هنا بخير. ولكني مسرورة لأن السيد ليس هنا ولا جوزيف أيضًا، ولن يحضرا قبل ساعة، فادخلي واستريحي.

وكان التعب قد نال مني، فدخلت لأستريح، فرأيت عنزتي الضائعة جالسة عند نار الموقد في مقعد كانت تستعمله أمها وهي صغيرة، وقد علقت قبعتها على مشجب، واطمأنت كأنها في بيتها. وراحت تضحك وتتجاذب الحديث في مرح مع هيرتون الذي أصبح وقتئذ شابًا وسيمًا قويًا في الثامنة عشرة من عمره. ورأيته يوجه إليها نظرات تدل على الدهشة والاستطلاع، لما كانت تبديه من طلاقة في البيان وغزارة في المعلومات. ولما أنبت سيدتي الصغيرة بلطف، وصاحت: «كيف عرفت مكاني يا نللي؟ هل أتيت هنا من قبل؟».

– البسي قبعتك وهيا بنا، إني مستاءة منك جدًا فقد أقدمت على خطأ كبير، أنسيت أن والدك مستر إدجار لينتون قد جعلني مسؤولة عنك؟

– لا تخشى شيئًا من أبي فإنه يحبني جدًا، ولن يخاصمني كما تفعلين أنت.

– هيا بنا، أما تخجلين؟ إنك في الثالثة عشرة ولم تعودي طفلة.

وإذا بها تفلت من يدي وتقف في آخر الحجرة، فصحت:

– كم سأنتظر هنا؟ سيسود الظلام في مدى عشر دقائق. والآن أين مهرك وأين الكلب فينيكس؟ سأتركك وأعود وحدي إن لم تعجلي بالقيام معي.

– إن المهر في الإسطبل وكذلك فينيكس، وهو معضوض، وكذلك الكلب الآخر شارلي، وسأخبرك بظروف إصابتهما فيما بعد.

فأخذت القبعة وحاولت أن أربطها إلى رأسها، ولكنها تبينت في هيرتون وفي الخادمة أنهما يميلان إلى مناصرتها كي تبقى فترة أخرى، فابتعدت عني. فلم أجد بدًا من القول: «لو أنك عرفت بيت من هذا لبادرت بمغادرته».

فنظرت كأني إلى هيرتون وقالت له: «إنه بيت أبيك، أليس كذلك؟».

فأجابها وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا: «كلا».

– بيت من إذن؟ بيت سيدك؟

فازداد احمرار وجهه وغمغم بغضب ثم غادر المكان. فتحولت إلي قائلة:

– من هو سيده؟ إنه كان يحدثني فيقول بيتنا، ثم إنه لم يقل لي مطلقًا يا سيدتي. وكان ينبغي أن يقول لي يا سيدتي ما دام خادمًا.

وسمعت من عند الباب زجرة تدل على غضب هيرتون، فلم أرد على كاثي بل رحت أستحثها على الاستعداد للذهاب معي، فإذا بها تلتفت إلى قريبها المجهول وتقول: «هيا يا غلام أحضر لي جوادي».

قالت ذلك على نحو ما تأمر وتنهي السياس في الجراج، فثار هيرتون وزمجر قائلًا: «سأراك مشنوقة قبل أن أغدو خادمك».

فانزعجت كاثي كثيرًا لهذه اللهجة، وأوشكت أن تبكي. فقلت لها:

– ها أنت ذي ترين أنك أوقعت نفسك في صحبة غير مناسبة، ويالها من كلمات توجه إلى آنسة مهذبة، تعالي نحضر الحصان بأنفسنا ثم نمضي في سبيلنا.

– لن أتركه بغير عقاب بعد أن بلغت به الجرأة هذا الحد، وثق أيها الولد الشرير أنني سأخبر أبي بما قلته لي!

ثم التفتت إلى الخادمة العجوز وقالت لها: «مادام هذا الوقح لا يريد أن يحضر حصاني فأحضريه أنت وأطلقي سراح كلبي».

– على رسلك يا آنسة، فلن تخسري شيئًا بحسن المعاملة، وإذا لم يكن مستر هيرتون الواقف أمامك هناك ابن رب الدار، فهو ابن خالك، وأما أنا فإن كنت أجيرة هنا، فلم يؤجرني أحد لأكون خادمة لك.

وعندئذ ضحكت كاثي ضحك استهزاء وقالت: «هذا ابن خالي أنا؟».

– نعم ابن خالك مباشرة.

– أدركيني يا نللي، ولا تتركي هذه المرأة تقول هذا الكلام الفارغ، إن لي في لندن ابن عمة وقد ذهب أبي ليحضره.

– مهلًا يا كاثي، من الجائز أن يكون للإنسان ابن خال وابن عمة في آن واحد، ولكن ليس هذا مبررًا على كل حال للبقاء هنا.

– مستحيل، ليس هذا ابن خالي!

ثم ألقت نفسها بين ذراعي وراحت تبكي، فغالبت نفسي بصعوبة شديدة كي أمنع الابتسام لما أظهرته نحو هيرتون المسكين، الذي كان شابًا ممشوق القامة متين البنية جميل الملامح يفيض صحة وشبابًا.

تلقيت من سيدي خطابًا مجللًا بالسواد، حدد لي فيه يوم عودته، فقد

ماتت إيزابيلا، وأمرني أن أعد ثياب الحداد لابنته، وأن أعد أيضًا حجرة بملحقاتها لابن شقيقته اليتيم الصغير.

وكادت كاثراين تجن فرحًا لقرب عودة أبيها، وراحت تعد مشروعات لا نهاية لها، وتتخيل شتى الصور لابن عمتها الحقيقي كما كانت تدعوه.

وأخيرًا حل ذلك المساء الذي كنا نتوقع عودتهما فيه، وكانت كاثراين منذ الصباح مشغولة بإعداد كل ما يهمها، وارتدت ثوبها الأسود الجديد في زهو صبياني، ثم أرغمتني بإلحاحها المتصل على أن أسير معها إلى نهاية أراضينا كي نكون في استقبالهما، وجعلت تثرثر ونحن نتمشى:

– لينتون يصغرني بستة أشهر، ما أجمل أن أظفر به رفيقًا في ألعابي، وكانت عمتي إيزابيلا قد أرسلت فيما مضى إلى أبي خصلة رائعة من شعره الجميل، إنه لا يقل نعومة عن شعري وأقل تجعدًا، وقد احتفظت به في صندوق صغير من الزجاج، وكم تمنيت أن أرى صاحب هذا الشعر الجميل رأي العيان.

وجعلت تجري، ثم تعود لتجري ثانية، إلى أن استطاعت الوصول إلى البوابة، فجلست على العشب بجانب الطريق وحاولت أن تصطنع الصبر في الانتظار، ولكن صبرها لم يسعفها فلم تستقر في مكانها إلا قليلًا لشدة قلقها.

وأخيرًا انتهى الانتظار، وظهرت عربة السفر قادمة من بعيد، وصرخت كاثي سرورًا عندما رأت وجه أبيها وهو يطل من النافذة، ثم هبط سيدي وهو لا يقل لهفة عن ابنته وشوقًا، وطال عناقهما حتى حسبتهما لن ينصرفا عنه إلى شيء آخر. وفي أثناء ذلك اختلست نظرة إلى وجه لينتون الصغير فوجدته نائمًا في

الركن، ملفوفًا في معطف مبطن بالفراء، كأننا لم نزل في صميم الشتاء، وكان غلامًا شاحبًا رقيق البنية أنثوي المظهر، يشبه سيدي إلى أبعد حد لولا ما يبدو عليه من وهن شديد.

ورآني سيدي وأنا أنظر إلى الغلام، بعد أن انتهى من عناق ابنته، فلما صافحني نصح لي بأن أغلق باب العربة وأتركه نائمًا لأن الرحلة أتعبته، وكذلك منع ابنته عن النظر إليه، ثم صحبها إلى الحديقة، وأسرعت أنا لأصدر التعليمات اللازمة إلى الخدم. ولما وصلا إلى رأس السلم الأمامي قال سيدي لابنته:

– إن ابن عمتك يا عزيزتي ليس في مثل قوتك أو مثل حيويتك ومرحك، ثم إنه فقد والدته حديثًا، ولهذا لا تتوقعي منه أن يجري ويلعب معك في الحال، ودعيه هذه الليلة على الأقل ينعم بالهدوء التام.

– نعم يا أبتاه، ولكني أريد أن أراه على الأقل!

وكان لينتون قد أفاق، فحمله الخدم وأنزلوه من العربة، فمضى إلى حيث كان عمه وابنته. وقام سيدي بالتعريف بينهما، ثم أردف قائلًا:

– ها قد انتهت الرحلة فابتسم وافرح، وليس أمامك هنا سوى الراحة والسرور واللعب مع بنت خالك.

– لا أريد بنت خالي، أريد أن أنام!

وبذلت كاثي مجهودًا شديدًا كيلا تبكي، وأخذ أبوها يرفه عنها، ثم رفع ابن أخته اليتيم فأجلسه على الأريكة حيث قدمت له فنجانًا من الشاي،

وقربت كاثي منه مقعدًا جلست فوقه وفي يدها فنجانها، ولزمت الصمت أول الأمر، بيد أنها لم تصبر طويلًا على رغبتها في اللعب معه كأنه دمية، فبدأت تداعب شعره وتقبل خده وتقدم له الشاي في طبق فنجانها كأنه طفل، فلذ له هذا لأنه في الواقع لم يكن سوى طفل، وسر سيدي فقال:

– أعتقد يا نللي أنه سيستطيب الحياة هنا، ولا شك أن حبه طفلة في سنه سيساعد على التسرية عنه وتحسين صحته بمرور الزمن.

– هذا إذا استطعنا أن نحتفظ به.

والواقع أن قلبي بدأ يتألم لما تخيلت هذا الضعف في جو مرتفعات ويذرنج القاسي من جميع الوجوه، فأي حياة يمكن أن يحياها بين والده وهيرتون؟

ولم يطل توجسي؛ لأن الأمور تكشفت أسرع مما توقعت، فقد أخذت الطفلين إلى الطابق العلوي بعد الشاي، ووضعت لينتون الصغير في فراشه، ثم لازمته حتى نام، وهبطت لآخذ شمعة مضيئة إلى مخدع مستر إدجار، ولم أكد أقترب من المطبخ حتى برزت منه خادمة قالت لي: «جوزيف خادم مستر هيثكليف واقف بالباب، ويريد أن يتحدث إلى السيد».

فذهبت إليه، وحاولت أن أثنيه عن المقابلة إلى الصباح، فدفعني بخشونة وسألني: «لا مفر من ذلك، أرني حجرته وسأدخل أنا عليه».

فلم أجد بدًا من الذهاب على مضض إلى المكتبة، وأن أعلن إلى سيدي وجود جوزيف مبعوثًا من هيثكليف، وأشرت عليه أن يرفض مقابلته الليلة. غير

أن الوقت لم يتسع كي يبدي رأيه؛ لأن جوزيف كان قد صعد في أعقابي ودخل القاعة وبدأ يتكلم بصوت مرتفع:

– لقد أرسلني هيثكليف لآتيه بولده، ولن أعود من غيره.

فسكت إدجار لينتون برهة طويلة، وقد غطت وجهه سحابة من الأسى البالغ، فقد كان حسب الفتى يتمه، فإذا به اليوم يواجه ما يهدد كل وصايا إيزابيلا وآمالها حين استودعته وحيدها. وها هو ذا يرى نفسه مكرهًا على التخلي عنه؛ لأنه لا وسيلة لمنع أبيه من الحصول عليه، ولكن لا يمكن على الأقل أن يوافق على إزعاجه من نومه. لذلك قال بهدوء:

– أبلغ مستر هيثكليف أن ابنه سيتوجه إلى مرتفعات ويذرنج غدًا، أما الليلة فهو متعب جدًا من الرحلة ولهذا نام مبكرًا، وأخبره أيضًا أن أم لينتون أبدت رغبتها في بقاء الطفل تحت وصايتي، وأن صحة الطفل في الوقت الحاضر ضعيفة جدًا.

– كلا، إن هيثكليف لا يقيم وزنًا للأم ولا لك، وهو يريد ابنه حالًا!

– اسمع يا هذا! هذا غير ممكن الليلة، فانزل حالًا وانقل إلى سيدك ما قلته! أنزليه يا نللي وأخرجيه وأغلقي الباب.

ثم نهض فأخذ بذراع الخادم العجوز الغاضب وأخرجه من القاعة وأنا معه، ثم أغلق بابها، وصاح جوزيف وهو يهبط السلم ويدق بعصاه:

– حسنًا جدًا! سيأتي بنفسه غدًا وينتزعه من أيديكم.

وتلافيًا لكل ما هدد به جوزيف، كلفني مستر إدجار أن آخذ الولد إلى أبيه في ساعة مبكرة جدًا من الصباح، على مهر كاثراين الصغير. ثم قال لي:

– ما دام الغلام سيخرج من أيدينا، ولن تكون حياته المستقبلة خاضعة لنفوذنا، فينبغي ألا تقولي شيئًا عن مكانه لابنتي؛ لأن كل اتصال به بعد اليوم أصبح ممتنعًا، لهذا يحسن أن تجهل محل إقامته حتى لا تتوق نفسها لزيارة المرتفعات، ويكفي أن تخبريها بأن والد الغلام أرسل يطلبه فجأة فاضطر للرحيل.

وأبدى لينتون الصغير مقاومة شديدة في النهوض من فراشه في الساعة الخامسة صباحًا، وأدهشه كثيرًا أن تطلب منه الاستعداد لرحلة أخرى.

فخففت وقع الأمر عليه بأن قلت له إنه سيذهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه مستر هيثكليف الذي يريد أن يراه، ويصر على التمتع برؤيته فورًا، ولم يقبل أن يتمهل إلى أن يستجم من رحلته الشاقة، وإذا بالغلام يصيح في دهشة غريبة:

– أبي؟ أبي أنا؟! لم تقل لي أمي مطلقًا أن لي أبًا، أين يعيش؟ أفضل أن أبقى هنا وأعيش مع خالي.

– إن أباك يقيم على مسافة قصيرة من هنا وراء هذه التلال، حيث تستطيع عندما تسترد عافيتك ويشتد عودك أن تأتي إلى هنا سيرًا على قدميك، ثم إنك ينبغي أن تشعر بالسرور لذهابك إلى بيتك ومقابلة والدك، ويجب أيضًا أن تجتهد في أن تحبه كما كنت تحب أمك، وعندئذ سيحبك هو كذلك.

– ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل؟ لماذا لم يكن يعيش مع أمي؟

– أعماله تقتضي بقاءه في الشمال، في حين اقتضت صحة أمك الإقامة في الجنوب.

– ولماذا لم تحدثني أمي عنه؟ إنها كثيرًا ما كانت تحدثني عن خالي، وبهذا علمتني منذ زمن طويل أن أحبه قبل أن أراه، فكيف يمكن أن أحب أبي وأنا لا أعرفه ولا أعرف شيئًا عنه؟!

– اطمئن، فجميع الأطفال يحبون والديهم، ولعل أمك خشيت إن حدثتك عن أبيك كثيرًا أن يتعلق ذهنك به وترغب في الإقامة معه. والآن أسرع، فالركوب في ساعة مبكرة من صباح جميل أفضل من النوم.

– وهل ستذهب معنا تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها أمس؟

– كلا، ولعلها تأتي إلينا بعد الآن.

– وخالي، هل يصحبنا في هذه الرحلة؟

– لا، سأكون أنا رفيقتك إلى هناك.

فألقى لينتون رأسه على الوسادة واستغرق في تفكير وتقطيب، ثم بكى قائلًا:

– لن أذهب من غير خالي، فمن أين أعلم أين تريدين أن تأخذيني؟!

فحاولت أن أقنعه بأن امتناعه عن مقابلة أبيه عمل غير لائق، ومع هذا

أصر على مقاومة حمله على ارتداء ثيابه، بل رفض أن يغادر الفراش، فاضطررت أن أستعين بمولاي الذي راح يبذل له الوعود بأن غيبته لن تطول، وأنه سيزوره مع كاثي، وهي وعود كاذبة كان علي أن أكررها طول الطريق.

وكان لهواء الصباح المنعش أثره بمساعدة أشعة الشمس في إشاعة الهدوء في نفسه، فشرع يلقي الأسئلة عن بيته الجديد وعن سكانه باهتمام: «ما شكل أبي؟ هل هو في شباب خالي وجماله؟».

– إنه في سنه، ولكنه أسمر أسود الشعر والعينين وأكثر صرامة، ثم أنه أطول منه وأضخم. ولن يبدو لك في أول الأمر شديد الرقة أو الحنان، وربما كان ذلك لأن هذا أسلوبه في الحياة، ولكني أوصيك أن تكون صريحًا ودودًا، ومن الطبيعي أن يتضح لك بمرور الوقت أنه أشد تعلقًا بك من سائر الأحوال، لأنك ابنه من صلبه.

– تقولين أنه أسود العينين والشعر؟ عجبًا! لا يمكن أن أتصور هذا، أنا إذن لست أشبه في شيء، أليس كذلك؟

– لا تشبهه كثيرًا في الواقع.

والحقيقة أن التناقض بينهما كان شديدًا في كل شيء، واستغرقتني تفاصيل المقارنة إلى أن تنبهت على غمغمته: «ما أعجب أنه لم يحضر مرة واحدة ليرى أمي ويراني، هل رآني من قبل؟ إن كان قد رآني فلا بد أنني كنت طفلًا صغيرة جدًا».

– إن ثلاثمئة ميل يا سيد لينتون مسافة كبيرة، وعشر سنوات مسافة كبيرة

أيضًا، ولكنها تختلف في تقدير طولها بحسب الأعمار، فهي ليست طويلة جدًا لشخص كبير، وإن كانت عمرًا كاملًا في نظرك، ولعل مستر هيثكليف كان في كل صيف يفكر في زيارتكما، ثم يؤجل ذلك بسبب أشغاله إلى الصيف التالي، إلى أن ضاعت الفرصة نهائيًا. وأوصيك ألا تضايقه بسؤاله في هذا الموضوع لأنك ستضايقه في غير طائل.

فلزم الغلام الصمت متفكرًا في أحواله بقية الطريق.

وقبل أن يترجل عن مهره، ذهبت ففتحت الباب، وكانت الساعة قد جاوزت السادسة بنصف ساعة، وقد فرغت الأسرة من تناول الإفطار، وأخذت الخادمة تنظف المائدة، ورأيت جوزيف واقفًا بجانب مقعد سيده يحدثه عن حصان أعرج، أما هيرتون فكان يستعد للتوجه إلى الحقل، فلما وقع نظر مستر هيثكليف علي قال لي:

– مرحى يا نللي، كنت أخشى أن يتعين علي الذهاب نفسي لإحضار ما يخصني، فهل أحضرت البضاعة؟ هيا بنا لنرى ماذا يمكن أن نصنع بها؟

ثم نهض وسار نحو الباب، ومن ورائه جوزيف وهيرتون يدفعهما حب الاستطلاع، فأجال لينتون الصغير نظرة فزع في الوجوه الثلاثة الوعرة، وظل هيثكليف يرمق ابنه بنظرة فاحصة إلى أن غض الغلام الطرف مستحييًا وخائفًا. وعندئذ قهقه هيثكليف:

– يا إلهي، ما هذا الجمال الباهر! إنه حقًا شيء لطيف ساحر. أتراهم ربوه على اللبن الرائب يا نللي؟ لعنة الله على روحي، إن هذا أسوأ كثيرًا من كل ما كنت أتوقع، لقد كنت متواضعًا جدًا في تصوراتي.

فالتفت إلي الغلام المرتعد المذعور، وأمرته أن يترجل ويدخل، ولم يكن قد فطن إلى حقيقة مغزى كلام أبيه، بل لم يعرف أنه يعنيه؛ لأنه لم يكن قد أيقن بعد أن هذا الصارم الفظ هو أبوه، فتعلق الغلام رقبتي في ذعر.

وصاح مستر هيثكليف بولده: «تعال هنا!...».

فأجهش المسكين بالبكاء، ودفن وجهه في صدري، وهنا قطب هيثكليف حاجبيه، ومد إحدى يديه فجذب الغلام إليه بخشونة، ثم رفع رأسه إليه وصاح به: «دع هذه الصبيانيات، فلن نؤذيك يا لينتون، أليس هذا اسمك؟ إنك فعلًا ابن أمك تمامًا، أين نصيبي فيك يا هذا؟».

ثم نزع قبعة الغلام عن رأسه ورماها بعيدًا، وجذب شعره الحريري الذهبي الغزير إلى الوراء ليعرف ملمسه وغزارته، ثم جعل يتحسس ذراعيه وكتفيه وأصابعه، كما يتحسس المشتري خروفًا في سوق الماشية. وكف لينتون عن البكاء أثناء هذا الفحص، ثم رفع عينه الزرقاوين الكبيرتين ليفحص بهما ذلك الفاحص، فلما انتهى هيثكليف واطمأن إلى أن جميع أعضاء الفتى وأطرافه سواء في الضعف والرقة سأله: «هل تعرفني؟».

فظهر الخوف في نظرة الصغير وهو يقول: «كلا..».

– أتقول كلا؟ ياله من سلوك شائن من أمك، ألا تنبه فيك عواطف الاحترام لأبي! إنك ابني، والحقيقة أن أمك كانت فاجرة شريرة، إذ تركتك في جهل تام حقيقة والدك، والآن لا تقطب ولا يحمر وجهك، وإن كان لهذا فائدة إذ يدل على أن دمك أيضًا ليس أبيض اللون كظاهر جسدك، كن غلامًا صالحًا أكن لك أبا صالحًا.

ثم قال لي: «إن كنت متعبة فاجلسي، وإن لم تكوني متعبة فارجعي من حيث جئت. وأظنك ستنقلين ما سمعت ورأيت إلى صاحب الجرانج».

– أرجو أن تكون رفيقًا بالغلام يا مستر هيثكليف، وإلا لم يكن في وسعك أن تحتفظ به طويلًا، وهو كما تعلم كل ما لك في هذه الدنيا الواسعة، بل كل ما سوف يكون لك من أهل القرابة أيضًا. إنه كل عائلتك.

فضحك ضحكة مجلجلة وقال:

– سأكون رفيقًا به غاية الرفق، فلا تخافي من هذه الوجهة، ولكن لن أسمح لأي إنسان آخر أن يكون رفيقًا به؛ لأني أريد أن أحتكر محبته وعواطفه، وأغار عليه. وسأبدأ الرفق به منذ الآن، أحضر له يا جوزيف شيئًا يفطر عليه، وأنت يا هيرتون، أيها العجل الجهنمي، اذهب إلى عملك.

ولما خرجا كما أمرهما، التفت نحوي قائلًا:

– أجل يا نللي، إن ابني هو المالك المأمول لضيعتكم. ولست راغبًا في موته إلى أن أتأكد أنني وارثه. أضيفي إلى هذا أنه ابني، وأنا أريد أن أتمتع بالانتصار والشماتة حين أرى ابني أنا هو السيد الشرعي لجميع ضياع أعدائي، وأن أرى ابني يستأجر أبناءهم ليحرثوا حقول آبائهم بالأجر يأخذونه من يده، وهذا هو الاعتبار الوحيد الذي يجعلني أطيق ذلك الطفل الهزيل، فإني أحتقره لذاته، وأحتقره أيضًا للتذكارات الممضة التي يستثيرها في نفسي.

بيد أن هذا الاعتبار وحده كافٍ للعزاء، ولأن يكون آمن على نفسه سالمًا، مرعي الجانب مني بمثل ما يرعى سيدك ابنته. وقد أعددت له في الطابق

العلوي حجرة مفروشة بأثاث بديع، كما استأجرت له مؤدبًا، سيحضر ثلاث مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلًا ليعلمه كل ما ينبغي أن يتعلم. وقد أمرت هيرتون أن يدين له بالطاعة، ورتبت على العموم كل شيء يكفل له التفوق، ونشأة السادة ذوي المكانة والنهي والأمر على من حولهم، وإن كنت قد تبينت بعد أن رأيته أنه لا يستحق عدلًا وعقلًا كل هذا العناء.

وفي هذه اللحظة عاد جوزيف يحمل عصيدة اللبن، فوضعها أمام لينتون، فنظر إليها لينتون شزرًا، ثم جال ببصره في الحجرة التي تسودها الفوضى، وأعلن أنه لا يريد أن يأكل، وإذا جوزيف يثور ويصرخ فيه زاجرًا. فنهره هيثكليف وقال:

– لا تزجره هكذان إنه سيدك!

– إنه مدلل كأمه التي كانت تتعبنا ولا يعجبها طعامنا.

– إياك أن تذكر أمه مرة أخرى أمامي، اذهب وأحضر له شيئًا يوافق شهيته، واذهبي معه يا نللي إلى المطبخ لتعرفيه بما يصلح له.

فسرني منه هذا الاتجاه، وعدت إلى الجرانج مستريحة البال، وإن كان بكاء لينتون عند انصرافي قد ترك أثرًا عميقًا في نفسي.

# الوعد الكاذب

أتعبتنا كاثي كثيرًا ذلك اليوم، فقد نهضت من فراشها متحمسة جدًا، ومتلهفة على الاجتماع بابن عمتها. فلما علمت بنبأ رحيله أخذت تبكي بكاءً مرًا، حتى اضطر إدجار نفسه إلى أن يهدئها، مؤكدًا لها أن الغلام سيعود عما قريب، ثم أردف قائلًا: «إن إستطعت إليه سبيلًا».

ولم يفلح الوعد الكاذب العسول في تهدئتها وتعزيتها، حتى تدخل عنصر الزمن، فالزمن يضمد جميع الجراح ويمحو جميع الأحزان. وإن تعودت أن تسأل أباها من حين لآخر عن لينتون ومتي يعود، مع أن الوقت كان قد مر سريعًا بحيث لو رأته لما عرفته أول وهلة لما طرأ على ملامحه من التغير.

وقد كنت كلما قابلت مدبرة مرتفعات ويذرنج في السوق، أو في جيميرتون، أسألها عن السيد الصغير وأحواله وصحته؛ لأنه كان يعيش في عزلة تامة على نسق معيشة كاثراين، فلا يراه أحد، فكنت أعلم منها أن الفتى لم يزل على ضعف صحته ورهافة أعصابه، فهو عشير متعب. وأفهمتني أيضًا أن هيثكليف قد زادت كراهته للفتى مع مضي الوقت، وإن كان يحاول كتمان ذلك. وهو يكره صوته، ولا يطيق جلوسه معه مدة طويلة في حجرة واحدة. أما الحديث بينهما فشيء نادر، وإنما يقضي لينتون معظم وقته في استذكار دروسه، معتكفًا في حجرة صغيرة خاصة. هذا إذا لم يقضِ يومه كله في الفراش لكثرة ما كان ينتابه من السعال والبرد والصداع وآلام العظام.

وأدركت مما سمعت منها أيضًا أن حرمان هيثكليف الصغير من العطف

والحنان جعله أنانيًا سيء الطبع، منحرف المزاج، ضيق الصدر أكثر مما كان. وتلك كلها صفات جعلتني أفقد اكتراثي به، وإن كنت قد أسفت لمصيره كثيرًا، وتمنيت لو كان الحظ قد أسعده ببقائه معنا. وكان مستر إدجار يشجعني على الحصول على المعلومات الخاصة بلينتون هيثكليف؛ لأنه كان يشغل نفسه بالتفكير فيه كثيرًا فيما أعتقد، وكان خليقًا أن يجازف ليراه؛ ولذلك طلب مني أن أسأل مدبرة المرتفعات إن كان الغلام يذهب إلى القرية أحيانًا، فأخبرتني أنه لم يذهب إليها سوى مرتين، وعلى الجواد في صحبة أبيه. وبعد كل مرة من هاتين المرتين كان يلزم الفراش متوجعًا ثلاثة أيام أو أربعة.

وقد تركت هذه المدبرة خدمة المرتفعات بعد سنتين من حلول لينتون هناك، وشغلت مكانها امرأة أخرى لا معرفة لي بها، وهي الموجودة هناك الآن.

ومضت الأيام على وتيرتها في الجرانج إلى أن بلغت الآنسة كاثي سن السادسة عشرة، ولم نكن نحتفل بعيد ميلادها إطلاقًا؛ لأن تلك الذكرى توافق في الوقت نفسه ذكرى وفاة والدتها التي ماتت وهي تخرجها للنور، وكانت عادة سيدي باستمرار أن يقضي ذلك اليوم بمفرده في المكتبة. وعند الغسق يسير على قدميه إلى المقبرة حيث يقضي الهزيع الأول من الليل، وبذلك تكون كاثراين في ذلك اليوم على سجيتها تقضيه كما يحلو لها.

وفي تلك العام كان يوم العشرين من مارس يومًا بديعًا، فما إن اعتكف سيدي في أوله داخل المكتبة، حتى أقبلت سيدتي الصغيرة نحوي وقد ارتدت ثيابها للخروج، وطلبت مني أن أصحبها في جولة على حدود الأحراش، وكان

والدها قد أذن لها في ذلك بشرط ألا تذهب بعيدًا، وأن تعود في مدى ساعة.

– هيا أسرعي يا نللي، فإني أعرف أين أريد أن أذهب، هناك حيث طائفة من طيور الأحراش. أريد أن أرى هل بنت أعشاشها أم لا؟

– ولكن الطيور لا تعشش على حافة الأحراش، بل في الأمكنة العالية.

– لا بأس، فقد ذهبت هناك مرة مع أبي، وأنا أعرف الطريق جيدًا.

فأخذت قبعتي وخرجت معها، ولم ألبث أن طربت لأصوات الطيور الصادحة هنا وهناك، واستطبت أشعة الشمس الدافئة، وشرح صدري منظر صبيتي المدللة وهي تجري وتقفز، وجدائلها الذهبية تطاير وراءها.

ولا أحدثك عن توهج خديها الناعمين كأنهما وردتان بريتان، ولا عن تألق عينها اللتين لا تطيف بهما سحب الأكدار. كانت في تلك الأيام مخلوقًا سعيدًا طاهرًا كالملائكة، وكنت كلما سألتها أين طيورها البرية قالت لي: إنها غير بعيدة، فوق حرف ذلك التل.

ثم سبقتني، ورحت أعبر من هذا التل إلى ذاك إلى أن تعبت فجعلت أناديها لتعود، وكانت قد غابت عن نظري فلم تجب ندائي. فرحت أتعقبها على غير هدى إلى أن بصرت بها في النهاية فإذا بها على بعد ميل من مرتفعات ويذرنج، ثم رأيت شخصين يقبضان عليها، وأدركت من شكل أحدهما على البعد أنه مستر هيشكليف نفسه، فتلك المنطقة ضمن حدود أملاك هيثكليف، ومن حقه أن يعاقب على اقتناص الصيد فيها، فأسرعت بأقصى قوتي، وسمعتها عند وصولي تقول ببراءة:

لم آخذ شيئًا، ولم يكن في نيني أن آخذ شيئًا، ولكن والدي كان قد قال لي إن في هذا المكان طيورًا كثيرة، فأحببت أن أرى البيض.

فرمقني هيثكليف، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة دلتني على أنه عرف من تكون الفتاة، ثم سألها: «من يكون أبوك؟».

– مستر إدجار لينتون صاحب الجرانج، لقد أدركت أنك لم تعرفني، وإلا ما حدثتني بهذه اللهجة يا سيدي.

– أتعتقدين أن أباك ذو مكانة عالية واحترام موفور؟

– وأنت من تكون؟ ثم هذا الرجل الذي معك أذكر أنني رأيته من قبل، أهو ابنك؟

وأشارت إلى هيرتون، وكان قد كبر في هذين العامين وازداد حجمًا وقوة، لكنه لم يفقد شيئًا من خشونته، فقاطعتها قائلة:

– سيطول غيابنا ثلاث ساعات لا ساعة واحدة، يجب أن نعود فورًا.

وإذا بهيثكليف يدفعني جانبًا ويقول: «كلا، هذا الرجل ليس ابني».

ولكن لي ابنًا رأيته أنت من قبل، ومع أن مربيتك في عجلة، إلا أنني أظن القليل من الراحة أصلح لكما. فهل تأتي معي إلى البيت؟

فهمست في أذن كاثراين ألا تقبل الدعوة بأي شكل، وإذا بها تصيح:

– ولماذا؟ لقد تعبت من الجري، والأرض ندية لا أستطيع أن أجلس عليها

لأستريح، هيا بنا يا نللي فمن يا ترى هو ابنه؟

وعندئذ تدخل هيثكليف، وكلف هيرتون أن يسير مع كاثي في المقدمة.

ثم قبض هو على ذراعي وتبعناهما، ولم أدخر مقاومة واعتراضًا؛ لأني كنت خائفة من العواقب ومن غضب سيدي. وأبديت حجتي لهيثكليف، فقال:

– أريد لها أن ترى لينتون، فهو أحسن حالًا في هذه الأيام، وهي فرصة نادرة لأنه قلما يكون في حالة تسمح له بمقابلة أحد، وسنعرف كيف تبقى هذه الزيارة سرًا فلا تخبر أباها، فما الضرر إذن؟

– الضرر أن أباها سيكرهني إن اكتشف أنني سمحت لها بدخول بيتك، وأنا كذلك مقتنعة بأنك تهدف إلى غرض خبيث من هذه الدعوة.

– بل هو غرض شريف جدًا، وسأخبرك به في وضوح، غرضي أن يتعارفا من جديد، ابن العمة وبنت الخال، وأن يجمع بين قلبيهما الحب، فليت سهم كيوبيد يصيب قلب سيدتك الصغيرة. وإنه لكرم من جانبي، أن أجعلها شريكة في الوراثة مع لينتون؛ لأن القانون يقضي ما دام إدجار لم ينجب ذكرًا أن يؤول كل شيء إلى ابن أخته.

– هراء، إن صحة لينتون مضمحلة؛ فليس مستحيلًا أن يموت فتظل كاثراين الوارثة الوحيدة، أنا متأكدة من هذا.

– الأعمار لا يعلمها أحد، أليس الأضمن أن يتزوجا ضمانًا لمستقبلها؟

– أقسم أنني لن أجعلها تقترب من بيتك بعد هذه المرة.

وكنا قد وصلنا إلى البوابة حيث انتظرت كاثي وصولنا، فأمرني هيثكليف أن التزم الصمت، ثم أسرع ليفتح الباب. وكانت سيدتي ترمقه بنظرات مستطلعة، إنها لا تدري ماذا تظن به، فلما التقت عيناه بعينها ابتسم وراح يرقق من صوته وهو يكلمها.

ووجدنا لينتون واقفًا قرب النار بعد أن عاد من نزهة بين الحقول، وسمعناه يطلب من جوزيف أن يأتيه بحذاء جاف، وكان قد ازداد طولًا، واحتفظت ملامحه بجمالها، وازدادت عيناه لمعانًا، ولعل ذلك كان من تأثير النزهة الخلوية. والتفت هيثكليف نحو كاثي قائلًا: «من هذا؟ ألا تعرفينه؟».

– أهو ابنك؟

– نعم، ولكن هل هذه هي المرة الأولى التي رأيته فيها؟ تذكري، ما أضعف ذاكرتك! وأنت يا لينتون ألا تذكر بنت خالك التي صدعت رأسنا مرارًا بالحديث عنها ورغبتك في رؤيتها؟ هذه هي.

فصرخت كاثي متهللة عند سماع اسمه: «ماذا؟ لينتون؟ أهذا أنت؟ لقد أصبح أطول مني مع أنه أصغر سنًا بستة أشهر، هل أنت لينتون حقًّا؟».

فتقدم الشاب منها، فارتمت على صدره وقبلته بشغف، وراح كل منهما يتفحص الآخر ليرى مدى ما أدخله الزمن على ملامحه من تعديلات، وكانت كاثراين قد وصلت إلى غاية طولها. وفي قدها دملجة ورشاقة، مع مرونة فولاذية وحيوية دافقة وجمال وصحة، أما لينتون فكانت ملامحه وحركاته تدل

على الفتور والوهن، كان هزيلًا جدًا ولكنه لا يخلو من رشاقة.

وبعد أن وجهت كاثراين إلى ابن عمتها عبارات المودة والأشواق، تقدمت من هيثكليف الذي كان قد اتجه نحو الباب وتظاهر بالانشغال بالمنظر الخارجي. فوقفت على أطراف أصابعها لتقبله وهي تصيح بامتنان:

– أنت زوج عمتي إذن؟ لقد ملت إليك برغم تقطيبك عند أول لقاء. لماذا لا تأتي لزيارة الجرانج مع لينتون؟ من يتصور أن تعيش بالقرب منا طيلة هذه السنوات ولا تفكر في زيارتنا؟

– كنت أزور الجرانج كثيرًا، وربما أكثر مما يجب بمرة أو مرتين قبل ولادتك، عليك اللعنة وفري قبلاتك إن كان عندك منها الكثير وامنحيها للينتون، ولا تهدريها على سحنتي!

فتحولت عنه وهاجمتني بقبلاتها ومداعباتها وهي تصيح:

– يا لك من شريرة يا نللي! كيف فكرت في منعي من الدخول هنا؟ ولكني سأعوض ما فات بالسير كل صباح إلى هذا الموضع، أتسمح لي يا زوج عمتي؟ سأحضر والدي معي في بعض الأحيان. ألا يسرك أن ترانا؟

– طبعًا، ولكن على رسلك، يحسن أن أخبرك بالحقيقة منذ الآن. إن والدك ناقم علي؛ لأننا كنا قد تشاجرنا في صدر شبابنا. ولهذا سيعترض على زيارتك اعتراضًا مطلقًا، فالأفضل ألا تخبريه بهذه الزيارة، إلا إذا كان لا يهمك أن تحرمي من رؤية ابن عمتك مستقبلًا، في وسعك أن تحضري في كل وقت، ولكن لا ينبغي أن تذكري لأبيك ذلك.

ففغرت كاثراين فاها دهشة وأسفًا ثم قالت: «ولماذا تشاجرتما؟».

– أعتقد أنني لست كفؤًا لشقيقته؛ لأني فقير، وحقد علي لأنني ظفرت بها برغم أنفه، فجرحت كبرياؤه ولم يغفرها لي قط.

– إنه مخطئ، وسأقول له هذا يومًا ما. ولكن لا ذنب لنا أنا ولينتون في شجاركما، وأريد أن يأتي لينتون لزيارتي في الجرانج.

فقال ابن عمتها بصوت خافت:

– أتريدين قتلي؟ إن السير أربعة أميال أقوى من احتمالي، تعالي أنت بين الحين والحين، لا كل يوم طبعًا، فلا لزوم لهذا، بل مرة، أو قولي مرتين، في الأسبوع.

فرمق هيثكليف نجله بنظرة إزدراء، وقال لي همسًا:

– أظن يا نللي أن تعبي سيذهب هباء في هذه المسألة، فلا شك أن آنستك ستفطن عن قريب إلى قيمة هذه الدمية، وستكتشف أن ابن عمتها الذي تظنه كنارًا صداحًا ليس إلا أبًا فصادة مصبوغًا، وعندئذ ستنفض يدها منه. آه لو كان هيرتون في مكانه! ولكن هذا الفتى في أمان من حبها، ثم لا أظنه يعمر إلى سن الثامنة عشرة على هذه الوتيرة، انظري إلى هذا العتل وكيف استغرق في تجفيف قدميه كل الاستغراق، ولا يفكر في رفع نظره ليملأ عينيه من هذه الصبية! يا لينتون.

– نعم يا أبتاه؟

– أليس عندك شيء تحب أن تفرج عليه بنت خالك هنا أو هناك؟ أرانب حديثة الولادة أو عش عصافير؟ خذها إلى الحديقة قبل أن تبدل حذاءك، وإلى الإسطبل لترى حصانك.

فنظر الفتى إلى بنت خاله نظرة تضرع وقال: «ألا تفضلين البقاء هنا؟».

فأجابته وهي ترمق الحديقة بنظرة تشوق، ولا شك أن الحيوية التي يموج بها كيانها كانت تستحثها على الحركة والانطلاق: «لا أدري».

فجلس واقترب من النار، ونهض هيثكليف فذهب إلى المطبخ، ومن هناك إلى الفناء، فنادي هيرتون، ثم دخل الاثنان. وكان الشاب قد اغتسل، لأني رأيت توهج خديه وابتلال شعره المصفف. وإذا كاثي تتذكر شيئًا فتصيح بهيثكليف: «قل لي يا زوج عمتي، أريد أن أسألك سؤالًا، هل هذا الرجل ابن خالي؟».

– نعم هو ابن خالك حقًا، ألا تحبينه؟

فظهرت الحيرة في نظرات الفتاة، فعاد يسألها: «أليس فتى مليحًا؟».

فوقفت الفتاة على أطراف أصابعها وهمست في أذن هيثكليف شيئًا جعله يضحك، فقطب هيرتون حاجبيه، لأنه كان شديد الحساسية للمزاح نتيجة شعوره بالنقص، ولكن هيثكليف بدد قطوبه بقوله:

– إنك أوفرنا حظًا يا هيرتون، إنها تقول عنك شيئًا يرضي غرورك جدًا، كلمة لطيفة لن أقولها لك. فاذهب وطف معها بالمزرعة، وتذكر أن تحسن السلوك وتنتقِ الألفاظ، ولا تختلس إلى الآنسة النظرات حين لا تنظر

إليك، وكن دائمًا مستعدًا لإخفاء وجهك حين تخالسك النظر وتكلم ببطء.

ووقف ينظر إليهما من النافذة وهما يسيران جنبًا إلى جنب، وكان هيرتون مشيحًا عنها بوجهه، وكأنه يرى المناظر التي عاش فيها طول عمره لأول مرة فأولاها كل عنايته، في حين كانت تنظر إليه كاثراين من طرف عينيها. ثم لم تلبث أن انصرفت عنه إلى ما حولها، تقفز هنا، وتصفق طربًا لهذا الطائر أو تلك الشجرة. فقال لي هيثكليف:

– لقد ربطت لسانه وعلمته الصمت، فأراهنك أنه لن ينطق معها بحرف. أتذكرينني يا نللي عندما كنت في سنه أو أصغر منه؟ هل كنت بهذه الوخامة؟

– بل ألعن؛ لأنك كنت دائم التجهم!

– إنه يعجبني وأرى فيه بظروفه شبهًا كبيرًا بي حين كنت في سنه، ويلذ لي أني أعرف شعوره وآلامه لأنني عانيتها من قبل، وليس ما يعانيه الآن من المهانة والأحقاد إلا بداية لما أعددته له. لقد عرفت أنا كيف أتخلص من جلافتي وجهلي، أما هو فسيظل أسيرهما؛ لأني استوليت عليه في سن أصغر من السن التي استولي علي فيها والده الملعون. ويسرني أنه صار إلي أحط مما صرت أنا إليه، فهو يعتز بجلافته. وعلمته كيف ينفر من كل ما ليس حيوانيًا، فهل تظنين هندلي يفرح كثيرًا بنجله هذا لو رآه الآن؟ إنه لن يكون أشد فرحًا به من فرحي بابني، فكلاهما غصة لأبيه. ولكن كلا، إن بينهما فرقًا كبيرًا جدًا، فأحدهما ذهب محض يستعمل فيما تستخدم فيه الأحجار لرصف الطرق. أما الآخر فصفيح خسيس طلي بماء الذهب وصيغ منه تاج، إن ابني ليس فيه

شيء ذو قيمة. ولكن أدهى ما في الموضوع أن هيرتون شغوف بي جدًا، فلو أن الأب خرج من قبره ليحاسبني على سوء صنيعي بولده، لرأينا الولد يهاجمه دفاعًا عني، لأنني في نظره صديقه الأوحد.

ثم أطلق هيثكليف ضحكة جهنمية، ولم أعلق على كلامه بشيء؛ ولا سيما لأن لينتون الذي كان يسمع ما يدور حوله بدأ يظهر عدم الإرتياح، ولعل ذلك ندمًا منه على حرمانه نفسه من صحبة كاثراين. فإن نظراته كانت تحوم حول النافذة، فصاح به أبوه: «انهض أيها الكسول، واجرِ وراءهما! إنهما لم يبعدا كثيرًا، وستجدهما عند خلايا النحل».

فاستجمع لينتون جهوده وخرج، وفي اللحظة عينها سمعت خلال الباب المفتوح صوت كاثي تسأل هيرتون عن النقوش التي فوق المدخل، فحملق هيرتون في الكتابة وهز رأسه قائلًا في ارتباك مضحك:

– إنها كتابة ملعونة، وأنا لا أستطيع أن أقرأها.

– لا تستطيع أن تقرأها؟ ما معنى هذا الكلام؟ أنا أستطيع أن أقرأها! إنها ليست ملعونة ولا معضلة، فهي كتابة إنجليزية، ولكني أريد أن أعرف لماذا هي هنا؟

فسمعنا لينتون يضحك ضحكة ناعمة ساخرة، وقال لبنت خاله:

إنه لا يعرف حروف الهجاء، أتصدقين أن مثل هذا الجهل ممكن؟

ثم كرر لينتون ضحكته، ونظر إلى هيرتون شامتًا وقال: «إنه كسول غبي يحتقر استذكار الكتب، ثم ألم تلاحظي لهجة نطقه الإقليمية العامية؟».

فجلجل صوت هيرتون بغيظ مكبوت: «لو لم تكن أشبه بالفتاة منك بالفتى لصرعتك في هذه اللحظة أيها المسخ المهزول».

ثم ابتعد، وعندئذ أبتسم هيثكليف ابتسامة مريرة وراح يتابع الشابين. وقد وجد لينتون موضوعًا انطلق فيه لسانه وهو التشنيع على هيرتون، والفتاة غارقة في الضحك غافلة عن سوء الطوية الذي يدفعه إلى ذلك الحديث.

والحقيقة أنني بدأت أكره لينتون، بعد أن كنت أرثي له، وصرت أجد العذر لوالده في النظر إليه بإحتقار.

وبقينا إلى ما بعد الظهر لأنني لم أستطع أن أنتزع الآنسة كاثي قبل ذلك الوقت، فلما عدنا حمدت الله لأن سيدي لم يغادر المكتبة؛ ولهذا لم يفطن إلى طول غيابنا. وكنت خليقة أن أنفض تلك الزيارة من ذهني لولا أن كاثي جعلت تثرثر طول الطريق في إطراء محاسن آل هيثكليف الكرام:

– إنك طبعا تنحازين لجانب أبي يا نللي؟ أنت متحيزة. وإلا لما خدعتني طيلة هذه السنوات بقولك إن لينتون يعيش في مكان بعيد جدًا، إني غاضبة منك جدًا. وأنذرك أن تكفي لسانك عن زوج عمتي، إنه زوج عمتي، تذكري هذا جيدًا، وسأسلخ أبي لتشاجره معه.

وأخذت تجري بأقصى سرعتها، ولولا أنني لحقت بها في آخر لحظة وذكرتها لتورطت في الكلام، وعلى هذا لم تذكر تلك الليلة شيئًا عن الزيارة. ولكن في اليوم التالي افتضح السر في فلتة من فلتات لسانها، ولئن أسفت لذلك في حينه، فقد حمدت الله لأن العبء أزيح عن كاهلي، ولأن مهمة التوجيه والمنع أسهل على أبيها وأنجع، ولكني رأيته يبدي ترددًا كبيرًا في إقناعها بالأسباب القوية التي تجعله يصر

على انقطاع العلاقات مع مرتفعات ويذرنج. وكانت كاثراين تصر دائمًا على أن تكون هناك أسباب وجيهة لكل اعتراض يوجه إلى رغباتها.

وقد سمعتها بأذني تسرد على مسامع أبيها تفصيلًا أمينًا لمغامرتها الصغيرة وما انتهت إليه، وكان سيدي يرمقني بنظرات التأنيب خلسة، غير أنه لم يقل شيئًا إلى أن انتهت من حكايتها، وعندئذ سألها: «أتعرفين لماذا أخفيت عليك وجود لينتون في جوارنا؟». فأجابت: «لا أعرف». فقال لها: «أتظنين أنني فعلت ذلك لمجرد حرمانك من لذة رؤيته؟». فقالت: «بل لأنك تكره مستر هيثكليف».

- إذن أنت تعتقدين أنني أهتم بعواطفي أكثر من اهتمامي بعواطفك؟ كلا، لم يكن السبب يا كاثي أنني أكره مستر هيثكليف، بل إن مستر هيثكليف يكرهني، وإنه رجل جهنمي يتلذذ بإلحاق العار والدمار بمن يكرههم إن أتاحوا له أقل فرصة. وكنت أعلم أنه من المستحيل أن تبقي على اتصالك بابن عمتك من غير أن تحتكي به، وأعلم أيضًا أنه يبغضك بسببي؛ فلمصلحتك لا لسبب آخر اتخذت الاحتياطات حتى لا تري لينتون، وكان في نيتي أن أزيدك إيضاحًا عندما تكبرين.

فلم تقتنع كاثراين، وحملقت في أبيها بدهشة قائلة:

- ولكن مستر هيثكليف كان ودودًا غاية الود معي يا أبي، وهو لم يعترض على تزاورنا، بل ذكر أنني أستطيع أن آتي إلى بيته كلما أحببت، بشرط ألا أخبرك؛ لأنك كنت قد تشاجرت معه فما مضى ولم تغفر له أنه تزوج عمتي إيزابيلا، أما أنت فلا تسمح لنا بالتزاور. فأنت الملوم لأنه لا يقف في

طريق صداقتي مع لينتون، وتقف في وجهها أنت.

فلما رأى سيدي أنها لا تريد أن تصدقه، صور لها بإيجاز سلوك هيثكليف مع إيزابيلا، والطريقة الإجرامية التي آلت بها مرتفعات ويذرنج إلى ملكيته، ولم يكن يطيق أن يطيل الكلام في هذا الموضوع لما يسببه له من تذكارات مؤلمة، ودهشت كاثي لتلك الصورة القاتمة؛ لأنها لم تعرف من أنواع الشرور إلا الألاعيب الصبيانية التي كانت تلام عليها أحيانًا. وبلغ من استهوالها أن مستر إدجار اختصر الكلام مكتفيًا بذلك القدر.

– ستعرفين فيما بعد يا عزيزتي لماذا أريد أن تتجنبي داره وأسرته، والآن عودي إلى مشاغلك وملاهيك ولا تفكري فيهم.

فقبلت كاثراين أباها وجلست لتستذكر دروسها نحو ساعتين كالعادة كل صباح، ثم صحبته إلى الحقول. وانقضى ذلك اليوم كما تنقضي سائر الأيام. ولكنني عندما حل المساء وذهبت إلى حجرتها لأساعدها في خلع ثيابها، وجدتها تنتحب وهي راكعة بجانب فراشها، فعجبت وسألتها:

– ما هذا أيتها الحمقاء؟ إن حياتك خالية من الأكدار الجدية التي تستحق قطرة واحدة من هذه الدموع! افرضي مثلًا أن سيدي أو أنني مت وأصبحت وحدك في هذا العالم، ماذا يكون شعورك إذن؟ قدري هذه المحنة وقارنيها بما تبكين من أجله، ثم احمدي الله على نعمته السابغة وجففي دموعك.

– لست أبكي من أجل نفسي يا نللي، بل من أجله هو؛ فقد كان يتوقع أن يراني غدًا، ولكنه سينتظرني عبثًا.

– هراء هل تظنين أنه يفكر فيك كما تفكرين أنت فيه؟ أليس لديه رفيق يسليه هو هيرتون؟ ما من أحد في الدنيا يبكي هكذا لفقد قريب لم يره إلا مرتين، ولا شك أن لينتون سيدرك الموقف ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك.

قالت وهي تنهض واقفة على قدميها:

– ألا ينبغي أن أكتب إليه لأفسر له سبب تخلفي؟ وأحب أيضًا أن أرسل إليه هذه الكتب التي وعدته أن أقرضه إياها، فقد رأيت كتبه ولم أجدها جميلة ككتبي، فلما حدثته عن كتبي أظهر تشوقًا كبيرًا للحصول عليها.

– ما شاء الله، تكتبين إليه فيكتب إليك، وهكذا دواليك إلى غير نهاية؟ كلا يا آنسة، يجب أن تقف العلاقة نهائيًا وتنقطع. هذا هو ما يريده والدك، ومن واجبي أن أنفذه.

فبدأت شفتها ترتعد وتقول في ضراعة:

– ولكن كيف بالله يمكن لرسالة من سطرين أن..

– صه لا رسائل مطلقًا، هيا إلى فراشك!

فرشقتني بنظرة تفيض شرًا، حتى إنني أحجمت أول الأمر عن تقبيلها قبلة المساء، فغطيتها ثم أغلقت الباب وأنا مقطبة الجبين، ولكني بعد أن خطوت خطوتين في الدهليز لم يطاوعني قلبي فعدت على أطراف أصابعي لأقبلها. ولكن ما هذا؟ وجدت الآنسة واقفة أمام المنضدة وفي يدها ورقة وقلم أخفتهما عني حين شعرت بدخولي فقلت لها:

– إنك لن تجدي من يحمل رسالتك إليه يا كاثراين إن أنت كتبتها.

ثم أطفأت الشمعة، ورنت في الظلام صفعة على يدي، وبعد أن خرجت سمعتها تغلق الباب بالمزلاج من الداخل بعنف شديد.

ويؤسفني أن أقول إنها تمكنت من كتابة الخطاب، وتمكنت أيضًا من جعله يصل إلى المرسل إليه على يد اللبان، ولكننا طبعًا لم نعرف هذا في حينه. وإنما عرفنا أن كاثي أقلعت عن غضبها بعد أيام قليلة. وصارت منشرحة المزاج، وإن كانت مغرمة بالانفراد بنفسها في الأركان بين الحين والحين وفي يدها كتاب مفتوح، فإذا اقتربت منها فجأة وهي تقرأ أجفلت ودست رأسها بين دفتي الكتاب كمن تريد أن تخبئ صفحته. ثم فطنت إلى أطراف أوراق منفصلة تطل من بين الصفحات، ولما راقبتها في جميع حركاتها وجدتها تبكر على غير العادة في النزول إلى المطبخ والحومان حوله، كمن تترقب وصول شيء.

وكان لكاثراين درج خاص في دولاب بالمكتب، فلفت نظري أنها في المدقة الأخيرة تجلس للتقليب في محتوياته ساعات، وأنها تحتفظ بمفتاحه معها، وتحرص على ألا تتركه في الدرج، وعهدي بذلك الدرج لا يحتوي إلا على لعبها، فلما اقتربت ذات يوم من الدرج وهي تفحصه وجدت تلك اللعب قد اختفت وحل محلها عدد كبير من الأوراق الصغيرة المطوية، فثارت شكوكي وصممت أن ألقي نظرة على محتويات ذلك الدرج وحدي.

وفي تلك الليلة ظللت ساهرة إلى أن نامت ونام سيدي، ثم بحثت بين مفاتيحي الخاصة بالبيت عن مفتاح يفتح ذلك الدرج، فلما انفتح أفرغت

جميع محتوياته في حجري وأسرعت إلى حجرتي، وإذا بي أفاجأ بكتلة هائلة من الرسائل اليومية الواردة من لينتون هيثكليف، متضمنة الرد على مثيلات لها كانت ترسل إليه يوميًا.

ولاحظت أن الرسائل الأولى كانت مقتضبة، يبدو عليها التعثر والحرج، وتدريجًا استفاضت إلى رسائل غرام مطولة تتأجج حرارتها شيئًا فشيئًا، ولفت نظري أن أسلوب خطابات الفتى لا يصور طبعه الخائر في كثير من المواضع.

ولما فرغت من قراءتها كلها جعلتها في منديل وأخفيتها عندي، ثم أقفلت الدرج فارغًا.

ولما نزلت سيدتي إلى المطبخ مبكرة، راقبتها خلسة عن كثب، ورأيتها تدنو من الباب عند وصول غلام معين، وفي الوقت الذي كانت فيه الخادمة تفرغ اللبن دست كاثي شيئًا في جيب سترته واستخرجت شيئًا آخر. خرجت أنا من باب الحديقة، وكمنت للرسول الصغير قرب البوابة، وناضل الرسول والحق يقال عن أمانته نضالًا محمودًا إلى أن انقلب وعاء اللبن فانسكب على الأرض، فانزعج وسنحت لي الفرصة فاستوليت على الرسالة التي دبجتها براعة كاثراين، ووجدتها والحق يقال أدنى إلى البساطة، ولكنها أبلغ وألصق بالقلب من رسائل ابن عمتها، كانت شيئًا ساذجًا جميلًا في حماقته.

وهززت رأسي ثم مضيت إلى البيت، ولما كان اليوم مطيرًا، لم تتمكن كاثي من الخروج للنزهة في الحقول. ولهذا لما فرغت من استذكار دروسها كالعادة ذهبت لتشغل نفسها بدرجها العتيد في المكتبة. وكان والدها في ذلك الوقت جالسًا إلى المكتب يقرأ، وتعمدت أنا أن آخذ الخيط والإبرة

وأذهب لأصلح بعض هنات في ستائر المكتبة، وعيني بطبيعة الحال ترقب آنستي.

ولم أر في حياتي مثل فزعها، أرأيت إلى الطائر يغدو إلى وكره فيجد أن ثعبانًا عدا في غيبته على صغار أفراخه؟ لن يبلغ فزع الطائر في تلك اللحظة مبلغ فزع كاثراين. وقد عبرت عنه بشهقة عالية سمعها مستر إدجار، فرفع رأسه ونظر إليها قائلًا: «ما خطبك يا حبيبتي؟ هل آذيت نفسك بشيء؟».

فأيقنت من لهجته ونظرته أنه ليس مقترف الفعلة. فقالت بسرعة:

– لا شيء يا أبتاه، نللي، نللي، تعالي معي إلى حجرتي فإني مريضة.

فتبعتها فورًا، وما إن خرجنا من المكتبة حتى تعلقت بي قائلة:

– أنت التي أخذتها يا نللي، أعطينيها ولن أعود إلى مثل ذلك أبدًا، لا تخبري أبي، إنك لم تخبريه يا نللي؟ قولي إنك لم تخبريه، لقد أخطأت خطأ فظيعًا ولكني لن أعود لمثلها.

فلم أغير مسحة الجد وقلت لها بحزم:

– أنت إذن يا آنسة كاثراين قد بلغت هذا المبلغ من الخداع. ثم تريدين بعد ذلك أن تستردي ما كان ينبغي أن تخجلي منه؟ مجموعة لطيفة من الأقذار تعكفين عليها الساعات وكأنك تستذكرين أثمن العلوم والفنون. ولا عجب، فهي شيء يصلح للنشر والطبع. وماذا تظنين سيدي قائلًا حين أضعها بين يديه؟ إني لم أفعل ذلك بعد، ولكن لا تخالي أنني قادرة أن أكتم سرك الشنيع. يا للعار! ولا بد أنك أنت التي بدأت وفتحت

الباب لتلك الترهات كلها، فإني أعرفه لا يجسر أن يبدأ من تلقاء نفسه.

فأجهشت بالبكاء وقالت: «ليس هذا صحيحًا، ولم أفكر لحظة واحدة في حبه».

فصرخت بأقصى ما استطعت من الاستنكار:

- حبه؟ أتقولين حبه؟ هذا شيء لم يسمع به من قبل. أقرب من هذا أن أتصور وقوعك في غرام الطحان الذي يأتي كل عام مرة ليشتري قمح الضيعة! حب جميل حقًا إنك لم تري لينتون سوى مرتين. وبضع ساعات في كل مرة لا أكثر، والآن هذه هي النفايات الصبيانية في هذا المنديل، وسأذهب بها الآن إلى المكتبة لنرى رأي أبيك في هذا الغرام البديع.

فهجمت علي لتنتزعها مني فدفعتها بشدة، فتوسلت إلي أن أفعل أي شيء، أن أحرقها إن لزم الأمر ولا أطلع أباها عليها. فرق قلبي وقلت لها:

- إن أنا وافقت على إحراقها، هل تتعهدين بشرفك ألا ترسلي إليه أو تتلقي منه رسائل أو كتبًا أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبًا أو أي شيء؟

فثارت كبرياؤها حتى طغت على خجلها وخوفها وصاحت:

- لعبًا؟ نحن لا نتبادل اللعب!

- أي شيء من أي نوع، تعهدي الآن أو أذهب إلى أبيك فورًا.

فتعلقت بثيابي وصاحت: «أتعهد يا نللي! ألقيها في النار».

ولكني ما توجهت إلى المدفأة وأفسحت بين الفحم مكانًا بالقضيب لألقيها، حتى انفطر قلبها وراحت تتوسل بدمع منهمر أن أبقي على واحدة أو اثنتين، فقاومت ضعفي وفتحت المنديل وبدأت ألقيها في النار، فصرخت ودست يدها بين ألعام اللهب وأخرجتها ببقايا من تلك الرسائل، غير مبالية بما أصاب أناملها من الحروق. فقلت لها: «حسنًا سأذهب بما في المنديل إذن إلى أبيك».

فأذعنت يائسة وألقت ما كان في يدها، وأتممت عملية الإحراق وهي تحملق في النار كالمشدوهة. ثم اعتكفت في حجرتها فتركتها تبكي، ونزلت فقلت لسيدي إنها متوعكة ومن الخير أن تترك بمفردها في الوقت الحاضر.

ولم تجلس للغداء في ذلك اليوم، ولكنها نزلت في وقت الشاي، وقد احمرت عيناها وشحب وجهها، وفي اليوم التالي أعطيت اللبان الرد الذي كتبته بنفسي:

- السيد لينتون هيثكليف، المرجو منه ألا يرسل بعد الآن أي رسالة إلى الآنسة كاثراين لينتون؛ لأنها لن تتسلمها.

## صبر بلا ضفاف

كاد الصيف يبلغ نهايته، وبدأت بواكير الخريف، بيد أن الحصاد في هذه العام كان متأخرًا، وبقيت لدينا حقول لم يتم حصادها، وكان مستر إدجار يذهب في كثير من الأحيان مع ابنته لمراقبة الحصادين، وكثيرًا ما كان يتأخر إلى المساء، فأصيب سيدي ببرد شديد جعله يلزم الدار طيلة الشتاء.

وكانت كاثي المسكينة حزينة لافتضاح سرها، ولما كان والدها يجهل السر فقد عزاه إلى كثرة القراءة، وأشار بأن تكثر من النزهة في الخلاء وتقلل من المطالعة. وبما أنها حرمت من مصاحبة أبيها، فقد رأيت أن أعوضها عن ذلك بصحبتي، ولكنني لم أكن أفرغ من مشاغلي اليومية إلا ساعتين أو ثلاث ساعات.

وبعد ظهر يوم من أيام أكتوبر أو أوائل نوفمبر، وكان الجو سيئًا بعض الشيء، رجوت سيدتي أن تؤجل نزهتها لأني كنت أتوقع هطول المطر، لكنها رفضت، فألبستها معطفًا ثم أخذت مظلتي لأصحبها إلى نهاية البستان.

ومشت في خطوات بطيئة وهي مطرقة، لا تقفز كعادتها مع أن الرياح الباردة كانت حرية أن تغريها بذلك، فجعلت أخالسها النظر، ولاحظت أنها كانت ترفع بين الحين والحين يدها فتمسح شيئًا عن صفحة خدها، فنظرت فيما حولي عسى أن تقع عيني على شيء يسليها، فرأيت على جانب الطريق نشزًا عاليًا وعرًا، تعلوه أشجار ضخمة. وكانت كاثراين في مدة الصيف تتلهى بتسلق هذه الأشجار ثم تجلس بين أغصانها على ارتفاع عشرين قدمًا عن

سطح الأرض، وتظل تتأرجح هناك في الهواء وتغني الأغاني القديمة ساعات، ولفت نظري في تلك اللحظة زهرة باثقة بين تلك الأشجار، فقلت لها:

- انظري يا آنسة، إن الشتاء لم يهجم علينا بعد، فهذه زهرة هناك لعلها آخر زهور الموسم. فلماذا لا تتسلقين لتقطفيها وتحمليها على أبيك؟

فوقفت كاثي تنظر إليها مليًا، ثم قالت:

- كلا. أما ترينها وحدها تهتز في مهب الرياح لا تجد ملاذًا؟ لن أمسها.

- أجل، إنها مسكينة وهزيلة مثلك، أعطيني يدك وتعالي نتسابق في الجري، وأظن أنك في ضعفك الحالي لن تسبقيني.

فهزت رأسها سلبًا، ثم انفجرت باكية. فوضعت يدي حول كتفها وقلت لها: «لماذا تبكين يا حبيبتي؟ لا ينبغي أن تبكي لأن والدك أصيب ببرد، واحمدي الله على أن مرضه ليس أسوأ من هذا».

- بل سيكون أسوأ، وماذا أستطيع أن أصنع إذا تركني أبي وحيدة في العالم؟ إني لم أزل أذكر قولك لي يومًا أنني سأكون بلا معين بعد موتكما.

- الأعمار بيد الله، لا تفكري في الشر قبل وقوعه. ولنسأل الله أن تمر سنوات وسنوات قبل أن ينقضي أجل أحدنا، فالسيد ما زال شابًا، وأنا ما زلت قوية ولم أتجاوز الخامسة والأربعين، وقد عاشت والدتي إلى سن الثمانين. وإذا فرضنا أن والدك عمر إلى الستين فأمامه فسحة طويلة من الزمن، وليس من الحكمة أن تبكي على مصيبة قبل وقوعها بعشرين عام».

– ولكن عمتي إيزابيلا كانت أصغر من أبي؟

– إن عمتك إيزابيلا لم يكن عندها من يمرضها مثلي ومثلك، ولم يكن لديها من أسباب السعادة في الحياة ما تعيش له، وكل ما عليك أن تحسني القيام على خدمة أبيك، وأن تشيعي البهجة في نفسه بما يراه من البهجة عندك. ولا أكتمك أنك يمكن أن تقتليه قتلًا إذا نغصت حياته بمتاعبك، أو عرف أنك تكنين الهوى لابن شخص يتمنى له الموت، أو أنك حزينة لفرقة فرضها عليك.

– لست حزينة على شيء في الدنيا إلا مرض أبي، ولا يعنيني شيء بالقياس إلى حياته، وأقسم أنني لن أقدم على فعل أو قول يكدره، فأنا أحبه أكثر من نفسي يا نللي، حتى إنني أصلي كل ليلة وأبتهل إلى الله أن أعيش بعده؛ لأنني أوثر أن أشقى بفقده على أن يشقى بفقدي.

– كلام جميل، ولكن يجب أن يقترن بفعل يدل عليه، ويجب أيضًا بعد أن يتم شفاؤه ألا تنسي القرارات التي تعهدت بها ساعة الخوف على حياته.

وبلغنا في سيرنا بابًا يفضي إلى الطريق، وكان المرح قد عاد إلى سيدتي، فتسلقت السور وجلست فوقه، فحذرتها من الوقوع. بيد أنها تسلقت السور من الخارج غير مكترثة بتحذيري؛ كي تقتطف ثمرة من شجرة على حافة الطريق، وكان الباب موصدًا والمفتاح ليس معي، وكنت أعلم أن تسلق السور من الخارج صعب لأنه أملس، فسرعان ما سمعتها تصيح من الخارج ضاحكة:

– يجب يا نللي أن تأتي بالمفتاح، فالتسلق من هنا مستحيل.

– انتظري فربما استطعت أن أفتح الباب ببعض ما معي من المفاتيح، وجعلت كاثراين تسلي نفسها بالرقص أمام الباب وأنا أجرب المفاتيح واحدًا بعد الآخر، فلم أجد فيها ما يقوم بالمرام. فكررت عليها أن تلزم مكانها إلى أن أعود بالمفتاح من البيت بأسرع ما أستطيع، وإذا بصوت يستوقفني كما استوقف رقص كاثي، وكان حوافر جواد على الطريق، فسألتها من وراء الباب همسًا: «من هذا؟».

– آه يا نللي. ليتك تستطيعين فتح الباب.

ودهشت للهجتها، ثم سمعت صوتًا عميقًا هو صوت الراكب يقول:

– الآنسة لينتون؟ كم يسعدني أن أقابلك هنا الآن. كلا، لا تتعجلي الدخول لأن عندي ما أفضي به إليك وما أسألك عنه.

– لن أتحدث إليك يا مستر هيثكليف؛ فوالدي يقول إنك رجل شرير تكرهه وتكرهني، ونللي أيضًا شهدت بذلك.

– ليس هذا هو الموضوع، فإني على كل حال لا أكره ابني، والموضوع الذي سأكلمك فيه يتصل بابني، أجل محق لك أن تحمري خجلًا، ألم تكوني منذ شهرين أو ثلاثة تكتبين إلى لينتون يوميًا رسائل غرام؟ أكنتما تتلهيان؟ إنكما تستحقان الجلد جزاء على هذا العبث. ولا سيما أنت لأنك أكبر سنًا وأبلد إحساسًا، إن خطاباتك تحت يدي، وإذا لم تطيعيني أرسلتها إلى أبيك، فإني أحسبك قد سئمت تلك اللعبة فأقلعت عنها، ولكن لينتون المسكين كان جادًا فأحبك حقًا. وأقسم لك أنه يعاني الآن سكرات الموت من أجلك، وسوف يواريه القبر قبل الصيف القادم إن لم تنقذيه من براثن الموت المحتوم.

فلما سمعت هذه المقالة صرخت من الداخل:

- كيف تتجاسر على هذا الكذب والبهتان لتروع المسكينة؟ أرجو أن تستأنف طريقك وتكف عن أكاذيبك. سأحطم قفل الباب بحجر يا آنسة، فلا تصدقي هذا المزور، لا تصدقي أن شخصًا يمكن أن يموت عشقًا لشخص غريب لم يره إلا مرتين.

فقال هيثكليف يوجه إلي الكلام ساخرًا:

- لم يخطر ببالي أن هناك من يسترق السمع، لقد عرفت صوتك يا مسز دين. وأنا كما تعلمين أحبك ولكني لا أحب نفاقك، كيف تتجاسرين فتكذبين ذلك الكذب المفضوح على الفتاة وتؤكدين لها أنني أكرهها كي تبعديها عن بابي؟ ومهما يكن ذلك صحيحًا يا كاثراين لينتون فإني سأغيب عن البيت طيلة هذا الأسبوع. وهذا ضمان لك أنك لن تري وجهي حين تذهبين لزيارة لينتون، وسترين بنفسك أنني لم أكذب عليك، سترينه طريح الفراش مشرفًا على الهلاك بسبب حبك. وتخيلي يا عزيزتي أباك في مكاني، ولينتون في مكانك، فهل تغفرين لمن تحبين أن يحجم عن الخطو خطوة واحدة لإنقاذك من العذاب حتى بعد أن يرجوه في ذلك والدك؟ لا يذهبن بك الغباء بعيدًا يا بنيتي، وإني أقسم لك بكل مقدس إنه على حافة القبر، وأن أحدًا لن ينقذه منه سواك.

وفي هذه اللحظة تحطم القفل وبرزت إليهما، فاستطرد هيثكليف وهو يحملق في وجهي:

- أقسم أن لينتون يموت، وأن الحزن والحسرة يعجلان ساعته، وأناشدك يا

نللي إن بقيت مصرة على منعها من الذهاب، أن تذهبي إلى هناك وحدك لتتأكدي من ذلك. ثم إنني لن أعود إلى البيت إلا بعد أسبوع، وما أظن أن سيدك نفسه يعارض في أن تزور ابن عمتها في غيابي.

فجذبت كاثي من ذراعها وأرغمتها على الدخول لما رأيتها تتلكأ وتحملق بعينين زائغتين في وجه محدثها الذي أجاد التمثيل، فانحنى من فوق جواده وقال:

– أعترف لك يا آنسة كاثراين بأن صبري ضاق بلينتون، وضاق به صبر هيرتون وجوزيف من قبلي. وأنه لا يجد رفقًا ولا حنانًا من أحد، فهو ظمآن إلى العطف وإلى الحب، وكلمة رقيقة منك خير دواء لنفسه المريضة، فلا تكترثي لتحذيرات مسز دين القاسية، بل أطيعي كرم نفسك وتوجهي لزيارته، وقد رسخ في نفسه من سلوكك أنك تكرهينه، وهذا هو الذي يضنيه.

وأغلقت الباب ثم جعلت وراءه من الداخل حجرًا ضخمًا ونشرت مظلتي ثم رفعتها فوق رأس كاثراين؛ لأن المطر كان قد بدأ ينهمر من بين أغصان الأشجار، وينذرنا بأن نعجل عودتنا قبل انفجار العاصفة.

وكانت هذه السرعة حائلًا دون التعليق على رواية هيثكليف، ولكني أدركت بغريزتي أن قلب كاثراين ملبد بالغيوم، فوجهها حزين ونظراتها ساهمة، مما يدل على أنها صدقت كل حرف سمعته.

وكان السيد قد اعتكف للراحة قبل وصولنا، فتسللت كاثي إلى حجرته لتستفسر عنه، فلما وجدته قد نام، عادت وطلبت مني أن أجلس معها في

المكتبة. وتناولنا الشاي معًا، ثم رقدت بعد ذلك فوق البساط وطلبت مني ألا أتكلم لأنها مرهقة، فتناولت كتابًا وتصنعت القراءة، حتى إذا ظنت أنني استغرقت فيما أقرأ أخذت تنتحب في صمت، فالبكاء الصامت أمسى في الفترة الأخيرة تسليتها المفضلة.

وآثرت أن أتركها تسري عن نفسها بذلك البكاء الصامت برهة، ثم انطلقت بعدها أظهر بطلان ما ذكره هيثكليف عن ابنه، ولكن للأسف الشديد لم أتمكن من إبطال الأثر الذي تركه في نفسها، إذ قالت لي:

– ربما كنت على حق يا نللي، ولكني لن أهدأ بالًا إلى أن أعرف عن يقين، ويجب أيضًا أن أخبر لينتون أنه لا ذنب لي في الإقلاع عن مراسلته، وأؤكد له أنني ثابتة على العهد لا أتحول ولا أتغير.

أي جدوى في الغضب والاحتجاج أمام حنين قلب ساذج؟

لقد افترقنا تلك الليلة متخاصمتين، لكن الصباح الباكر شهدني أحث السير في الطريق إلى مرتفعات ويذرنج بجوار مهر سيدتي، فقلبي لم يطاوعني أن أشهد حزنها وشجونها وتقرح جفنيها ولا أحرك ساكنًا. وكنت أؤمل أن نجد لينتون في حالة تكذب رواية أبيه تكذيبًا صريحًا، تكشف الليل المطير عن صباح تغطي وجهه أستار الضباب. وكانت الأرض الرطبة تضايقني تحت قدمي، فتزيد في انقباض صدري، حتى إذا بلغنا المرتفعات دخلنا من طريق المطبخ كي نتأكد أن مستر هيثكليف غائب حقًا، فما كنت أقيم كبير وزن لصدق حديثه عن نفسه أو عن غيره.

ولما تأكدت من جوزيف أن هيثكليف غير موجود حقًا، دخلت مع سيدتي

إلى القاعة الدافئة التي يجلس فيها لينتون. فلما سمع وقع أقدامنا وظهره إلى جهتنا، ظن أن الداخل خادمه جوزيف الذي يتلكأ في تنفيذ رغباته، فصاح: «أتمنى لك أن تموت جوعًا».

فلما أدرك خطأه صمت، وخفت بنت خاله إليه، فرفع رأسه عن ذراع المقعد الكبير الذي كان مضطجعًا فيه وقال:

– أهذه أنت يا آنسة لينتون؟ كلا، لا تقبلي فمي؛ لأن هذا يعطل تنفسي ويجعلني ألهث بعدها مدة طويلة.

ولما استراح قليلًا من عناق كاثراين الحار، نظر إليها وقد جلست إلى جواره تحملق فيه، وقال: «لقد أخبرني أبي أنك ربما حضرت، هل لك أن تغلقي الباب من فضلك، فقد تركته مفتوحًا. وهؤلاء.. هؤلاء الأسافل لا يسعفونني بفحم للمدفأة، والبرد شديد».

فقمت أنا ورفعت الرماد وأحضرت كمية من الفحم بنفسي، فتذمر لينتون من تطاير بعض الرماد فوق ثيابه وأغطيته، ثم جعل يسعل سعالًا متعبًا، فظهرت على وجهه أمارات الحمى والإعياء. حتى إذا انتهت النوبة، قالت له كاثراين هامسة: «والآن يا لينتون، هل أنت مسرور لحضوري؟».

– لماذا لم تحضري من قبل؟ كان ينبغي أن تحضري بدل كتابة الرسائل، فكتابة هذه الرسائل الطويلة كانت تتعبني جدًا. وكنت أفضل كثيرًا أن أتحدث إليك بلساني، أما الآن فلا أستطيع أن أتكلم أو أكتب أو أي شيء.

فرأيت خيبة الأمل تبدو على كاثراين لهذا الفتور الذي قوبلت به مودتها. فقلت له: «هل والدك يرعاك كما يجب؟».

– يرعاني؟ بل ليته يجعلهم أكثر رعاية، هؤلاء المناكيد. أتعلمين يا آنسة لينتون أن هذا العتل هيرتون يضحك مني، أنا أكرهه وأكرههم جميعًا؛ فهم بغيضون. اسقيني.

ولما كنت لم أتلقَ منه كلمة ثناء على خدمتي وتعبي في المدفأة، لم أنشط بسرعة كافية لإجابة هذا الطلب، فأسرعت كاثي وأتته بكوب ماء، فأمرها أن تضيف إليه ملعقة من النبيذ من قنينة على المائدة، وبعد أن احتسي جرعة شعر بالراحة وشكرها، فسرها أن تتنسم على وجهه شبح ابتسامة، فكررت سؤالها:

– هل أنت مسرور لحضوري؟

– نعم مسرور، فصوتك يضيف نغمة جديدة في هذه الدار، ولكنني تحملت كثيرًا من اللوم بسبب عدم حضورك فيما مضى، وكان أبي يقسم أنني المسؤول؛ لأنني لم أعجبك كما ينبغي، وراح ينعتني بالخسة والتفاهة، ويزعم أنك تحتقرينني، وإنه لو كان في مكاني لأصبح الآن سيد الجرانج أكثر من والدك، ولكن هل تكرهينني يا آنسة؟

– بل قل كاثراين أو كاثي، أنا أكرهك؟ كلا، إنك أحب شخص إلي بعد أبي ونللي، ولكني لا أحب مستر هيثكليف، ولن أحضر عندما يعود، فهل سيطول غيابه؟

- لن يطول أيامًا كثيرة، بيد أنه يكثر من الذهاب إلى الأحراش منذ ابتداء موسم الصيد. وفي استطاعتك أن تمضي معي ساعة أو ساعتين أثناء غيابه، قولي إنك ستفعلين، وثقي بأنني لن أغضبك؛ لأنك لن تثيري غضبي.

فأجابت كاثراين وهي تربت على شعره الطويل الناعم:

- لو استطعت أن أحصل على موافقة أبي، إذًا لقضيت نصف وقتي معك يا لينتون الجميل. ليتك كنت أخي!

فتهللت أسارير الشاب وقال لها: «وفي هذه الحالة هل تحبيني كما تحبين أباك؟ ولكن أبي يقول إنك ستحبينني أكثر مما تحبين أباك، وأكثر من العالم كله حين تتزوجينني. ولهذا أفضل أن أكون زوجك».

فقطبت جبينها وقالت له بجد:

- كلا، لن أحب أي إنسان أكثر مما أحب أبي! ثم إن الناس قد يكرهون زوجاتهم في بعض الأحيان، أما إخوتهم وأخواتهم فلا. ولو كنت أخي لعشت معنا، ولأحبك أبي وتعلق بك كما يحبني ويتعلق بي.

- أبي قال لي إن الزوجة تحب زوجها أكثر من أبيها، وأبي لا يكذب.

- وأبي أفهمني أن الأزواج قد يكرهون زوجاتهم ويسومونهن العذاب وضرب لي مثلًا سوء معاملة والدك لعمتي إيزابيلا.

فأدركت وخامة هذا الاتجاه، وحاولت أن أحول مجرى الحديث، ولكن

جهودي ذهبت هباء. فلم تسكت كاثراين إلا بعد أن صرحت بكل ما تعرف عن أبيه وأمه، فصاح لينتون: «أبي يكره أباك. ويسميه المغفل الدساس».

– وأبوك رجل شرير، وأنت شرير أيضًا لأنك تتجاسر على ترديد ما يقول، ولا بد أنه سيء جدًا حتى اضطرت عمتي إيزابيلا إلى أن تهجره كما فعلت.

– إنها لم تهجره، فلا تكذبيني!

فقدحت عيناها بالشرر، وصاحت: «بل هجرته!..».

– إذن سأقول لك أنا شيئًا خطيرًا أهم من هذا كله. كانت أمك تكره أباك وتتمنى أن يموت لتتخلص منه، كانت تحتقره، فما قولك؟

فاشتد الغضب والحنق بكاثراين حتى لم تزد على أن صاحت: «أوه!..».

– وكانت في الوقت نفسه تحب أبي أنا.

فقفزت واقفة، وصاحت: «أيها الكذاب! الآن أكرهك أنا!».

فغاص لينتون في مقعده وراح يغني: «كانت تكرهه.. تكرهه كانت..».

وهو يرمق كاثراين مستطيبًا مظاهر غيظها، فقلت له:

– صه يا سيد لينتون هيثكليف! هذه رواية أبيك أيضًا.

– ليست روايتهأ فأمسكي لسانك، كانت تكرهه يا كاثراين. آه.. كانت تكرهه، تكرهه كانت.

فلم تتمالك كاثي نفسها وضربت مقعده بقدمها فانكفأ لينتون على الذراع الأخرى، واستولت عليه نوبة من السعال الخانق وضعت حدًا لأناشيد انتصاره، وكان السعال شديدًا جدًا حتى خفت أنا أيضًا. أما بنت خاله فجعلت تبكي بكل قواها مذعورة مما اقترفته، وتناولته بين ذراعي إلى أن ذهبت النوبة، وعندئذ تلقيت شكره في صورة دفعة قوية في صدري، فكفت كاثراين عن البكاء، وجلست في مقعد مواجه له وراحت تحدق في النار.

وبعد عشر دقائق سألته عن صحته فقال:

– أتمنى لو أحسست بما أحس به من أوجاع، إنها مخلوق قاس كريه، هيرتون نفسه لم يلمسني قط، وكنت أشعر اليوم أنني أحسن إلى أن ضربتني.

فجعلت كاثي تعض شفتيها حتى لا تنفجر باكية وقالت: «أنا لم أضربك».

فتنهد وتوجع لمدة ربع ساعة، وأدركت أنه يمثل الألم ليفزع بنت خاله؛ لأنه لما رآها تشرع في البكاء زاد في تأوهه، إلى أن أقبلت عليه متوسلة:

– أنا آسفة لإيلامك يا لينتون، ولكني لم أحسب أنك ستتأذى من دفعة هينة كهذه، لا تتركني أعود لبيتي وأنا أظن أنني آذيتك!

– لا أستطيع أن أكلمك، لأنك آذيتني جدًا، حتى إنني سأظل طول الليل مؤرقًا بالسعال، ولو أصابك هذا السعال لعرفت أي شيء هو، ولكنك للأسف ستكونين راقدة منعمة بالنوم المريح، وأنا أتعذب وليس بقربي أحد.

ثم بدأ يتأوه ويتوجع بصوت مرتفع. وعندئذ قلت له:

– بما أن الآنسة هي التي تعكر صفو راحتك، فلا لزوم لحضورها، وهي تضايقك بالحضور بعد الآن. وربما كان خيرًا لك أن ننصرف فورًا.

فانحنت فوقه كاثراين وقالت تدلله:

– هل يجب أن أذهب؟ أتريدني حقًا أن أنصرف يا لينتون؟

فأجابها وهو يبتعد عنها قدر ما سمح له مقعده: «لن تغيري ما فعلته يدك، اللهم إلا أن تتسبي بمضايقاتك في إصابتي بحمى».

– هل معنى هذا أنك تريدني أن أنصرف؟

– دعيني وحدي على الأقل، واسكتي فلست أتحمل كلامك.

فجعلت تتلكأ، وقاومت إلحاحي في الرحيل فترة طويلة، حتى إذا وجدته لا ينظر إليها ولا يكلمها طول تلك الفترة، اتجهت نحو الباب وأنا من ورائها، فردتنا عنه صرخة، فقد وقع لينتون من فوق كرسيه واصطدم برخامة المدفأة، وأدركت من الوضع الذي كان عليه، ومن صرخاته وعدم محاولته النهوض، أنه فعلها عمدًا، وأدركت أن الخضوع له وملاينته ينطويان على خطر كبير. بيد أن كاثراين لم تكن على هذا الرأي، فعادت إليه مذعورة، وركعت بجانبه وانفجرت تنتحب وهي تدلله وتربت عليه وتقبله، إلى أن سكت لانقطاع أنفاسه لا رغبة منه في الكف عن إيلامها. فقلت:

– سأحمله إلى الأريكة، وهناك يستطيع أن يتلوى ويتقلب على هواه؛ لأنه لا وقت لدينا كي نبقى لمشاهدته، وأرجو يا آنسة كاثي أن تكوني قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذي يصلح وجوده من شأنه، وأن حالته

الصحية السيئة لا علاقة لها بتعلقه المزعوم بك، فهذا هو أمامك، وقد وضعته على الأريكة. فتعالي ننصرف، وثقي أنه متى أيقن من عدم وجود من يتألم لادعاءاته، سيقلع عنها ويرقد ساكنًا.

فوضعت وسادة تحت رأسه، وقدمت إليه كوب ماء وهي تدعو على نفسها بالهلاك، فرفض الماء، وجعل يتلوى فوق الوسادة، وكأنها شوك يقض مضجعه، وحاولت كاثي أن تسويها، فصاح: «هذه لا تنفعني. إنها ليست عالية».

وجاءته بوسادة أخرى، قال بتأفف: «وهذه أعلى مما يجب».

– كيف تريدني أن أسويها إذن؟

فارتفع قليلًا واتخذ من كتفها متكأ لرأسه. فقلت أنا:

– كلا، هذه لا تصلح، يجب أن تكتفي بالوسادة؛ لأن الآنسة ضيعت وقتًا أكثر مما يجب معك، ولن نمكث خمس دقائق أخرى.

وإذا كاثي تعترضني قائلة:

– بل نستطيع، إنه طيب وصبور، وقد بدأ يفهم أنني سأتألم الليلة أكثر مما يتألم إذا أعتقدت أن زيارتي آذته، وسيجعلني هذا الاعتقاد أحجم عن الحضور مستقبلًا. قل الحقيقة يا لينتون، فلن أعود إن كنت قد آلمتك.

– يجب أن تعودي لتشفيني؛ لأني لم أكن مريضًا بهذا الشكل عندما دخلت أنت.

– ولكنك أنت الذي أمرضت نفسك بصراخك وانفعالك.

– لست أنا السبب على الإطلاق، ومهما يكن من شيء فسنكون منذ الآن صديقين، وعلى هذا ألا ترغبين في أن تريني في بعض الأحيان؟

– قلت لك إنني أريد.

– والآن أجلسي على الأريكة لأرقد على ركبتك، كما كانت أمي تفعل طول ما بعد الظهر. اجلسي مثلها جامدة ولا تتحركي ولا تتكلمي، ولكن يمكنك أن تغني إن كنت تعرفين الغناء، أو تحكي لي حكاية، هيا ابدئي!

فشرعت كاثراين تروي له أطول حكاية تعرفها، ثم أطول أغنية، وطابت هذه العملية للاثنين، فطلب منها لينتون أغنية أخرى وثالثة ورابعة، فاستجابت له برغم اعتراضاتي، إلى أن دقت الساعة اثنتي عشرة دقة، وسمعنا هيرتون في الفناء وقد عاد للغداء، فنهضت كاثراين على مضض ولكن هيثكليف الصغير تعلق بثوبها وقال: «وغدًا يا كاثراين؟ ألا تأتين غدًا؟».

– كلا، ولا بعد غد أيضًا.

ولكن لا شك أنها همست في أذنه بإجابة مخالفة، لأن أساريره تهللت بعدها. فلما بارحنا البيت قلت لها: «لن تأتي غدًا يا آنسة، لا تحلمي بهذا».

فابتسمت ولم تجب، فاستطردت قائلة: «سأحرص على هذا جيدًا، وسأصلح قفل باب الحديقة. ولن تجدي منفذًا للهرب».

فاستضحكت وقالت:

– أستطيع أن أقفز من فوق السور، فالجرانج ليست سجنًا، وأنت يا نللي لست سجاني. ثم إنني أوشكت أن أبلغ السابعة عشرة، أي إنني إمرأة، وأنا واثقة أن لينتون سيشفى بسرعة إذا عنيت بأمره. وسأجعل منه قطتي المدللة، لن نتشاجر بعد أن يألف كل منا صاحبه، ألا تحبينه يا نللي؟

– أحبه؟ إنه أسوأ غلام رأيته في حياتي طبعًا وخلقًا، ولكن من حسن الحظ أنه كما يقول مستر هيثكليف لن يعمر إلى سن العشرين، بل لا أعتقد أنه سيعمر إلى الربيع القادم، ولن يكون فقده خسارة كبيرة لأسرته في أي وقت حانت منيته، ومن حسن حظنا أيضًا أن أباه أخذه، فإن تدليلنا له كان حريًا أن يجعله يمعن في الأنانية، وما أعظم سروري لأن الفرصة لن تسنح لك كي تتخذي منه زوجًا يا آنسة يا كاثراين.

فاستاءت كاثراين جدًا لهذا التجريح، وللحديث عن موته بهذه السهولة، وسكتت برهة طويلة تفكر في قطوب ثم قالت: «إنه أصغر مني، فالمعقول أن يعمر أكثر مني، وسيعمر، إن ما به برد كالذي أصاب أبي، وأنت تقولين إن أبي سيتحسن، فلماذا لا يتحسن هو أيضًا؟».

ففرغ صبري وصحت بها:

– حسنًا، يجب ألا تتعب أنفسنا الآن بالتكهنات، والمهم يا آنسة أن تضعي في ذهنك منذ الآن ما قلته لك، وما أقوله لك الآن، فعند أول محاولة منك للتوجه مرة أخرى إلى مرتفعات ويذرنج، في صحبتي أو غير صحبتي، سأخبر والدك. وما لم يسمح لك والدك، فلن تكون لك صلة بابن عمتك.

- ولكن هذه الصلة قائمة، تجددت اليوم.

- يجب إذن ألا تستمر.

- سنرى!

ثم لكزت مهرها فأسرع بها، وتركتني أتعثر، فلما وصلنا إلى الدار حسب والدها أننا كنا نتنزه في البساتين كالعادة، ولم يسألنا على التأخير حسابًا.

بيد أن رطوبة ذلك النهار، وابتلال ثيابي أثناء الرحلة جعلاني أستيقظ في اليوم التالي فأجد نفسي محمومة، وألزمتني الحمى فراشي ثلاثة أسابيع، كانت تحوطني فيها كاثراين بالرعاية التامة وتقسم نهارها بين فراش أبيها وفراشي.

وفي ختام الأسابيع الثلاثة استطعت أن أغادر حجرتي وأمشي في البيت، وبعد تناول الشاي جلست مع كاثراين في المكتبة وطلبت إليها أن تقرأ لي؛ لأن الضعف أزاغ بصري، فجعلت تقرأ حتى تعبت، فطلبت منها أن تسليني بالكلام، فجعلت تتنهد وتنظر في ساعتها، فأدركت أن النعاس تطرق إلى عينيها. وكانت الساعة قد قاربت الثامنة، فسمحت لها بأن تذهب لتنام.

وفي الليلة التالية أدركها النعاس في موعد مبكر عن تلك الساعة، وفي الليلة الثالثة اعتذرت بصداع عنيف واعتكفت في حجرتها منذ الساعة السابعة، وقبل أن أنام رأيت من واجبي أن أذهب إلى حجرتها لأطمئن عليها، ولكني لم أعثر لها على أثر. بحثت عنها في البيت كله عبثًا، فذهبت إلى حجرتها وأطفأت شمعتي، وجلست في الظلام بجانب النافذة، وكان القمر بدرًا فخطر لي أنها ربما خرجت للنزهة في الحديقة. وبعد فترة طويلة رأيتها

قادمة على صهوة مهرها على الطريق الخارجي، ورأيت سائسًا يبرز من مكمنه عند السور فيفتح لها الباب خلسة ويتناول منها المهر، ثم رأيتها تتسلل داخلة من نافذة حجرة الجلوس ثم تصعد حافية القدمين إلى حجرتها حيث كنت في انتظارها.

ولا أحدثك عن فزعها حين كشفت لها عن وجودي، وبعد مناورات ومداورات أعترفت بالحقيقة:

- كنت في مرتفعات ويذرنج، وإلى هناك كنت أذهب كل ليلة منذ لازمت فراشك، ورشوت السائس الصغير ميخائيل بالتصاوير الجميلة؛ كي يعد لي مهري كل ليلة وينتظر عودتي دون أن يعلم أحد في نحو الساعة التاسعة. فأنا المسؤولة الوحيدة، ولا ينبغي أن يقع عليه عقاب. ولا تظني يا نللي أنني كنت أذهب من أجل نفسي أو لذتي، بل من أجل لينتون المسكين، بل إني كنت أشعر بالشقاء في معظم الوقت إلا في مرتين أو ثلاث مرات، وقد وجدت سعادة كبرى في تمريض ابن عمتي. وإن كان ضيق الصدر يكثر من الشجار معي، ولكنه لا يتركني أخرج قبل أن أعده بالحضور في اليوم التالي وإلا بكي وساءت حاله. كما أن هيرتون يحسن استقبالي، ويهتم كثيرًا براحتي، بل تعلم المسكين حروف الهجاء كي يظفر في نظري بشيء من الاحترام، أما الأعداد فلم يحذقها بعد. ولا أدري لماذا حزن عندما ضحكت من سروره البالغ بقراءة الكتابة المنقوشة فوق المدخل.

- هذا سلوك معيب فعلًا، فعليك أن تتذكري أن هيرتون ليس أبعد قرابة منك من ابن عمتك لينتون، إن هيرتون هو ابن خالك، ويجب أن يظفر منك بالتقدير المناسب على هذا الأساس، ولو تعقلت لوجدت الباعث له على تعلم

الهجاء في هذا الوقت المتأخر جديرًا بالثناء، بل أجدر بالثناء من ذلك العليل الذي لا يريد أن يبذل أي مجهود لإدخال السرور على قلبك أو قلب أحد. إن جهوده جديرة بالتشجيع، ولا سيما أن هيثكليف الكبير غبنه وضربه بالجهل والفقر والمذلة.

– ما كل هذه المظاهرة؟ لا أحسبك تنوين البكاء، وليتك ترين لينتون الآن. إنني تعلمت كيف أسوسه وعرفت أنني يجب أن أتحرى عدم إثارته بأي ثمن، ويمكنك أن تحكمي على صاحبك هيرتون مما حدث ذات ليلة. لقد دخل علينا فوجد لينتون جالسًا في مقعده –مقعد هيرتون الذي تعود أن يجلس فيه وأنا بجواره أقرأ له– فهجم عليه وانتزعه من المقعد وانتهره قائلًا: «حتى هذا تريد أن تحرمني منه؟ دع لي مكانًا أجلس فيه على الأقل». فاستولى علي الخوف لحظة، وسقط الكتاب من يدي وأنا أجري مع لينتون هاربين من غضبه، فضرب الكتاب بقدمه فسقط في وسط المدفأة. وانفجر يقهقه، واشتد غيظ لينتون فأخذت بيده إلى المطبخ ورحت أحاول تهدئته، وهو يصرخ إلى أن جاءته نوبة السعال، وكانت نوبة بشعة، فتدفق الدم من فمه وسقط على الأرض. فصرخت أستنجد بزيلا، وكانت في الخارج تحلب البقرة فجاءت مسرعة، وجاء هيرتون أيضًا، فلما رآه على هذه الحالة حمله بين ذراعيه إلى حجرته، وهممت أن أتبعه إلى هناك، لولا أن هيرتون أدركني على السلم فمنعني، وأمرني أن أعود فورًا إلى داري. وأقسم لك يا نللي أنني جعلت أبكي وأوشكت أن أقطع شعر رأسي، والوحش يؤكد لي أنه سيكون في الصباح بخير حال. ولما خرجت لأركب مهري لحق بي وأمسك قبعته بيد ولجامي باليد الأخرى، وقال بأسف ظاهر: «إني حزين للغاية لما حدث يا آنسة كاثراين، اصفحي عني!». فرفعت سوطي وضربت به وجهه بأقصى قوتي،

وخطر لي في تلك اللحظة أن المارد حري أن يقتلني، ولكنه نظر إلي صامتًا، ثم أفلت اللجام، فأقبلت بغاية ما أسعفتني سرعة مهري. وفي اليوم التالي وجدت لينتون في حالة شبه عادية، وقضينا بعدها ثلاث ليال ونحن في صفاء تام. وقد لاحظت على العموم أن مستر هيثكليف يتجنبني، فلم أره إلا يوم الأحد الماضي؛ لأني ذهبت قبل موعدي المعتاد، وسمعته قبل أن أدخل الحجرة يغلظ القول للينتون المسكين لأنه لا يلاطفني ويتودد إلي كما ينبغي، واستنتجت من هذا ومن إشاراته إلى ما تبادلناه من كلام ونحن وحدنا أن ذلك الرجل يسترق السمع، فغضبت ودخلت عليهما وصارحته برأيي فيه، فلم يزد على أن ضحك وخرج، وقلت للينتون إننا يجب أن نتحدث بعد الآن همسًا، ولا سيما حين يريد أن يوجه إلي عتابًا أو ملامًا.

وتوقفت عن الكلام لحظة، ثم وضعت يديها فوق كتفي وقالت:

– هذا كل ما حدث من غير علمك يا نللي. والآن لا أستطيع أن أمتنع عن الذهاب إلى مرتفعات ويذرنج إلا بثمن باهظ هو سعادة شخصين، وفي الإمكان أن أواصل زياراتى إذا لم تخبري أبي، عديني بألا تخبريه.

– سأفكر في هذا الموضوع حتى الغد، أما الآن فأتركك لتستريحي.

والواقع أنني فكرت ولكن بصوت مسموع جدًا، وفي حجرة سيدي. لأنني توجهت إلى هناك مباشرة فأيقظته وأخبرته بكل شيء، فانزعج جدًا، وحزن حزنًا أشد كثيرًا مما أظهره لي.

وفي الصباح علمت كاثراين أنني أفشيت سرها، ولم تشفع لها دموعها وتوسلاتها إلى أبيها أن يرحم ابن أخته المريض، وكل ما ظفرت به من والدها

هو وعده بأن يكتب إلى لينتون مرخصًا له في الحضور إلى الجرانج حين يشاء.

ولكنه سيحذره في الوقت نفسه من محاولة استقبال كاثراين في ويذرنج.

هل أطاعت كاثراين أباها؟ نعم أطاعته؛ لأن حبها له كان لم يزل المسيطر على قلبها، والواقع أنه كان بالغ الحنان وهو يشرح لها الموقف. ثم سألني:

- صارحيني بصدق عن رأيك فيه يا نللي هل يرجى له تحسن؟

- إنه ضعيف جدًا يا سيدي، ولا أرجح أن يبلغ مبلغ الرجال. ولكني أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يشبه أباه كثيرًا، وأما الآنسة كاثراين إن شاء لها سوء الطالع أن تتزوجه فلن تجده عصي القياد، ما لم تستنم له في بلاهة، ولكنك ستعرفه على حقيقته بنفسك، فأمامه أربع سنوات حتى يبلغ سن الزواج والرشد.

- الحقيقة يا نللي أنني كنت قد سألت الله هذا المصير، ولكنني متوجس الآن من تحققه. وأخشى بعد موتي أن تصبح ابنتي في قبضه يد هيثكليف، ليتها تموت قبل هذا!

وأقبل الربيع دون أن تتحسن صحة سيدي أو يسترد عافيته الأولى، فغاية ما قدر عليه أن يتنزه في الحديقة مع كاثراين، وظنت الساذجة أن هذا في ذاته علامة خير، ولما بدأ خداه يتوهجان بالحمرة ظنت المسكينة أنها حمره العافية، ولما حل عيد ميلادها السابع عشر كان حالته قد ساءت.

أما لينتون فلم تسمح له صحته بالحضور، وبعث إلى خاله يخبره بأن

والده يعارض في أن يزور الجرانج. ثم شفع ذلك بقوله:

- أنا لا أطلب منك يا خالي أن تزورني كاثي هنا، ولكن هل قدر علينا أن نتعذب بين نارين من تحذيراتك وتحذيرات أبي؟ أتوسل إليك أن تصحبها بين الحين والحين إلى الأحراش على صهوة جوابك فنتبادل كلمتين في حضورك. أستحلفك بذكرى أمي العزيزة أن ترق لنا ولا تبخل علينا بهذا الهناء اليسير، ومقابلة واحدة بيني وبينك أيها الخال العزيز حرية أن تقنعك بما بين طباعي وطباع أبي من اختلاف كبير. إنك مهتم بصحتي، وهي أحسن ولله الحمد. ولكن ما دمت محرومًا من كل أمل في السعادة والاجتماع بمن أحب، فكيف تريدني أن أسترد عافيتي؟

وضمت كاثي صوتها إلى صوت لينتون، غير أن صحة سيدي لم تسمح له بمثل ذلك الركوب. فسمح لها على مضض بأن تذهب في صحبتي للنزهة في الأحراش قرب المرتفعات حيث تستطيع أن تلتقي بابن عمتها تحت حراستي.

وفي أول نزهة من تلك النزهات كان اللقاء على بعد ربع ميل من باب داره، وكان راجلًا فاضطررنا للنزول عن الجوادين وتركناهما يرعيان العشب.

وظل لينتون راقدًا فوق الأعشاب في انتظار اقترابنا، فلم يهتم بالنهوض إلا حينما صرنا على قيد خطوات معدودة، ثم سار إلينا بضعف شديد. وكان يبدو شديد الشحوب حتى إنني لم أكتم دهشتي وصارحته برأيي، ورمقته كاثراين في أسى ودهشه، وقد تبخر الفرح العميم الذي كان يفيض من جوانحها بتلك النزهة بعد طول البعاد.

- ولكنك يا حبيبي أسوأ كثيرًا مما رأيتك آخر مره وأشد هزالًا.

– إنه التعب فقط والحر، هيا بنا نجلس هنا.

وجلست كاثي، واضطجع هو إلى جوارها وساد الصمت إلى أن قالت:

– أعتقد أنك محتاج لمزيد من الراحة، ويحسن أن تعود اليوم إلى البيت؛ فإني لا أستطيع وأنت بهذه الحالة أن أغني لك أو أروي القصص، ثم إن الشهور التي افترقناها جعلتك أكبر من أن تقنع بهذه الملهيات فلنفترق الآن.

– بل ابقي قليلًا حتى تستريحي، ولا تظن أن حالتي سيئة كما تتوهمين، وإنما هو الحر؛ ولأنني مشيت على قدمي قبل أن تأتي مسافات طويلة. أرجو أن تقولي لخالي إن صحتي جيدة.

– سأقول له إنك تقول ذلك، أما أنا فلن أدلي بهذه الشهادة الباطلة.

– تعالي يوم الخميس القادم، ولا تنسي أن تشكريه لأنه سمح لك بالحضور أجزل الشكر. وأرجو إذا التقيت بوالدي صدفة ألا تجعليه يفهم أنني جلست معك صامتًا كالبلهاء حزينًا مكدودًا؛ لأن هذا سيغضبه.

– لست أبالي غضبه يا لينتون.

– ولكني أنا أباليه، سينتقم مني، فلا تثيريه علي لأنه قاسٍ جدًا.

– أب يقسو على وحيده؟ هل تحول من الكراهة السلبية إلى الإيجابية؟

وكنت أنا صاحبة هذا السؤال، فنظر إلي لينتون ولم يجب. وطال جلوسنا عشر دقائق أخرى، كان رأسه خلالها ملقى فوق صدره، لا ينطق إلا

بالتأوهات. فقامت كاثراين تقطف بعض الأزهار البرية معي، ولما عادت لتقدمها إليه وجدته قد نام. فقالت لي همسًا: «ما الفائدة من البقاء؟ هيا بنا».

- لا ينبغي أن نتركه نائمًا، تصبري حتى يستيقظ. هل تبخر شوقك إليه؟

- لست أفهم لماذا أراد أن يراني وألح في توسله على أبي؟ لقد كانت ثوراته القديمة ونكده أحب إلي من هذا الخمول، يخيل إلي أنه جاء يلقاني مسخرًا حتى لا يقرعه أبوه، وأنا لا يعنيني أن أحضر لا لشيء إلا إدخال السرور على قلب مستر هيثكلف الكبير مهما تكن أغراضه، ولكني غير آسفه كل الأسف لأني وجدته أحسن حالًا.

- أتظنين أنه أحسن حالًا؟

- طبعًا ففيما مضى كان يشكو باستمرار، أما الآن فشكواه أقل.

- رأيي يختلف عن رأيكن فهو في نظري أسوأ حالًا الآن.

وفي هذه اللحظة انتبه لينتون مذعورًا، فقالت له كاثراين: «أعجب لك كيف تغفو هكذا في العراء، ونحن في الضحى! هل أنت أحسن حالًا حقًا؟».

فطفرت الدموع من عيني المسكين وهو يقول: «نعم، أؤكد لك ذلك».

فنهضت كاثي وقالت له: «حسبنا هذا اليومن ولا أكتمك أن مقابلتنا هذه خيبت آمالي. ولكني لن أبوح برأيي هذا لأحد سواك، وإن كنت لا أقيم وزنًا لمستر هيثكليف».

فتعلق بذراعها وتضرع قائلًا: «صه، صه بحق السماء! إنه قادم هناك».

فانتزعت ذراعها من قبضته، وصفرت لمهرها فأقبل، وقفزت فوق صهوته وصاحت: «سأكون هنا يوم الخميس، هيا بنا يا نللي».

وهكذا تركناه وهو لا يكاد يشعر بانصرفنا لاستغراقه في الفزع من اقتراب أبيه، وما إن وصلنا بيتنا حتى كان شعور كاثراين قد تحول من الغضب والاستياء إلى العطف والرثاء لذلك الفتى المسكين.

# ألحان القدر

ازدادت صحة سيدي ضعفًا، ووضح أنه ينحدر إلى نهايته المحتومة، بيد أن كاثراين كانت تنتهز الفرص لتخرج معي إلى ابن عمتها الذي صار يستقبلنا في كل مرة بمزيد من الاهتمام، ولكنه اهتمام يبدو عليه التسخير.

وترامت أخبار مرض مولاي إلى هيثكليف، فلما التقى بي أظهر سرورًا عظيمًا بتلك الأنباء، بيد أنه أكد لي أن موت إدجار لينتون بهذه السرعة يحرمه من لذة غصة يريد أن يشعره بها قبل أن يلقى أجله.

وفي المرة التالية لتلك المقابلة، وجدنا لينتون مسلوب القوة تمامًا، ولما زجره والده يستحثه على القيام والحركة، كي يسير معه إلى البيت في ختام المقابلة، جعل يرتعد وقال له: «دعني وإلا غشي علي، لقد نفذت رغبتك يا أبي، سل كاثراين تخبرك أنني كنت مرحًا في هذه المرة. ابقي بجانبي يا كاثرايناً وأعطيني يدك».

ورق قلب كاثراين فمنحته ذراعها ليتكئ عليها فاطمأن، ولما أراد والده أن يسنده بذراعه جعل يرتجف. مما اضطر والده أن يقول لها:

– هل تتكرمين بمصاحبته حتى البيت، إنه يرتجف كلما لمسته.

– أنا لا أستطيع ذلك؛ لأن والدي حرم علي دخول دارك.

فبكي لينتون وصاح: «لن أدخل البيت من غيرك».

– اخرس! يجب أن نحترم إخلاص كاثراين.

وجعل الفتي يتأوه حتى رقت له كاثراين فصاحبته حتى أدخلته الدار، وانتظرت أنا في الخارج. وإذا هيثكليف يدفعني إلى الداخل ويغلق الباب.

– ليس بيتي موبوءًا بالطاعون، لن تنصرفا قبل تناول الشاي معنا.

فثار غضب كاثراين أكثر من غضبي، وأصرت على أن تخرج فورًا ولا تأكل أو تشرب شيئًا، لأن والدها سيحزن جدًا إذا علم أنها خالفته. فدس الوغد المفتاح في يده وقال: «لن يكون في العالم شخص أسعد مني إذا ضمنت أن وجودك هنا يحزن إدجار لينتون، وستمكثين هنا الليلة حتى الصباح».

فهجمت كاثراين عليه لتأخذ المفتاحن ولما وجدت أظافرها الطويلة لا تؤثر في قبضة يده أنشبت فها أسنانها، فانهال على جانب رأسها بوابل من الصفعات، وكل صفعة منها تكفي لإلقائها أرضًا لو كانت واقفة، وقبل أن أهجم عليه كانت قد ألقت المفتاح ووضعت يديها على رأسها، ثم دارت بها الأرض فوقعت. وعندئذ استرد المفتاح وقال: «هذا لتعلمي أنني قادر على تأديب العاصين. اذهبي إلى لينتون وابكي معه ما شاء لك البكاء، سأكون حماك غدًا صباحًا، وستذوقين من هذا الصنف كل يوم إلى أن يسلس قيادك».

وهكذا اعتقلنا ذلك الوغد في الفخ الذي نصبه لنا، وحبسني في حجرة منعزلة مظلمة إلى أن كان له ما أراد من تزويج الشابين كرهًا، وكان هذا الزواج هو الغصة التي أشار إليها قبل أيام، وقال إنه يريد أن يذيقها إدجار لينتون قبل

أن يموت. وكان قاسيًا جدًا في صراحته مع ابنه، حين قال له أمامنا إنه لا يريد أن يؤجل ذلك الزواج إلى ما بعد وفاة إدجار لينتون، لأنه يخشى أن يموت ابنه قبل ذلك، فتفسد الخطة كلها.

وظللت أنا محبوسة في الحجرة وحدي خمسة أيام في الظلام لا أعرف شيئًا عن أخبار كاثراين، ويأتيني هيرتون بالطعام يدسه من الكوة ويرفض أن يبادلني الكلام أو يرد على أسئلتي. وفي اليوم الخامس دخلت على الخادمة زيلا، ومنها عرفت أن القرية كلها تتحدث عن هلاكي وهلاك سيدتي في المستنقعات، ثم أطلقت سراحي فنزلت لأجد لينتون في حجرة الجلوس، ولما سألته عن سيدتي بلهفة قال ببرود:

- لا شأن لك بها الآن، لقد أصبحت زوجتي. وإذا حاولت الاقتراب منها جعلك أبي ترقصين من الألم، وأنا أيضًا يجب ألا أقترب منها، إنها في الطابق العلوي تحت التأديب. فأبي سيتولى إعدادها الإعداد اللازم كي تكون زوجة مطيعة لي، ولن تعود إلى الجرانج، هذه هي أوامر أبي. أما أنا شخصيًا فلا أريدها؛ لأنها غير مسلية وتبكي باستمرار، وأنا أريد أن أبقى وحدي لكي لا تضايقني ببكائها. وعلى فكرة جاء الطبيب كينيت هنا وأخبر أبي أن خالي في النزع الأخير، وهكذا أخيرًا سأغدو سيد الجرانج بحكم الوراثة.

- وهل أنت تكرهها إلى هذا الحد؟

- ها ها، إنني أتلذذ برؤية الدم يسيل من أنفها وأبي يضربها، إنه يعرف كيف يضرب ضربًا موجعًا، وهي تستحق هذا لأنها تضايقني ببكائها.

فأدركت أنه لا فائدة من إطالة الكلام مع هذا الغلام، وقررت التوجه فورًا إلى الجرانج لأحضر من هناك نجدة قوية تستخلص سيدتي. ولكن ما إن وصلت إلى هناك حتى وجدت سيدي في أسوأ حال، ومع ذلك أصر أن يعرف القصة بتفاصيلها. وفطن سيدي إلى أن هدف عدوه هو الحصول على ممتلكاته الشخصية فضلًا عن الضيعة الموقوفة، فأمرني في الحال أن أبعث في طلب المحامي، وأن أطلب أربعة رجال مسلحين من القرية كي يستردوا سيدتي من سجانها. وعاد الرسول من القرية بعد قليل ليقول إن المحامي سيأتي في الصباح الباكر، أما الرجال الأربعة فعادوا بعد فترة طويلة ليقولوا إن هيثكليف اعتذر لهم بأن كاثراين مريضة، وهذا سبب بقائها هناك، وليس السبب أنها مسجونة، فلعنت غفلتهم وقررت أن أذهب معهم لإحضارها بأي ثمن.

وفي الساعة الثالثة صباحًا، وأنا أتهيأ للذهاب بعد ساعة إلى المرتفعات سمعت طرقًا على الباب، فحسبته المحامي جاء لكتابة الوصية الجديدة، وفتحت الباب على هذا الأساس فإذا سيدتي تتعلق بعنقي ثم تسألني عن والدها. ولما علمت أنه ما زال على قيد الحياة جعلت تقفز السلالم إلى حجرته. وما ملأ المسكين عينيه منها، وقبل خديها حتى قال:

– إني ذاهب إليها، وأنت يا عزيزتي ستأتين أيضًا إلينا.

وكانت هذه كلماته الأخيرة، التي مات بعدها في هدوء وسلام.

ولا أدري ما الذي أصاب الفتاة، فقد تحجرت دموعها. وظلت جالسة بجانب جثمان أبيها إلى وقت الظهر، حتى إذا حضر المحامي جعل يأمر

وينهي في البيت كأنه السيد المطلق، وقد علمت من كاتبه أن سبب تأخره في الحضور تعليمات سابقة من هيثكليف الذي كان قد اشترى ذمته، حتى لا يتمكن إدجار لينتون من تغيير الوصية.

وقد علمت من كاثراين عندما هدأت قليلًا أن كثرة بكائها جعلت هيثكليف يتفنن في تعذيبها، فصار يغيظها بفتح الباب وإقفاله بالمفتاح تباعًا. ولما أراد أن ينصرف نسي أن حركته الأخيرة لم تكن إقفالًا بل فتحًا، ثم ذهب لينام مع هيرتون، فتسللت في جوف الليل، ولاذت بالفرار.

وبعد الجنازة جلست مع سيدتي الصغيرة في المكتبة لنقضي المساء، ورحنا نتشاور في الموقف. ودخل علينا خادم، وكان ممن تلقوا أمر الطرد، وقال لنا: إن الشيطان هيثكليف قادم في الفناء. فهل أغلق الباب في وجهه؟

ولو أننا فكرنا في ذلك لما اتسع لنا الوقت؛ لأن المجرم لم يتأدب فيطرق الباب بل دخل دخول السيد في ملكه، ورأى النور في المكتبة فدخل وأخرج الخادم وأغلق بابها، فنهضت كاثراين لتخرج. فجذبها من ذراعها وقال لها:

– قفي، لا فرار لك بعد اليوم مني. وأين تذهبين؟ لقد جئت لآخذك إلى البيت، وأرجو ألا تضطريني إلى إرغامك على حسن السلوك الواجب نحو زوجك وأبيه الذي أصبح أباك أيضًا.

فتدخلت أنا وتوسلت إليه أن يبقي سيدتي في بيتها الذي نشأت فيه، ولا سيما أنه لا يستريح لرؤيتها. فلماذا لا يوفر على نفسه تلك المشقة؟ فأجاب بأنه ينوي تأجير الجرانج. ثم أردف: «إن هذه الفتاة ستكون مدينة لي بلقمتها، ويجب أن تخدمني مقابل ذلك، ولست عازمًا أن أطعمها ببذخ

وتستسلم هي للكسل بعد وفاة لينتون. ستكون خادمة عندي».

فنهضت كاثراين لتذهب معه، وقالت له:

- إن لينتون هو كل ما بقي لي في الحياة، وأنا أحبه رغم أنه ابنك، أما أنت فلا أحد في الدنيا كلها يحبك، ومهما أشقيتني وأشقيته، فسيخفف عنا العذاب علمنا أن تعذيبك لنا منبعث من عذابك وشقائك الذي يفوق شقاءنا كثيرًا. إنك وحيد كالشيطان، حسود مثله وحقود، لا أحد يحبك ولن يبكيك عند وفاتك أحد، ولا أتمنى أن أكون في مكانك مهما شتد شقائي.

فنهرها، ثم أمرني أن أبقى في الجرانج مدبرة للدار، وأبى أن أذهب مع سيدتي، فلما خرجت سيدتي لتعد حقائبها، وأردت أن أذهب معها جذبني واستبقاني، ثم قال لي وكأنما كلمات سيدتي الأخيرة أثارت كوامن نفسه:

- تعلمين أنني همت على وجهي كالمجنون بعد وفاة كاثي، وجعلت أجوب الأحراش مستصرخًا روحها أن تظهر لي. وإني أومن إيمانًا عميقًا بالأشباح وأنها توجد بيننا، لن أنسى يوم دفنت، في تلك الليلة سقط الثلج، وكنت واقفًا بجوار القبر. فقلت لنفسي: «سأضمها إلى صدري مرة أخرى، وإذا كانت بلا حرارة فسأعزو ذلك إلى الرياح الباردة، وإذا كانت بلا حراك فسأزعمها نائمة». فتناولت فأسًا ورحت أحفر حول القبر بكل همة إلى أن عثرت على التابوت، ورحت أحاول فتحه بيدي، وكانت المسامير المحواة تستجيب، لولا أنني سمعت تأوهًا كالتنهد من فوقي، كأن إنسانًا ينحني فوق أحجار القبر فوق كتفي، فقلت: «إذا استطعت أن أرفع الغطاء فلن

يعنيني أن يهيل التراب على رأسي ذلك الشخص فيدفننا معًا»، ثم بذلت محاولة يائسة. فسمعت تنهدًا آخر لصق أذني، وأحسست بالنفس الحار يلفحها وسط ذلك البرد القارس، وكنت واثقًا بأنه لا يوجد مخلوق حي على مقربة مني، وإذا بي أشعر شعورًا عميقًا لا مراء فيه بأن كاثي هناك، لا في التابوت، بل فوق الأرض، فشاع في قلبي وجميع جوارحي شعور مفاجئ بالإرتياح، وأحسست بعزاء لا يوصف. وظل هذا الشعور بوجودها معي يلازمني إلى أن سويت مهاد القبر وأغلقته وعدت إلى البيت. قد تضحكين، ولكنني كنت واثقًا بأنني سأراها، وأنها كانت معي، وأنني أستطيع أن أكلمها، فلما وصلت إلى الباب تذكرت أن هندلي إيرنشو وزوجتي أغلقاه من الداخل ومنعاني من الدخول، فاقتحمت الباب وضربت هندلي بالأرض ثم أسرعت إلى حجرتها، وتلفت في لهفة فشعرت بها إلى جانبي، وكدت أراها، ولكنني لم أستطع. وأوشك الدم أن يطل من مسامي مع العرق شوقًا وتطلعًا وتحرقًا إلى لمحة منها. لقد ضنت علي هذه اللمحة كما ضنت على بنفسها في الحياة، عذبتني بعد موتها كما عذبتني في حياتها. ومنذ ذلك اليوم أشعر كلما خرجت من الدار مع هيرتون كأنني أوشك أن أقابلها وأشعر كلما عدت من الحقل إلى الدار أنني سأجدها هناك في انتظارى، وكلما تجولت في الأحراش خيل إلي أنني سألتقي بها، وهذا سر عزلتي، إنني معها حيث أدري أنها في مرتفعات ويذرنج لم تبرحها روحها. وكنت كلما نمت في حجرتها أشعر بتلك الروح خارج النافذة تطرقها، بل أشعر أحيانًا بأن رأسها الغالي على الوسادة نفسها التي أتوسدها كما كانت تفعل وهي طفلة.

ورأيت العرق يتصبب من جبينه فيلتصق به شعره، وقد حملقت عيناه في

النار. لم يكن يخاطبني في الواقع، وإنما كان يخاطب نفسه. فلزمت الصمت ولم أعلق بكلمة، إلى أن ثاب لنفسه حين دخلت كاثراين وذكرت أنها مستعدة ولا تنتظر إلا إسراج مهرها. فقال:

- لا حاجة لك بالمهر، فالليل جميل. سنمشي.

فقبلتني سيدتي متجلدة، وقالت: «لا تنسي أن تزوريني يا نللي».

فزمجر حموها وقال لي: «احذري أن تفعلي شيئًا كهذا، وحين أريدك سآتي هنا، أما وجهك فلا أريد أن أراه في بيتي».

فرمتني سيدتي بنظرة انفطر لها قلبي قبل أن يدفعها أمامه ويخرج، ووقفت أرقبهما من النافذة، فرأيت هيثكليف يتأبط ذراعها بعنف ويكاد يجرها على إعيائها وحزنها جرًا لتلحق بخطواته العملاقة.

ودفعني حبي لسيدتي أن أزور المرتفعات مرة، ولكني لم أفلح في رؤيتها؛ لأن جوزيف أبى أن يدعني أدخل، ولم يتح لي أن أراها بعد ذلك التاريخ. ولكني قابلت زيلا مرة، فروت لي نمط حياة كاثراين هناك:

- في اليوم التالي لوصول سيدتي رأيتها تهبط منزعجة، وكان هيثكليف يتناول الإفطار مع هيرتون. وسألت بقلق إن كان أحد قد ذهب ليدعو الطبيب؛ لأن زوجها مريض جدًا. فقال هيثكاليف إن حياته لا تساوي أجر زيارة الطبيب. ثم أردف: «فليمت بأسرع ما يمكن، أما أنت فاخرجي من هنا ولا أريد أن أسمع كلمة عنه بعد الآن، وإن كان يهمك أمره فمرضيه أنت، أما إن كان لا يعنيك أمره فأغلقي عليه بالمفتاح واتركيه».

وقضت بعد ذلك جملة ليالٍ تمرضه وحدها، إلى أن أيقظتني ذات ليلة وقالت باكية: «أخبري مستر هيثكليف أن ابنه في النزع الأخير هذه المرة فعلًا».

ثم اختفت عن نظري، فعدت للرقاد ربع ساعة، وأنا مرهفة السمع فلم أسمع حسًا، فقلت في نفسي إنها نوبة كجميع النوبات مرت بسلام، وإذا بالجرس يرن من حجرة لينتون، فصرخ سيدي طالبًا مني أن أنهض لأرى ماذا حدث وأخبرهما، إنه لا يريد أن تتكرر هذه الضجة. فذكرت له رسالة كاثراين، فسب ولعن وأوقد شمعة ذهب بها إلى هناك وأنا في أعقابه، فوجدت كاثراين جالسة على حرف الفراش ويداها على ركبتيها، فدنا حموها ورفع الضوء فوق وجه لينتون وحملق فيه، ثم جسه. والتفت إليها سائلًا. فقالت:

– لقد أصبح بمنجاة منك، وتحررت أنا.

وبعد قليل قالت بمرارة: «ولكنك تركتني طويلًا أكافح الموت وحدي، حتى لم أعد أشعر أو أرى سوى الموت». فأسعفتها بقليل من الخمر، واستدعي هيثكليف جوزيف، فأمره أن ينقل الجثة إلى حجرته، وبقيت كاثراين وحدها لأنه ذهب ليستأنف النوم.

وفي الصباح دخلت عليها لأدعوها إلى الإفطار بأمر منه، فوجدتها خلعت ثيابها لتنام ورفضت أن تأكل. وظلت معتكفة في حجرتها أسبوعين لا يدخل عليها أحد سواي بما يلزمها من الطعام والخدمة.

وزارها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون التي بمقتضاها أورث أباه كل شيء، وكان قد أكرهه على توقيعها كعادته، أما الأرض الموقوفة فلم

يستطع أن يتصرف فيها لأنه قاصر، وما ورثته كاثراين تحت يد هيثكليف، وهي لا تستطيع مطالبته بشيء؛ لأنها محرومة من الأصدقاء. وإن كان هذا لن يدوم طويلًا؛ لأنها تعامل معاملة الخدم وترغم على مجالستنا، وهذا طبعًا لا يعجبها، ولكني أشعر بأن هيرتون مغرم بها على طريقته الخشنة، وأتوقع بمرور الوقت أن يتغير حالها. والفتى ابن خالها على كل حال، مهما قلنا عن فقره وجهله، وإن كانت هي حتى الآن لا تشجعه كثيرًا أو قليلًا، فيما عدا ما تقدمه إليه من الكتب، فساعدته على تعلم الحساب وغير ذلك.

وبعد أن بلغني هذا من زيلا صممت أن أترك عملي وأقيم في كوخ، وأدعو كاثراين أن تأتي وتعيش معي، لولا أنني أعلم أن هيثكليف لن يسمح بهذا، فهو لا يعيش إلا على الحقد الذي يشبعه باستعباد ولدي عدويه هيرتون وكاثراين، ولست أرى لها في الوقت الحاضر صلاحًا إلا بالزواج، وذلك شيء ليس في مقدوري أن أرتبه لها».

# الأبواب لم تغلق بعد

إلى هنا أنتهت قصة نللي دين.، وكانت حالتي الصحية قد تحسنت قليلًا، ومع أن عقد الإيجار لم يصل إلى ختامه، قد قررت أن أغلق الجرانج وأقضي الأشهر الستة التالية في لندن؛ لأن الجو هنا لا يطاق تلك المدة.

وعلى هذه النية توجهت إلى مرتفعات ويذرنج لأعلم هيثكليف بما صح عليه عزمي، وحملتني مسز دين رسالة كي أسلمها خلسة إلى كاثراين.

وقد وجدت الباب الخارجي مفتوحًا، أما البوابة فكانت مغلقة، فلما طرقتها فتحها لي هيرتون فدخلت، وهو والحق يقال وسيم كأوسم ما يكون شاب ريفي. وجلست أنتظر عودة هيثكليف الذي قيل لي إنه سيعود بعد ساعة، ووجدت كاثراين جالسة تعد شيئًا من الخضر للغداء، وكانت تبدو أشد قطوبًا مما رأيتها من قبل. وساءني منها عدم اكتراثها لدخولي، وإن كنت لاحظت أنها بديعة الحسن حقًّا. ولما كانت جالسة بالقرب من النافذة فقد انتهزت هذه الفرصة لأقترب منها متصنعًا إلقاء نظرة على الحديقة، وغافلت هيرتون وألقيت في حجرها الورقة الصغيرة المطوية. وإذا بها تسألني بصوت مرتفع: «ما هذا؟».

- رسالة من صديقتك القديمة مسز نللي دين.

وكانت توشك أن تتناولها لولا أن هيرتون كان أسرع منها فدسها في جيبه ليطلع عليها هيثكليف حينما يعود. فطفرت الدموع من عينيها غيظًا ولم تتكلم. ويظهر أن ابن خالها رق لها فأخرج الخطاب وألقاه بجوارها في جلافة

الريفيين، فتناولته مغتبطة وقرأته. ثم راحت تسألني عن نللي أسئلة كثيرة تدل على الطفولة وعلى اللهفة والوحشة. ولما تركنا هيرتون وحدنا أخبرتها أن نللي روت لي قصتها كلها، وإنه يسرني كثيرًا أن أحمل إلى نللي أي رسالة سرية تريد أن تكلفني بها فقالت: إن هيثكليف لا يسمح بوجود أدوات للكتابة في البيت. ولم يتسع لها الوقت للإفاضة إذ دخل هيثكليف علينا، فقلت له: «يؤسفني أنني سأغادر الجرانج لأقضي الأشهر الستة المقبلة في لندن، وقد جئت اليوم خصيصًا لأشكرك وأودعك».

في شهر سبتمبر من عام ١٨٠٢، كنت في طريقي إلى الشمال تلبية لدعوة صديق، فوجدت نفسي على مسافة خمسة عشر ميلًا من جيميرتون، فخطر لي فجأة أن أزور الجرانج، وأن أمضي الليلة في تلك الدار التي أدفع أجرها حتى نهاية العام، وأنتهز الفرصة لأذهب في اليوم التالي لتسوية الحساب مع هيثكليف.

ولما وصلت إلى الجرانج لم أجد مسز نللي دين، وقال لي الخادم الذي فتح الباب لي: «إنها تقيم في الوقت الحاضر في مرتفعات ويذرنج».

وبعد أن استرحت قليلًا، تعجلت المسير إلى المرتفعات؛ لأعرف علة هذا الانقلاب الذي جعل مسز دين تقيم هناك بعد أن كانت الدار محرمة عليها.

ووجدت البوابة في هذه المرة مفتوحة، وكذلك الباب الداخلي وباب المطبخ، ورأيت شبحين بالقرب من النافذة يتناجيان. كان صوت المرأة رخيمًا عذبًا يفيض تدليلًا ودلالًا، أما صوت الفتي فكان غنيًا يفيض سعادة وحبورًا. وطرقت الباب، فأسرعت مسز دين وفتحته، وعرفتني على الفور

فرحبت بي. ثم خرجت معي إلى الحديقة، وأخذت تقص علي ما حدث بعد سفري:

– تركت زيلا خدمة مستر هيثكليف بعد رحيلك بمدة يسيرة، فطلب مني أن أحل محلها إلى أن تعود. ولكن ألا تفضل أن أتم لك القصة في الجرانج.

– بل يهمني أولًا أن أسوي مسألة الحساب المتعلق بالإيجار مع سيدك.

– بل هذه المسألة من اختصاص سيدتي، وهي قد وكلتني في إدارة أملاكها. لماذا تنظر إلى بهذه الدهشة؟ أحسبك لم تسمع بوفاة هيثكليف؟

– هيثكليف مات؟ متى؟

– منذ ثلاثة أشهر، هيا ندخل المكتب ما دمت جئت لتسوية الحساب، وسأخبرك بكل شيء. لقد سرني أن أجيء إلى هنا حتى أكون مع سيدتي، وكان أول لقاء بيننا حارًا مؤثرًا؛ لأني وجدتها هزيلة حزينة، ووجدتها أكثر من هذا متوترة الأعصاب، تسرع إلى الثورة لأتفه الأسباب، ولا سيما في كل شيء يتصل بهيرتون، فتسبه وتحقره بغير موجب. وكان يدهشني أن أراه على غلظته المعهودة يتقبل ثوراتها بالصمت والهدوء. وإذا بمعاملتها له تتبدل من تلقاء نفسها بين يوم وليلة فلا تحدثه إلا بمجاملة ولطف، ولكن في بعض الأحيان كانت تثوب إلى معاملتها الأولى فتقصيه عنها بازدراء. ثم إنفجرت فيه يومًا تبكته لأنه يهدر رجولته ويطيق الصبر على هذه الحياة، وفي الوقت نفسه كانت تدفعه دفعًا إلى القراءة. وتوصيني بأن أستحثه على التعلم. أما هيثكليف فازداد ميله إلى العزلة، وكثر خروجه في جوف الليل إلى الأحراش ومعه بندقيته للصيد نسمع طلقاتها تدوي تباعًا. وفي ذات ليلة انفجرت البندقية فبترت

ذراعه، وظل الدم ينزف منه بغزارة وهو يزحف ليصل إلى هنا، وكانت هذه الإصابة الخطيرة سببًا في قعوده عن كل حركة جملة أسابيع.

وكأنما نزلت تلك العاهة بردًا وسلامًا على قلب كاثراين، فازدادت رقتها في معاملة هيرتون، وبدأت تدعوه ابن خالها، وبدأ هو ينفر منها انتقامًا لكبريائه، حتى تلاشت عنجهيتها وصارت تستجدي صحبته ومودته. وفي ذات يوم وصلت في توسلها إلى أن طبعت على وجهه قبلة، فكأنما كانت هذه القبلة نقطة تحول شامل في علاقتهما، ومنذ ذلك اليوم وهما ينفردان بنفسيهما طول النهار وساعات من الليل كي يستكمل على يد أجمل معلمة ما فاته من العلوم والمعارف، وبدأت حاشيته ترق بشكل ملحوظ. ثم أتم الله عليهما نعمته بوفاة هيثكليف.

– ولكني أحب أن أعرف ظروف وفاته.

– كان يعيش منذ إصابته في عزلة. وفي ذات ليلة بعد أن رقد الجميع سمعته يهبط السلالم ويخرج من الباب الأمامي، بيد أني لم أسمعه يعود، وفي الصباح تبينت أنه لم يعد. وكنا في شهر إبريل والجو دافئ، وبعد قليل رأيته يدخل متهلل الوجه على غير العادة، ولما عرضت عليه أن يتناول الإفطار أبى، ولكنه تناول معنا الغداء، ثم طلب منا إخلاء الحجرة، فخرج الجميع.

وحبس نفسه في الحجرة، وقد سمعته يذرعها طولًا وعرضًا إلى الساعة الرابعة من الصباح.

ونهضت على عادتي اليومية إلى المطبخ، وإذا به يفتح الباب ويأمرني أن أدخل فأشعل النار في المدفأة، وأعرب عن رغبته في أن يرسل رسولًا إلى

المحامي؛ لأنه يريد أن يعد وصيته. فجعلت أصرف فكره عن هذا الموضوع، وأغريته بأن يأكل فرفض، واستمر على رفض الطعام طيلة ذلك اليوم.

ولما حل المساء حبس نفسه في الحجرة المسكونة، فلما أسفر الصبح وخرجت أستنشق الهواء في الحديقة، لاحظت أن نافذتها مفتوحة على مصراعيها، وكان المطر قد انهمر طول الليل. فأسرعت إلى هناك. ولما دخلت الحجرة وجدتها خالية، ففتحت الخزانة التي تضم الفراش العتيق الذي كانت تنام فيه كاثراين من قبل فوجدته نائمًا على ظهره مفتوح العينين ينظر نظرة ثاقبة. ولكن الابتسامة تشيع في وجهه، وكان المطر يبلل وجهه وصدره وثيابه تقطر ماء، فخامرني الشك وهززته فإذا به قد فارق الحياة.

– ما أليق هذا الختام بحياته!

– إنه ختام جاء في الأوان؛ لأن سيدتي –وقد ورثت كل شيء– ستتزوج عما قريب من ابن خالها هيرتون، وسيقيمان بعد انتهاء مدة عقدك في الجرانج.

– وإذن فليس أحب إلى نفسي من التنازل عن المدة الباقية في العقد.

ولما ودعتني مسز دين إلى الباب، تلكأت في الحديقة قليلًا بين الأشجار لأصغي إلى نغمة جديدة لم تتعودها مرتفعات ويذرنج في عهود شقائها، نغمة النجوى الرقيقة والقبلات التي لا يصلح بغيرها شباب الحياة.

# الفهرس


تقديم ........................................ ٥
مؤلفة الرواية ................................ ١١
سلسلة تغلق الأبواب ........................... ١٥
بعيدا عن أعين الفضوليين ...................... ٣٦
العاصفة تحدث فجأة ............................ ٥٩
ذات مساء رطب الأنفاس.......................... ٨٢
لقاء أخير ..................................١٠٩
المالك المنتظر ..............................١٣٧
الوعد الكاذب ...............................١٦١
صبر بلاضفاف ...............................١٨١
ألحان القدر ................................٢٠٦
الأبواب لم تغلق بعد..........................٢١٦